A FLY IN A SUITCASE

نشأت يونس

ذبابة في حقيبة سفر

معركة الوزير

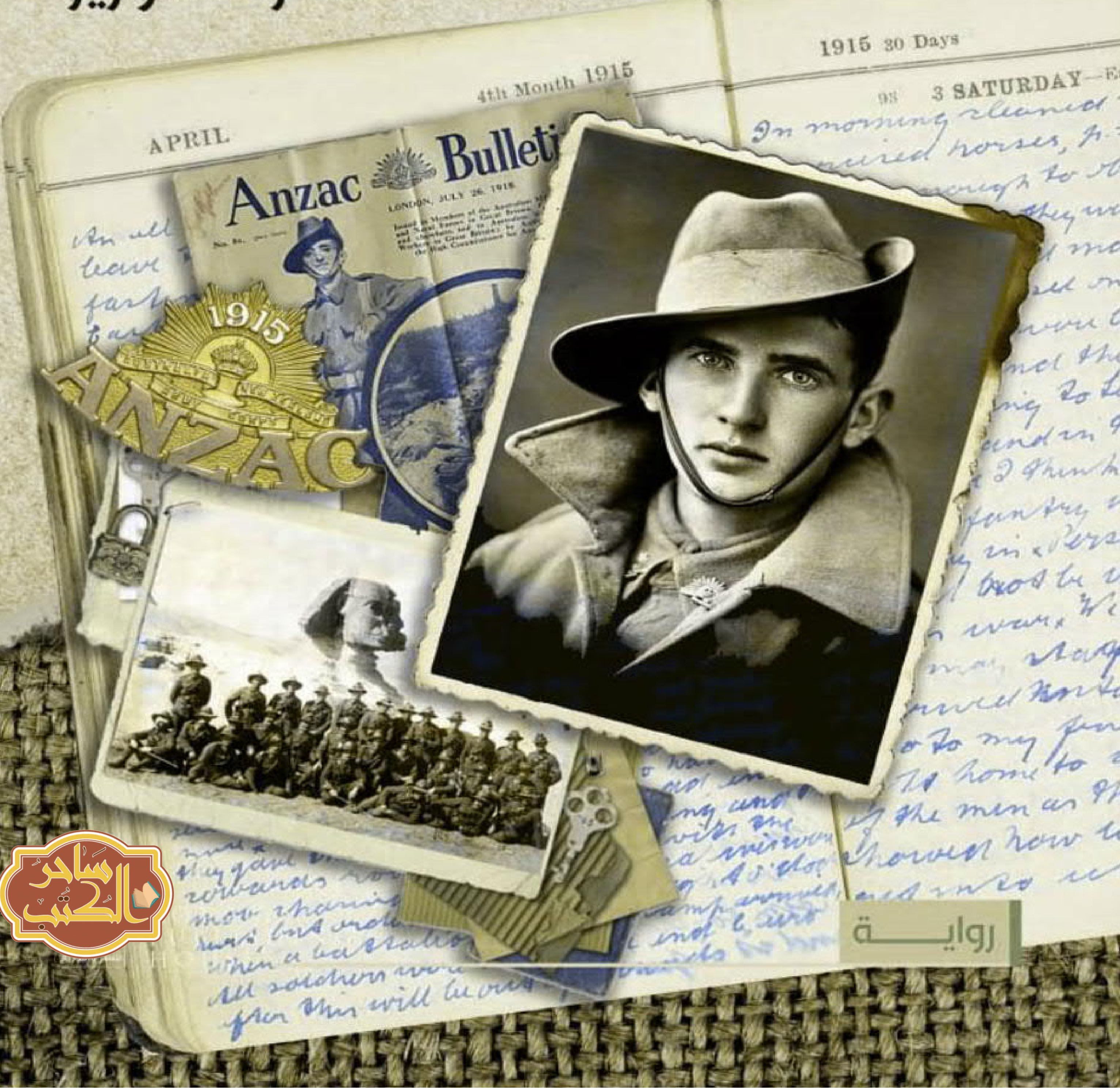

إهداء

إلى أبي...توسّمتَ فيّ الكثير وخذلتُك...سامحني..

إلى أمي... أضاعت عليّ الغربة جنانًا تحت أقدامك... سامحيني..

إلى زوجتي وأولادي ... تحمّلوني ...سامحوني..

إلى نفسي ...لن أسامحك أبدًا!

الفصل الأول مهاجر ماهر

البداية هنا وهناك (عفت البدوي-سيدني- الحاضر)

دخل الجنديان الأستراليان إلى غرفة النوم حيث كان رجل وامرأة مصريان ينامان آمنين في مخدعهما، أمسك الاثنان بالرجل وهو شبه عار إلا من سروال قطني ضيق وحملاه وهو يصرخ، كان طول كل واحد منهما يكاد يكون ضعف طول الرجل المصري المسكين، قذفاه من النافذة من الطابق العلوي الثالث فسقط على الأرض صامتًا مضرجًا في دمائه.

حاولت المرأة المسكينة في لباس نومها الخفيف الهروب من الغرفة لكن الجنديان أمسكا بها وقذفاها أيضًا من النافذة وهم يتصايحون بجنون كذكور الغوريلا الهائجة.

لم يكتف الجنديان بذلك فخرجا إلى صالة المنزل وقد بدأت أصوات نساء أخريات من ساكنات المنزل تعلو بالصراخ وأهل المنزل يهرولون بعيدًا عن الجنديين الأستراليين الهائجين بعد أن اتحد معهما أربعة آخرون من زملائهم أخذوا يفتشون أرجاء المنزل عن مال أو مقتنيات ثمينة، ويكسرون ما تطاله أياديهم من زجاج وأثاث، نادى أحدهما على الآخر أن يساعده في حمل البيانو الخشبي الضخم في ركن البيت فساعده اثنان من زملاءه وحملوه بصعوبة كبيرة لثقله الشديد ثم

توجهوا إلى باب الشرفة ثم قذفوه إلى الأرض في قارعة الطريق فصنع صوت ارتطام البيانو بالأرض صوتًا شديدًا كقنبلة تصمّ الآذان، صرخت النساء في البيت وفي الشارع وهن يهرولن بملابسهن الخفيفة على إثرها. أحد الجنود دخل المطبخ وكسّر كل محتوياته ثم أشعل ملابس ملقاة على الأرض وأخذ يحرق بها كل جزء من المنزل، ثم نادى على زملائه ليرحلوا مخلفين ورائهم المنزل يحترق في كل ركن من أركانه وساكنيه يهرولون على السلالم بحثًا عن النجاة فمن تطاله أيدي الأستراليين يقذفونه من على درجات السلم.

نزل الجنود إلى حارة الوزير فصاح أحدهم وهو يهرول ناحيتهم يحذرهم بقدوم ذوي القبعات الحمراء -البوليس الحربي- فأمر أحد الضباط جنوده بعمل متاريس على مدخلي الحارة من الجهتين ليمنعوا تقدم خيول البوليس الحربي، وبالفعل صارت الحارة الصغيرة تعج بصفوف متوازية من الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين مدججين بأسلحتهم خلف متاريس من الأثاث المكسر والعربات الخشبية للباعة الجائلين المصريين الذين فروا بأرواحهم عندما بدأت الأمور بالاشتعال وتركوا تجارتهم تحترق وتتحطم بأيدي الأستراليين، إضافة إلى قطع خشبية متراكمة خلعها الجنود من المحال والمقاهي والبيوت الأخرى كشيش النوافذ ومنضدات خشبية وطاولات طعام مكسرة. وبينما كانت

البيوت المصرية تحترق في حارة الوزير بالأزبكية وسط القاهرة، كان الجنود الأستراليون يستعدون للالتحام مع قوات البوليس الحربي التي جاءت لتقبض عليهم وتعيد النظام.

كان حوالي ثلاثة إلى خمسة آلاف من الجنود الأستراليين بأسلحتهم الخفيفة على أهبة الاستعداد للالتحام مع البوليس الحربي بعد أن انتصروا على المصريين في عقر دارهم في القاهرة في الأزبكية حيث منطقتي (الوسعة) و(وش البركة) في معركة حارة الوزير، أو كما يسميها الأستراليون في أرشيفهم الحربي The Battle of Wazzer.

لكن مهلًا، هذه ليست قطعة من كتاب خيالي أو خيال علمي أو فانتازيا أو كابوس مزعج. نعم إن ما قرأتموه تاريخ صحيح موثق. هذه أحداث حقيقية تمت بالفعل يجهلها معظمنا كمصريين وتغاضى عنها الجميع وإن كانت مذكورة على استحياء في التاريخ الحربي الأسترالي. فقط هذه هي البداية الخطأ للحكاية أذكرها لكم لتدركوا كيف انجذبت كالمسحور لسبر أغوار لغز محير وحكاية غامضة بدأتها في سيدني في أستراليا ما بعد الألفية الثانية، وانتهت في حارة الوزير بالأزبكية بالقاهرة سنة ١٩١٥م، ولكي أبدأ البداية الصحيحة عليّ أن أقوم بعملية استرجاع للأحداث التي ساقت تلك

الأحداث المروعة، لكني على العكس سأقوم بعملٍ سموه إن شئتم «استقبال» -من المستقبل- أو سموه استرجاع مستقبلي (فيوتشر فلاش باك) أو سموه ما تريدون، فعلى غير العادة المستقبل هنا هو ما حدد الماضي أو لنقل هو ما كشف النقاب عما حدث في الماضي.

نعم أنا (عفت البدوي) مصري المولد والمنشأ وأعمل كمهندس كهرباء -فقط لكسب الرزق- أما شغفي فهو قراءة وكتابة والبحث في التاريخ متمركزًا بين أقراني من محبي التاريخ في مكانة ما بين الاحتراف والهواية، أنا العبد الفقير إلى الله حللت لغزًا قابعًا منذ أكثر من مائة عام دون أن أحاول أن أبحث عنه أو أفتش في تفاصيله وقد ساقتني الأقدار سوقًا لسبر أغوار هذه الأحداث، كنبي قدّر الله مسيرته في طريق رسالته حتى ينهيها مسيّرًا لا مخيرًا. من كان يتخيل أن رحلتي أنا وأسرتي من وطني الأم مصر عبر سنين في بلاد البترول الخليجية حتى حططنا الرحال في أقصى أراضي الجنوب الشرقي من العالم وهجرتي إلى قارة أستراليا المعزولة عن العالم سوف تكون هي المفتاح الذي بواسطته استطعت أن أفتح بوابة من الأسرار أغلقت منذ أوائل القرن العشرين في قلب مصر. من كان يصدق أن بحثي عن مستقبل آمن لأولادي وحاضر مطمئن لأسرتي في بلد المهجر، سوف يجعلني أنبش في أحداث ماض سحيق لوطني الأم

مصر وقد طويت صفحتها ولا يعبأ أحد في استدعائها مرة أخرى، بل وأشارك في إنقاذ قلوب مفطورة وذكرى باهتة لأناس ظلموا أحياءً وأموات.

نعم اعذروني لو أطلت عليكم في البداية لكن بداية الحكاية كانت الفيصل لنهايتها. بدأت الحكاية بتأشيرة مهاجر ماهر.. بدأ كل شيء بهذه التأشيرة التي اعتبرناها -موهومين- صك الغفران أو تذكرة دخول الجنة. ولا أدري ما سر تسمية تأشيرة الهجرة بالمهاجر الماهر التي تطلق عمومًا على كل المهن المطلوبة في معظم بلاد المهجر تقريبًا كأستراليا وكندا فالمسمى واحد سواء كنت معلم شاورما أو دكتور مخ وأعصاب.

- هل أنت متأكد أنك تتحدث عن واقعة تاريخية يا سيد؟

- صبرًا يا عزيزي.

حسنًا ...سأتغاضى عن الدخول في تفاصيل التأشيرة ونظام النقاط والمتطلبات وما فعلته وما تجاوزت عن فعله وغيرها من التفاصيل. يكفي أن أخبركم أنني حصلت عليها بعد عناء كبير ووقت مهدر وتكاليف عالية لا يستطيع الكثير أن يتحملها، وتصادف هذا الحدث السعيد مع انتهاء عقد عملي بعدة دول خليجية استطعت أن أدخر خلال سنوات عملي بها بعض المال الذي قد يوفر لي ولأسرتي حياة كريمة

ولو لبعض الوقت، وقد اعتبرت هذا كعلامة فوقية أو توجيه رباني أن الوقت المناسب للهجرة قد حان خاصة وأن الرجوع إلى مصر قرار غير مطروح من الأساس بالنسبة إليّ، ويعتبر العودة إلى نقطة الصفر من الناحية المهنية والشخصية، فأنا لا أملك فيها لا عملًا ولا تجارة ولا إرثًا، وإنما بعض الأحبة والأصدقاء وذكريات تتناقص كل عام بوتيرة متصاعدة.

بعد ترتيبات طويلة ومعقدة وشرح وتفنيد واستعطاف -وكذب أحيانًا- وصلنا إلى سيدني أكبر مدينة في أستراليا وللمفاجأة لم تكن عاصمة أستراليا -اكتشفت أنني لم أكن الجاهل الوحيد لهذه المعلومة-.

وصلنا أنا وزوجتي وأطفالي الثلاثة إلى مقر إقامتنا المؤقت في سيدني وهي شقة إيجار مفروش -متوسطة التكلفة- في أحد أحياء غرب سيدني الممتلئ بالعرب كما نصحنا الأصدقاء والمعارف. ولا أخفيكم سرًا أن اختيار هذا الحي بالذات كان يخضع لعملية معقدة من الحسابات. بل إن عملية الهجرة برمتها تخضع للعديد من الحسابات المعقدة والقرارات الصعبة بداية من وجهة الهجرة والوقت المناسب للهجرة وعملية الهجرة واختيار عواملها وأدواتها ومدينة الاستقرار النهائي فالحي فنوعية المدارس حتى نوعية اللحوم التي نأكلها والبقالة التي نشتري منها متطلباتنا.. و...و... لن أؤلم

رؤوسكم بهذه التفاصيل الكثيرة التي مررنا بها جميعًا كمهاجرين مصريين حديثي العهد وانطباعاتنا النمطية وتوجهاتنا المتطابقة وعقولنا المستنسخة كلها من أصل واحد، والتي تجعلنا نظن أننا الوحيدون في العالم الذين نعرف كل شيء وأن قراراتنا هي الأصح والأفضل والأصلح.

قضينا حوالي العام ونصف العام ونحن نسعى للاستقرار في وطننا الجديد تدريجيًا. نعم وطننا فأستراليا كحكومة تعامل المهاجرين الشرعيين معاملة المواطن الأسترالي الأصيل منذ أن تطأ قدمك أرض المطار فلك كل الحقوق وعليك كل الواجبات اللهم إلا التصويت في الانتخابات تنال هذا الحق بعد الحصول على الجنسية بعد حوالي أربع سنوات ولكن هل يهم هذا؟ لن نفتقد الكثير فنحن لا نصوت في بلادنا العربية ولسنا معتادين عليها وأصواتنا هناك ليس لها قيمة من الأساس.

استقررنا أخيرًا وانقشع عنا انبهارنا بالخضرة والنظام والنظافة والطقس الغريب، واستطعنا أن نعبر العقبات الأولى الاعتيادية أمام مهاجر عربي حديث العهد بأستراليا مثل الحصول على عمل مناسب ودخل ثابت وتحجيم مصاريف الأسرة وبناء صداقات عائلية واستقرار الأطفال في النظام التعليمي الجديد وغيرها من الأمور التي تطمئنك أنك كائن

غير مستهدف في أرض غريبة وغيرها من أعراض البارانويا المصاب بها ثلث العالم العربي.

عندما تستشعر الاستقرار في وطن غريب تبدأ في المقارنة بين أسرتك مع مثيلاتها من الأسر العربية الأخرى المشابهة لظروفك والأقدم في الاستقرار لتجيب عن سؤال كيف صمدوا واستقروا في وطن غريب شكلًا وموضوعًا وأصبحوا يشعرون بالراحة والأمن والطمأنينة المستمرة بدون واسطة أو إرث مالي ضخم أو وظيفة عالية الشأن كما هو مزروع في حقول قناعاتنا. وعلى هذا وجدت إجابة مقنعة بعد نقاش مثمر مع أحد أصدقائي الجدد وزميل عمل لي حين قال:

- العقار يا صديقي هو السبيل إلى الاستقرار في هذا الوطن...السوق العقاري في أستراليا مثل الذهب لا خسارة فيه بل مكاسب دائمة واستثمار مضمون لمدخراتك.

والحقيقة كان الأمر واضحًا جليًا أن تكاليف الإيجار العقاري في مدينة سيدني من أغلى التكاليف في مدن العالم كلها، فالإيجار الشهري لشقة أو منزل يعادل ما تدفعه شهريًا لقسط القرض العقاري، مع الفارق أن ما تدفعه في الإيجار يذهب هباء بينما القسط الشهري يدخل في القيمة المالية لمدخراتك العقارية بالرغم من الفائدة المهدرة. وما يساعد على اتخاذ هذا القرار أن مئات أو ربما آلاف المصريين المهاجرين

المستقرين في أستراليا من خمسة أعوام أو أكثر قد حصلوا على قروضٍ بنكية واشتروا منازل ويدفعون الأقساط بأريحية دون أن يُسجنوا أو يتهربوا من الدفع في مزارع القصب او يهربوا إلى جبل المطاريد. يبدو الوضع آمنًا إلى حد كبير.

ورغم ذلك كان القرار صعبًا لسببين: الأول أنني سأضطر إلى دفع كل مدخراتي المالية الخليجية الأصل والعيش بلا مدخرات مخالفًا بذلك «سلو بلدنا» فيما يختبئ تحت البلاطة! والمنطلق الآخر هو البحث عن مكان المنزل حيث أن سيدني مدينة كبيرة بها عشرات الأحياء المتفاوتة الأسعار والاستثمار العقاري يتغير نمطه من مكان لآخر فضلًا عن مميزات وعيوب كل حي التي ترجح بعضها على بعض. هل مللتم الآن من الدرس العقاري بعد أن مللتم من درس الهجرة؟!

لا تخافوا انتهت الدروس العرضية وبدأ درس التاريخ.

***

عائلة (وارين). (عفت البدوي-سيدني- الحاضر)

بدأت الحكاية عندما بحثت في السوق العقاري عن منازل مناسبة لوضعي المالي بعد أن حصلت على موافقة سهلة من البنك لإعطائي قرضًا عقاريًا. لم يكن البحث مضنيًا ولا متعبًا،

فضلًا عن أنني لدي مرض أو هاجس أنا مكتشفه ومسميه، مرض «عدم التردد الاندفاعي الحاسم». فالدرس المستفاد من ترددي في أمور وأحداث وقرارات سالفة في حياتي الماضية أضاعت عليّ العديد من الفرص، هو ألا أتردد وأعقلها وأتوكل وفي بعض الأحيان أتحمس حماسًا زائدًا فأصل إلى حد الاندفاع والتسرع ولكني أراهن دائمًا على حظ المبتدئين ونية الصادقين. فما إن قررت شراء منزل حتى وضعت معادلة البحث على أحد تطبيقات الهاتف الذكي بعد أن وضعت بياناتي وحدود إمكانياتي المادية، والتطبيق يحصر عملية البحث في بضعة منازل في بعض الأحياء المتوسطة. ثم قمت بترتيب زيارات فحص للمنازل على الطبيعة بسهولة وهنا قابلت الرجل (كيث وارين).

فحصت حوالي عشرة منازل مناسبة لإمكانياتي، لكن للأسف كل واحد فيهم كان به مشكلة ما لم ترحني أو تطمئنني كي أغامر وأدفع كل مدخراتي في شراءه. إلا منزلٌ واحد وجدت فيه كل ما أرجوه وهو منزل تمتلكه عائلة (وارين)، فالمنطقة سكنية عائلية هادئة شبه مغلقة عن محيطها، لا يغلب عليها جنس أو عنصر واحد بل عناصر متعددة من أصول أوربية وأسيوية وهندية وعربية، منطقة راقية إلى حد ما متجانسة المنازل بدون أبنية خرسانية عالية تشوه المنظر العام، آمنة للأطفال والنساء، تبعد دقائق عن

محطة القطار الوسيلة الأكثر شيوعًا وسهولة في سيدني. أما المنزل فالبناء عمره أقل من عشرين عامًا، يستخدمه رجل وزوجته العجوزين الأستراليين فقط، فأبناءهما وأحفادهما قد استقروا في أماكن ومدن أخرى، لا يوجد في المنزل أطفال أو شباب يخربون أو يكسرون أو يستهلكون فيه. المنزل نظيف يكاد يكون جديد أو مجدد مع أجهزة منزلية حديثة نسبيًا -للعلم معظم الأجهزة المنزلية تنضم لمكونات المنزل عند الشراء-، والحديقة الخلفية كأنها الجنة من شدة تنوع الأشجار المثمرة وغير المثمرة والنباتات والاعتناء الجيد بها واضح جلي. عدد الغرف وأحجامها مناسب لنا لإعطاء كل واحد منا الخصوصية التي نتوق لها جميعًا. باختصار كان منزلًا مناسبًا من كل الأوجه لهذا كان عليّ أن أصطحب زوجتي لتفحصه بنفسها قبل اتخاذ القرار المصيري وقد وجدت منها راحة واطمئنان ساعداني على اتخاذ القرار.

شرعت بإبداء رغبة الشراء لوكيل العقار ويبدو أن الإجراءات في سوق العقار الأسترالي تتم فقط من خلال الوكلاء وليس من خلال الأشخاص، فالبائع والمشتري يوكلان مكاتب عقارية أو محامين يقومون بالإجراءات كلها خلال الإدارات الحكومية والبنوك ويطلبون فقط بعض الإمضاءات مع نسبة ضئيلة من قيمة البيع، لذلك لم أر أصحاب المنزل في بداية الإجراءات ولفترة من الزمن، ولكن أرى فقط أسماء

وإمضاءات (كيث وارين وزوجته روزلين). وبعد فترة من الوقت عندما أصبحت عملية التسليم والتسلم على المشارف، أصبح لا مفر من اللقاء المباشر، فيبدو أن المالكين يريدان أن يزودانا ببعض المعلومات والأشياء المتعلقة بالمنزل قبل تسليمه خلال أيام كما ينص العقد. قبلنا دعوتهما للزيارة أنا وزوجتي بكل سرور.

ذهبنا أنا وزوجتي متحمسين فقابلانا بترحاب كبير متوقع بين البائع المتلهف والمشتري المتعجل. كان (كيث وارين) عجوز ممشوق القوام طوله حوالي المترين ويبدو أنه كان رياضيًا قديمًا في لعبة الرجبي وبالرغم من تخطيه حاجز التسعين من العمر وربما حتى المائة، إلا أن صحته ومظهره الجيدين لا ينبئان أبدًا بعمره الحقيقي، بل إنه يكافئ في صحته صحة رجل في مصر في الستين من عمره، وكان مهتمًا بمظهره وملبسه الرياضي مع شعره الناعم الذي يمتزج به اللون الأصفر مع اللون الرمادي صانعًا خضرة تناسب خضرة عينيه. أما زوجته (روزلين) فكانت قصيرة ممتلئة بعض الشيء هادئة الملامح لكنها مع ذلك كانت خفيفة الحركة نشطة كما لو كانت في العشرين من عمرها بذهن حاد وذاكرة فولاذية.

قابلانا بترحاب وود وشفاه مبتسمة، ثم جلسنا وتبادلنا

الحوار عن المنزل والحي وعملية الشراء وخططهم المستقبلية. عرفنا أن سبب بيعهما للمنزل أنهما يخططان للانتقال إلى قرية لتقاعد العجزة ليقضيا فيها بقية حياتهما في بيت صغير، يتمتعون فيه بالرعاية الصحية المنتظمة والمكثفة بين أقرانهما من العجزة والمتقدمين في العمر ممن هم فوق الثمانين ربيعًا. عرفنا بعد ذلك أن هذا أمر شائع في أستراليا. لهذا كان عليهما أن يبيعا هذا المنزل الكبير لسداد بقية القرض البنكي للمنزل والاستفادة بالعائد منه في تأثيث منزلهما الصغير في قرية التقاعد. تفهمنا تخطيطهما وتمنينا لهما التوفيق والراحة وأنهما دائمًا مرحب بهما لزيارة المنزل في أي وقت.

***

مصري؟! لماذا؟ (عفت البدوي-سيدني- الحاضر)

كانت الجلسة ودية تملأها الأمنيات الطيبة والكلمات الودودة حتى سألني (كيث) عن أصلي ومكان ميلادي. وكعادة المصريين «المتخلجنين» بدأت بالقول إننا قادمون من إقامة طويلة بدبي بالإمارات العربية المتحدة -لزوم التفاخر- لكننا ولدنا وترعرعنا في مصر في عاصمتها القاهرة -لزوم الأصالة-. حينها كانت الصدمة وبداية الحكاية!

تفاجأنا بردة فعل السيد (كيث)، وتحول وجهه فجأة وتبدله

من الابتسامة الودودة والوجه مرتاح القسمات إلى وجه متجهم وحاجبين منعقدين وشفاه ممطوطة ثم استأذننا لكي يذهب إلى المرحاض. شعرَت زوجته (روزلين) بالحرج وحاولت أن تغير الموضوع فأخذت تتحدث عن مزايا المنزل والحديقة الخلفية الرائعة التي توليها اهتمامًا خاصًا منذ زمن حتى صارت على هذه الحالة الرائعة ثم أخذتنا في جولة داخل المنزل مرة أخرى.

لم تستطع (روزلين) أن تمحو التساؤل من عقولنا عن سبب هذا التحول المفاجئ للسيد (كيث) عندما سمع عن وطننا الأم مصر وقدومنا من القاهرة. ثم استأذنت (روزلين) وغابت بعض الوقت تاركة إيانا نتجول في الحديقة الخلفية الرائعة ونتبادل الأسئلة أنا وزوجتي عن سر عبوس (كيث) عندما عرف بمصريتنا وطنيتنا حماها الله. هل تعرض سابقًا للنصب او الاعتداء من أحد المصريين خلال عمره الطويل مما ترك له عقدة من المصريين عامة وثبتت لديه الصورة النمطية للمصري المغترب الفهلوي الحدق؟!

أعتقد أن (روزلين) كانت تحاول جاهدة أن تسترجع زوجها (كيث) وتعيده لمقابلتنا مرة أخرى حتى لا نشعر بالحرج وحتى تتم عملية الشراء بدون أي مشاكل وهي على مشارف الانتهاء. وفعلًا رجع (كيث) من الداخل وحاول أن يظهر على

وجهه ابتسامة شاحبة يظهر جليا لنا أنها غير حقيقية بالمرة ولهذا اضطرت (روزلين) أن تبالغ في الترحاب والاحتفاء بنا لتعوض ذلك الخلل من ناحية زوجها، ثم انتهت الزيارة ورحلنا منتشين بمنزلنا المستقبلي الجميل وحياتنا القادمة فيه، لكننا لم نستطع أن نمحو تعجبنا من تصرف الرجل.

مرت الأيام سريعًا وجاء يوم تسليم المنزل فأتيت باكرًا وحدي لأتسلم مفاتيح المنزل وأتأكد من رحيل العجوزين وعدم تركهما متاعًا لهما. لكنني فوجئت أنهما لم يكملا نقل الأثاث والمتاع بعد. كان (كيث) يتناول الإفطار وكان العمّال والحمّالين يحمّلون عربة نقل الأثاث وكان هناك بعض الفتيات يغلفن أدوات المائدة تحت إشراف (روزلين). استقبلني الرجل بود مصطنع وطلب مني أن أجلس بعض الوقت حتى ينتهوا بينما ينهي هو تناول شطيرة الإفطار.

جلست وكنت أظن أن الأمر سينتهي سريعًا لكن الوقت أخذ يمر ولا يزال المنزل يعج بأمتعتهم لكنهم -وللحق- لا يتوقفون عن العمل. الأغرب من ذلك أن (روزلين) صاحبة العقد الثامن من العمر كانت تقوم بنفسها بتنظيف المنزل غرفة غرفة وكنت أظنها استأجرت أولئك الفتيات من أجل هذا الأمر. لقد كانت نشيطة سريعة خفيفة دقيقة في عملها وهي تعلم كل صغيرة وكبيرة في منزلها -السابق-. كنت أنظر إليها بانبهار

فصحتها أفضل بكثير من صحتي أنا وزوجتي مجتمعين. أما (كيث) فأخذني في جولة داخل المنزل ليلقنني المعلومات الأخيرة ويسلمني المفاتيح وغيرها من المتعلقات. طوال الجولة وأنا أفكر أن أسأله عن سر تجهمه عندما علم بأصلي المصري لكني آثرت السلامة خوفًا أن يحدث ما يعكر صفو عملية الاستلام والتسلم.

أخذني (كيث) من غرفة إلى غرفة ليسلمني متعلقاتها من مفاتيح وسواها كما هو مكتوب في العقد، وللحقيقة كان الزوجان (وارين) أكثر من كريمين معنا فقد تركا لنا العديد من الأشياء المفيدة لنا في تأثيث منزل بهذا الحجم. كان وضعًا مربحًا للطرفين فهما مضطرين للتخلص من الكثير من الأشياء التي لم تعد مهمة أو مطلوبة بالنسبة إليهم، ونحن أيضًا مضطرين لقبول بعض هذه الأشياء ولو مؤقتًا لأن المنزل مساحته أكبر من حاجياتنا وأثاثنا فنستطيع استخدام هذه الأشياء بعض الوقت حتى نستطيع أن نقوم بتحديث الأثاث وتجديد الأجهزة المنزلية بالتدريج.

مرت الجولة من مكان إلى آخر في المنزل الفسيح حتى وصلنا إلى الكراج ذو الباب الكهربائي الدوار. حيث كان الرسم التخطيطي للمنزل يظهر مساحة كبيرة تتسع لصف سيارتين ومساحة كبيرة للتخزين وورشة وربما وضع طاولة للعبة تنس

الطاولة لابني الصغير كما تخيلت، لكني فوجئت بالكراج مليء بالحاجيات والصناديق المتربة والأرفف المليئة بمختلف الأشياء المتروكة والأجهزة القديم منها والحديث.

كنت على وشك الاعتراض عندما وجدت (كيث) يقف محرجًا وهو يخبرني أن هذا الكراج تراكمت فيه حاجيات قديمة لهم منذ أكثر من عشرين عامًا، فضلًا عن متعلقات قديمة غير مستخدمة نقلوها من منزلهم الأول، يبدو أن ما أراه هو حصيلة عشرات السنوات من الركن والتخزين والتأجيل لأشياء كانت مهمة يومًا ما في وقتها قبل أن يطالها ثرى الزمن وغبار النسيان، وتلكأ (كيث) في تصنيفها والتخلص من عديم الفائدة منها واستصلاح المفيد حتى صارت جبلًا من الأشياء المهجورة.

أخبرني (كيث) أنه على استعداد أن يقدم طلبًا لمجلس المدينة لتنظيف هذه الأشياء فورًا وبالمجان لكنه فضل أن يترك الأمر بيدي حيث أن الطلب مجاني ومتاح مرتين كل عام لكل منزل، كما أن هذه الصناديق تحتوي على بعض الأشياء القيمة التي ستفيدني بشكل أو بآخر.

صراحة شعرت بالشفقة على رجل عمره قرن من الزمن - مهما كانت صحته- أن يقوم بتصنيف وتجهيز هذه المتعلقات القديمة حتى تلتقطها شاحنة مجلس المدينة، كما شعرت -

كأي مواطن مصري أصيل- أن هذه الصناديق القديمة والأجهزة العتيقة لا بد أنها تحتوي على بعض الأشياء المفيدة لي خاصة مع خبرتي الهندسية وحبي للتجربة وهوايتي في إصلاح الأشياء القديمة، ومنزلنا بالقاهرة يشهد بذلك. فضلًا عن أن اختلاف عالمينا نحن وأسرة (وارين) في كل شيء تقريبًا جعل هناك اختلافًا جوهريًا في الاهتمامات والآراء ووجهات النظر، فما هو غير مهم أو غير مفيد بالنسبة إليهم ربما هو شيء أحلم به وأرغبه بشدة والعكس صحيح.

وافقت على الأمر وجهزت نفسي أن أقضي بعض العطلات الأسبوعية في البحث والتنقيب في جبل الكراج والمتعلقات القديمة المنسية. سألت (كيث) إن كان هناك أشياء خاصة يريد الاحتفاظ بها من هذا الجبل العتيق. نظر إلى أرجاء الكراج يمينًا ويسارًا وتفحصه بعينة الغاربة ثم تنهد قائلًا:

- رجل في مثل عمري لم يعد يعبأ بأشياء وتذكارات لأحداث عشتها منذ عشرات السنين، وأنا لم يبق في عمري بضع سنوات أخرى حتى أضيعها في الحنين إليها. الأمر متروك لك ولحكمك يا سيد (عفت).

بعد انتهاء الجولة قام (كيث) بتحميل سيارته ببعض متعلقاته الشخصية من صناديق وحقائب وأخبرني أنه سيرحل الآن على أن يعود في المساء لالتقاط (روزلين) بعد

انتهاء عملية تنظيف المنزل تمامًا. سلمت عليه ورحل وبقيت (روزلين) نشطة قوية وقد انتصف النهار دون أن تمل أو تتعب حتى مللت أنا من الانتظار وتركتها تعمل ثم رحلت. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المنزل فوجدت كل شيء تم على أكمل وجه اللهم إلا الكراج ترك كما هو بجبل المحتويات المهجورة كما اتفقنا.

***

بداية جديدة...منزل جديد. (عفت البدوي-سيدني-الحاضر)

كان شعورنا عظيمًا عندما انتقلنا إلى المنزل، أول لبنة في بناء حياة الاستقرار في أستراليا، وبدأنا في فرش الأثاث ووضع الأجهزة وتوقيع التعاقدات والاشتراكات اللازمة للكهرباء والماء والهاتف والانترنت والمدارس المحلية وخلافه حتى مر أكثر من شهر ونحن نتجه بثبات نحو الاستقرار الأوليّ في منزلنا الجديد. خلال هذا الشهر لم أستطع مجرد النظر إلى جبل المتعلقات المهجورة بالكراج لشدة انشغالي بما هو أهم، حتى كانت عطلة أسبوعية طويلة تزامنت مع العيد الوطني الأسترالي فقررت أن أستغلها في البحث والتنقيب والتصنيف في منجم الكراج.

استيقظت مبكرًا وبدأت في فرز الأشياء والصناديق وقد

أخذت تنتابني مزيج من المشاعر المتضادة ما بين الاندهاش وخيبة الأمل والحماس والملل. فقد وجدت العديد من الأجهزة قديمة الصنع التي كانت يومًا من أحدث الموديلات ككاميرا فوتوغرافية ياشكا أو أول كاميرات رقمية سوني وكاميرات أشرطة ثمانية ملليمتر باناسونيك. وجدت تلفازين يعملان بكفاءة وإن كانا قديمي الصنع من أوائل الموديلات اللوحية. وجدت العديد من الصناديق التي تحوي تذكارات لأندية وروابط وأخويات من الخمسينات والستينات. وجدت العديد من ألبومات الصور المختلفة والغريبة في بلدان وأماكن مختلفة في أستراليا والعالم. وجدت مجموعة من أسطوانات الفينيل النادرة من منتصف القرن العشرين لكبار المغنيين العالميين كفرانك سيناترا وإديث بياف وملوك الجاز وسيمفونيات بيتهوفن وتشايكوفسكي وريمسكي كورساكوف. بل وجدت جهاز جرامافون قديم يحتاج بعض الإصلاحات البسيطة حتى يعمل. وجدت مجموعة كبيرة من الاسطوانات الرقمية من التسعينات ما بين أغاني وموسيقى. كما وجدت العديد من الصناديق التي تحتوي على ملفات ورقية قديمة وخطابات لشركات كانوا يتعاملون معها في عملهم الخاص. وجدت قطع غيار سيارات لم تستخدم وأدوات كهربائية قديمة وأدوات رياضية و...و...

أمضيت يومين كاملين في تصنيف الأشياء فما هو عديم

النفع أعدّه بجانب بوابة البيت ليتم التقاطه بواسطة شاحنة مجلس المدينة التي قمت بحجز ميعاد لها لتلتقط الأشياء المهجورة، وما يمكن الاستفادة منه أضعه في مكان آخر لأعود إليه لاحقًا. وعلى الرغم من تعبي ومجهودي في تصنيف الأشياء وترتيبها وتنظيف الكراج إلا أنني كنت مستمتعًا مثل علي بابا الذي دخل مغارة مليئة بالنفائس والأحجار الكريمة. صحيح أن شيئًا مما وجدت لا يصنف كشيء قيّم من الناحية المادية، لكني رأيت في تلك الأشياء عمرًا طويلًا حافلًا بالأحداث والذكريات فكنت أحسد عائلة (وارين) على تلك الحياة الطويلة الحافلة. طول العمر ليس دائمًا نعمة للإنسان، فهناك من أمضى حياته بين أربع جنبات أو بين حدود قرية صغيرة أو شارع ضيق، لكن في نفس الوقت كنت أشعر بالحيرة كيف لـ(كيث) أن يتخلى عن كل تلك الذكريات الثمينة دون أن يحاول أن يحتفظ ببعضها. لا بد للمرء أن يكون له ذكرى ما عزيزة عليه يتمنى أن يحتفظ بتذكار منها يذكره بحدث أو بمكان او بشخص عزيز عليه أو قريب إلى قلبه، أو ربما لن أفهم دوافعه حتى أصل إلى عمره فتتغير عندي المفاهيم والمعايير والأولويات والقناعات.

***

حقيبة صفراء فاقع لونها. (عفت البدوي-سيدني-

الحاضر)

عندما طرأت هذه الخاطرة على ذهني ظهرت تلك الحقيبة في مكان منزوٍ في أبعد ركن من جبل المقتنيات المتآكل! كصندوق بندورا الذي خرجت منه كل آثام البشرية أو مصباح علاء الدين الذي خرج منه المارد. أو ملك الخواتم الذي يأسر صاحبه وينقله إلى عوالم السحر. حقيبة سفر قديمة مصنوعة من جلد البقر الأصفر وُضِعت على جانبها في أقصى ركن في الغرفة وتراكمت فوقها الأشياء والصناديق والأتربة حتى غطتها تمامًا فنُسيت مع الوقت حتى جئت أنا لأجدها وأكتشفها أو ألعن بلعنتها. أخذني الفضول أن أفتحها. شعرت بالحرج ربما تحتوي أشياء شخصية أنثوية أو ربما تكون خالية أو بها ملابس قديمة. مهما يكن لا بد أن أفتحها. مددت يدي وتحسستها فلمست طبقة سميكة من التراب عليها تؤكد أنها لم تمس منذ عشرات السنين.

أمسكت بمقبض الحقيبة ورفعتها عن الأرض لأعبر بها منطقة مزدحمة من الكراج إلى جانبٍ خالٍ منه، استطعت استشعار ثقلها وأدركت أنها تحتوي على أشياء أو ملابس تملؤها عن آخرها فلا يوجد شيء يتأرجح بداخلها مما زاد من طمعي. ازداد فضولي فوضعتها على الأرض وأحضرت قطعة قديمة من القماش المبلل وأخذت أمسحها وأزيل طبقة

التراب السميكة من عليها حتى ظهرت صفراء فاقع لونها - سرتني رؤيتها-، ثم ميزت كتابة بخط اليد على جلد الحقيبة بالإنجليزية (سيرجنت W Warren). من هو ذلك الـ(وارين) الآخر؟ يبدو أنه من عائلة (كيث) فلهما نفس اسم العائلة. هل هو أخوه أم أبوه؟ رتبة سيرجنت على الحقيبة عسكرية فربما يكون -أو كان- جنديًا في الجيش الأسترالي. هل أفتح الحقيبة أم لا؟ لقد قال (كيث) أنه يترك الأمر لحكمي. أعتقد أنني لا بد أن أفتح الحقيبة لمعرفة مدى قيمة ما بداخلها قبل أن أقرر إن كانت مهمة تستحق الاحتفاظ بها أو أرجعها إلى (كيث) أم لا تستحق العناء فأرميها مع المتعلقات الأخرى.

قررت أن أفتحها فوضعتها على جانبها وضغطت على مزلاجيها على الجانبين فانفرجا كما لو كانت الحقيبة جديدة ففتحتها وقد توقفت أنفاسي استعدادًا لما سوف أجده بها حتى انفتحت على مصراعيها.. أول القصيدة كفرا فأول ما وجدته على سطح الأشياء في الحقيبة هو منظرٌ مقزز. حشرة ميتة متيبسة في حجم عقلة الأصبع تبدو كذبابة سوداء أكبر من الحجم المعتاد للذباب تقبع على قميص أبيض قديم يغطي بقية محتويات الحقيبة تحته. مع بياض القميص الرجالي المصفر -من قدمه- وضحت الذبابة السوداء الكبيرة في منتصف المشهد بشكل مقزز. كدت أصاب بخيبة الأمل بعد

أن بدأت اعتقد أنها حقيبة ملابس قديمة مهجورة غير مستعملة كانت معدّة للتخلص منها قبل أن ينساها أحدهم في الحقيبة لا أعلم منذ كم من الوقت.

أردت أن أنفض الذبابة «الحفرية» من على القميص لأزيحه وألقي نظرة فاحصة على محتويات الحقيبة أسفله وقد انخفض سقف طموحاتي في أن أجد شيئًا ثمينًا بها، لكن الذبابة الميتة بدت ملتصقة على القميص ويبدو أن طول فترة تماسها بالقميص في مختلف درجات الحرارة مع انضغاط الحقيبة أسفل العديد من الصناديق الثقيلة قد ألصق الذبابة غريبة الشكل بالقميص الأبيض فصارت كما لو كانت مطبوعة عليه. لم أعبأ كثيرًا بالذبابة وبدأت في إمساك أطراف القميص لأرفعه بهدوء خوفًا من أن يتمزق فمن يعلم كم من السنين بقي على هذا الحال. وعندما رفعت القميص انطلقت شهقة مكتومة مني اندهاشًا لما اكتشفته، فأسفل القميص كانت تقبع مجموعة من مستلزمات عتيقة لجندي أسترالي تبدو أثرية قيمة مما يثمّنها وينقب عليها جامعو الأنتيكات والكنوز. فبين مجموعة من القمصان والسراويل كان يستقر دفتر يوميات ذو غلاف جلدي أسود فاخر، وضعته جانبًا فوجدت بوصلة نحاسية لامعة جميلة الشكل منقوش عليها شعار الدولة الأسترالية حيواني الكنغر والإيمو يحملان درع به رموز الولايات الأسترالية وفي الأعلى نجمة

الكومنولث وحروف أسفل منهم AIF، ومنظار جلدي أثري فاخر، ومجموعة من الخرائط القديمة ومجموعة من الأقلام القديمة ما بين الحبر والرصاص، ثم وجدت بطاقة تعريف بدون صورة تحتوي بيانات سيرجنت (واين وارين) ورقمه في الخدمة ١٠٧١ وتاريخ ميلاده ومكان ميلاده ورتبته سيرجنت بالكتيبة التاسعة. الذي جذب انتباهي تاريخ ميلاده كان ٢٠ أغسطس ١٨٨٨م من مواليد باثرست بولاية نيو ساوث ويلز.

يبدو أن هذا هو والد (كيث). وجدت أيضًا خطابًا رسميًا من وزارة الدفاع الأسترالية يعود إلى أغسطس ١٩١٥م وفيه إبلاغ رسمي من وزارة الدفاع الأسترالية إلى أسرة الجندي (واين وارين) بتغيبه عن معسكر (مينا) في القاهرة منذ ٢ أبريل ١٩١٥م ولا دليل على تواجده أو مكان اختفاءه أو أثر لجثته إذا كان قد لقى حتفه حتى ذلك الوقت.

وبمزيد من الفحص وجدت بعض الصور القديمة بالأبيض والأسود، من بينها صورة لرجل أسترالي بجلباب مصري يتوسط أسرة مصرية يبدو من ملابسهم أنهم قاهريون من أوائل القرن الماضي، ويضع يده بصورة أخوية على شاب مصري منهم وقف مبتسمًا بود بدوره، وصورة أخرى لمجموعة من الجنود الأستراليين يحملون حقائبهم اليدوية

وفي الخلفية كانت أهرامات الجيزة وخلف الصورة تاريخ التقاطها ٢ فبراير ١٩١٥م.

بمعلوماتي البسيطة في ذاكرتي ومطالعاتي العامة أستطيع أن أجزم مما رأيت ضمنيًا أن والد (كيث) كان في القوات الإمبراطورية الأسترالية Australian Imperial Forces AIF- في الحرب العالمية الأولى والتي كانت مجتمعة للتجهيز والتدريب في القاهرة قبل أن تشارك في إنزال (جاليبولي) في تركيا والمعركة الدامية هناك. هل مات في (جاليبولي) بين تسعة آلاف من القتلى الأستراليين والنيوزيلنديين من أربعين ألفًا أم مات قبلها أو أنه اختفى فقط؟ ثم وجدت مجموعة من الأوراق تحمل لوحات متقنة بالقلم الرصاص بخط اليد لمناظر طبيعية من مصر. هذه الأهرامات وأبو الهول، وهذا النيل بنخيله على الضفتين وقارب شراعي يتهادى تحت شمس مشرقة، وهذه فلاحة تحمل في وجهها ملامح مصرية أصيلة وهي تحمل بلاص ماء على رأسها، وهذه صورة للكنيسة المعلقة وغيرها من اللوحات المرسومة بإتقان وحرفية. لقد كان الجندي (واين) فنانًا من محبي الطبيعة المصرية إذن. ألهذا يكره (كيث) مصر والمصريين؟! هذا تفسير غير منطقي بالمرة!

صورة أخيرة بالأبيض والأسود لطفل أسترالي صغير يجلس

على كرسي عالٍ يتوسط أبويه الشابين فالزوج بملبس عسكري بالقبعة الأسترالية المشهورة يعلوها ريشة بيضاء، والأم شابة جميلة بملامحها الرقيقة الهادئة بفستان أبيض وشعر أشقر وعينان تبدوان زرقاوان رغم الصورة القديمة وحيدة اللون، قلبت الصورة لأجد مكتوبًا عليها «عائلة وارين ...أحبائي إلى الأبد ...ولدي (كيث) تذكر والدك دائمًا مخلص لأسرته ولوطنه... (واين)». قمت بعمل بحث سريع على الإنترنت على اسمه بين أسماء قتلى إنزال (جاليبولي) فلم أجد اسمه أو بياناته بين القتلى في أي معركة من معارك القوات الإمبراطورية الأسترالية المشاركة في الحرب العالمية الأولى. إذن فهو لم يمت بالحرب.

لم تنته المحتويات الأثرية داخل الحقيبة ولكني استحييت أن أفتش أعمق من ذلك في محتويات قد تكون أكثر خصوصية. حاولت الربط بين المعلومات التي استنبطتها قبل أن أقرر أن أحمل الحقيبة برمتها وأذهب بها إلى (كيث) و(روزلين) في عنوانهما الجديد في قرية التقاعد. أكيد سيفرح (كيث) بهذه الحقيبة لأنها تخص أباه وربما نسيها منذ عشرات السنوات. مهما كان عدم اكتراثه بالتذكارات والصور الأخرى إلا أن حاجيات والده المتوفي منذ الصغر لا بد أن يكون لها مكانة خاصة لديه مهما عفا عليها الزمن، وربما يريد أن يورثها لأبنائه بدورهم كما ورثها هو. من يدري!

أخذت الحقيبة في سيارتي وذهبت في صباح اليوم التالي إلى عائلة (وارين). استقبلتني (روز) بالترحاب كعادتها وشرعت في أخذي بجولة لتريني منزلهما الجديد. خرج (كيث) ليقابلني بابتسامته الشاحبة المعتادة قبل أن يسألني إن كان كل شيء على ما يرام في المنزل الجديد وهل واجهتني مشكلة ما وهل هذا هو سبب قدومي. لكنني طمأنته أن كل شيء على ما يرام بل إني وجدت في محتويات الكراج شيء شخصي خاص به سيسر كثيرًا لرؤياه، ثم أخرجت الحقيبة من السيارة ودخلت بها منزله وهو جالس على كرسيه المخملي الأخضر. كنت أتوقع منه أن يقفز من على كرسيه فرحًا مسرورًا ليتلقف الحقيبة بين أحضانه، وربما يطبع على جبيني قبلة أو على أقل تقدير سلام حار وشكر جزيل إلا أن ما حدث كان على العكس تمامًا.

فور أن رأى الحقيبة في يدي وتعرف عليها، انتفض (كيث) من على كرسيه وكأنه ابن العشرينات وانطلق الشرر من عينيه اللتين احمرتا فجأة وتحشرج صوته وهو يصرخ فيّ:

- ألم أقل لك أن تتخلص من كل شيء! ألم أقل لك أني لا أريد أن أسترجع أي من هذه القمامة! لماذا لم تتركني أتخلص أنا منها بنفسي؟!

فوجئت بهذا الهجوم الغير مبرر من رجل عجوز مثل (كيث)

يجمعنا به علاقة مصلحة تمت على أكمل وجه بسهولة ويسر وأمدت بيننا أواصر صداقة واحترام وثقة. لا بد أن بالأمر شيء أو أنني قد دسست أنفي فيما لا ينبغي لي. لكن ماذا فعلت لكل هذا؟ أنا أرجع له ملكية خاصة به فإما أن يقبلها أو يرفضها بهدوء لكن لماذا كل هذه الفظاظة التي لم أعهدها من أي شخص هنا في أستراليا منذ وطئتها قدمي فالجميع يتعامل بهدوء واحترام وود وتعاون اللهم إلا بعض المشردين المخبولين على نواصي الطرقات.

تمالكت نفسي أمام عاصفة الهجوم العنيف من (كيث) ولم تسعفني إنجليزيتي في الرد السريع عليه فقلت:

- ولكن ماذا فعلت لكل هذا يا سيد (كيث)؟ أنا أرجع إليك ملكية خاصة بها أشياء ربما عزيزة عليك من والد...

قاطعني بحدة وهو يشيح بيديه ناحية الحقيبة:

- لا أريد أي شيء من تلك الحقيبة... لا أريد أي تذكار لذلك الرجل ... أنتم أيها المصريون داعرون وقوادون تدسون أنوفكم وتدمرون كل شيء... أخرج من بيتي يا رجل... لقد انتهت علاقتنا منذ بعنا لكم المنزل فلا تحاول الاتصال بنا مرة أخرى...

كانت (روزلين) أثناء ذلك الجدال الذي كاد يصل إلى حد

العراك في المطبخ تعد بعض العصائر لتقدمها لي عندما سمعت بصياح (كيث) فجاءت ركضًا بأقصى ما تستطيع به سيدة ثمانينية، ثم وقفت بيننا حائلًا تحاول أن تفهم سر الجلبة حتى عرفت بأمر الحقيبة، عندما رآها (كيث) دلف إلى إحدى الغرف غاضبًا وأوصد الباب خلفه في عنف وهو يتمتم باللعنات ويغمغم بالسباب تاركًا (روزلين) تحاول تهدئتي وأنا أقف مبهوتًا متسائلًا عما فعلت لكل هذا فصاحبتني برفق إلى خارج المنزل وأنا لا أزال أحمل الحقيبة بيدي ثم قالت بهدوء مفسرة:

- أعتذر لك يا (عفت) لما جرى ... أرجوك تقبل اعتذاري.

كنت غاضبًا وأردت أن أتركها وأرحل على الفور حفظًا لماء وجهي فقلت:

- لا أدري سر هذا الهياج من السيد (كيث) ... لقد جئته بشيء اعتقدت أنه قيّم وعزيز بالنسبة إليه فبدلًا من أن يشكرني على اهتمامي يلعنني هكذا ويلعن كل أبناء جلدتي! خذوا أشيائكم ولا أريد منكم شيئًا ...

ثم مددت الحقيبة إليها لكنها ارتعبت وابتعدت عنها في حدة وكأنني أناولها جثة نافقة فتنحنحت حرجًا ثم قالت:

- لا أستطيع يا سيد (عفت)، أرجو أن تتخلص أنت منها

بنفسك.

تحيرت من أمرها هي أيضًا فقلت مستفسرًا:

- ما الأمر يا (روزلين)؟ ما الذي يخيفكم من محتويات هذه الحقيبة؟ أبها عفريت؟!

ردت (روزلين) مفسرة:

- لا أعلم تفاصيل علاقة (كيث) ووالده، لكنه لا يحمل له أي ذكرى على الإطلاق بل يتجنب الحديث عنه. حتى أنا لا أعرف الكثير عن عائلة (كيث) فقد عرفته وحيدًا في هذا العالم دون أقارب أو عائلة حتى قبل أن أتزوجه. الشيء الوحيد الذي أوقنه أنه يكره الحديث عنه بل يغضب عند ذكره ويهتاج كما رأيت ولابد أن للموضوع علاقة ما بمصر.

فكرت قليلًا فازدادت حيرتي وقلت:

- عن أي ذكرى تتحدثين يا سيدتي؟ يبدو أن هذا الرجل (واين) قد مات أو اختفى منذ زمن طويل و(كيث) لا بد أنه كان طفلًا صغيرًا ذلك الوقت؟

صمتت قليلًا تفكر ثم رفعت حاجبيها وقالت:

- يبدو أنك تعلم عن والد (كيث) أكثر مما أعلم يا (عفت). مهما كان الأمر... أرجوك لا تقلق سلام روح (كيث) مرة أخرى

بذكر أبيه. هو غير مهتم بهذا الماضي. وأيًا كان ذلك الماضي فلن يزيده إلا ألمًا وحزنًا فيما تبقى له في هذه الحياة.

تفهمت ما تقصده. وأدركت أنني قد أقحمت نفسي في مشكلة وذكرى عائلية سيئة لدى أسرة نسيتها بكل إصرار باحثة عن الهدوء والسلام الروحي وراحة البال. اعتذرَت لي (روزلين) مرة أخرى فاستأذنتها ووضعت الحقيبة في سيارتي ورجعت منزلي، ثم وضعت الحقيبة في ركن بعيد في الكراج كما كانت وتركتها لعلها تُنسى مرة أخرى.

مرت الأيام حاولت فيها أن أنسى ما حدث مع أسرة (وارين) لكن الحقيبة كانت تطل كل يوم أمامي كلما دخلت أو خرجت من الكراج وكأنها تلح عليّ أن أفتحها وأفض محتوياتها مرة أخرى. تزائد الغموض حول علاقة (كيث) بأبيه وبغضه لمصر والمصريين وارتباط اسم (واين وارين) ومحتويات الحقيبة بمصر القديمة قد زادني حماسة وإثارة خاصة مع ما وجدته فيها من صور ولوحات عن القاهرة وأهلها وطبيعتها. علاقة (كيث) بأبيه علاقة شخصية لا تهمني كثيرًا فلكل أسرة إرثها الخاص من الذكريات والأحداث مشينة كانت أم مفاخرة. لكن ما يهمني هو وجود ارتباط بين هذه العلاقة الغامضة وبين بغضه لمصر والمصريين. لا أُنَصّب نفسي فارسا يدافع عن شرف وطنه الأم وبني جلدته فلكل أمة ما لها وما عليها مهما

كانت عراقتها، لكني فقط متحمس لمعرفة الحقيقة فربما تلقي بظلالها على إرث أسترالي أو ثقافة أسترالية أصيلة يرثها الأبناء عن آباءهم وأنا كمواطن أسترالي جديد -على اعتبار ما سيكون- لا بد أن أفهمها لأضعها الموضع المناسب لها قولًا وفعلًا إن كنت أنتوي البقاء في هذا الوطن.

قاومت ذلك الشعور حتى توصلت إلى قرار أن أفض محتويات الحقيبة مرة أخرى، وأتخلص من عديم الفائدة منها وأحتفظ بما أجده مفيدًا أو قيمًا حتى وإن تبقى في النهاية أنتيكة واحدة أضعها على سطح المكتب. عندما استيقظت في صباح العطلة الأسبوعية أحضرت الحقيبة أمامي في غرفة مكتبي الجديدة وأخذت في فض محتوياتها. وضعت الملابس القديمة جانبًا ما بين قمصان مختلفة وسراويل طويلة وسراويل قصيرة وجوارب ومناديل من القماش. سأتخلص منها على الأغلب فلا شيء قيم فيها وهي حتى لا تحتوي على ملبس عسكري أثري أو زي موحد ذو قيمة تاريخية، أو ربما تحتوي على مرضٍ عابر للأزمنة من أمراض ذلك العصر المنتشرة فيتحرر وينتشر ويقضي على البشرية.ثم وضعت الأشياء الأخرى على مكتبي في رفق. اللوحات والدفتر الجلدي والصور والبوصلة والمنظار والأقلام.

كان أكثر ما يشدني للبحث فيه هو دفتر اليوميات، فهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحتوي على معلومات مفسرة ومفصلة وكنت على حق. فتحت أولى صفحات الدفتر وقرأت العنوان باللغة الإنجليزية (ملك لواين إدوارد وارين سيرجنت بالجيش الأسترالي والقوات الإمبراطورية الأسترالية AIF)، وبدأت في القراءة. كان خطًا يدويًا رديئًا مكتوبًا بالحبر الأزرق جعلني أندهش وأشك إن كان هذا فعلًا خط شاب متعلم. ثم بدأت أقلب الصفحات وأقرأ ما بها يومًا بيوم.

***

الفصل الثاني يوميات شيطان في القاهرة

الخميس ١٢ نوفمبر ١٩١٤م- البداية. (يوميات واين وارين)

أهلًا أيتها اليوميات العزيزة. أعرّفك بنفسي أنا (واين وارين). لقد قررت أن تكوني أنتِ عاهرتي الأثيرة بداية من اليوم وحتى أرجع إلى الوطن. أي أنني سوف أمضي يومي في العمل والتدريبات والسفر ثم آتي إليك في المساء منهكًا لكي أفتح بيديّ ضفتيك على اتساعهما ثم أدفع قلمي الكبير في أحشائك لأخبرك بما عاصرته ليرتاح بالي وتهدأ أعصابي، ولكن ليكن الاتفاق بيننا معلومًا أنكِ لن تكوني عاهرتي الوحيدة. أعدك بذلك.

اليوم أبدأ كتابة يومياتي بعد أن رحلت عن قريتي باثرست التابعة لولاية نيو ساوث ويلز وقيدت اسمي في قائمة المتطوعين للانضمام للقوات الإمبراطورية الأسترالية AIF. أنا على البارجة الآن وقد تحركت منذ أسبوعين من ألباني بغرب أستراليا ونحن في اتجاهنا إلى مصر للتجمع والتدريب والاستعداد لحرب الأتراك أولاد الزناة مع البريطانيين المتعجرفين وحلفائهم. صراحة لا أهتم للبريطانيين أو الأتراك أو حتى المصريين. كل ما أهتم به هو الستة شلنات راتبي اليومي التي لا أحصل عليها عادة في أي عمل في (باثرست)

أو حتى في أستراليا. لا أظن أنني سأدخر أي من هذه الشلنات فكل سنت أحصل عليه لا بد أن يمتعني بقيمته أينما أكون، ولينتظرني الدائنون في الجحيم ليأخذوا دَينهم من مؤخرتي.

***

الإثنين ٣٠ نوفمبر ١٩١٤م- على البارجة. (يوميات واين وارين)

الوقت ممل على البارجة التي تسير ببطء السلحفاة وسط المحيط. قضيت اليوم في الترفيه عن نفسي وعن زملائي. أخذنا نغني على آلة الأكورديون بأصواتنا المزعجة ثم أخذنا نمثل مسرحيات ونلهو ونشرب من روم البارجة المقرف إلى أن وصلنا حد الثمالة فأخذنا نبول على بعضنا البعض ثم تبادلنا الشتائم وكاد الأمر أن يتطور إلى عراك بالأيدي حتى تدخل الكابتن وأمرنا بالانفصال.

صراحة أنا لا أطيق هذه البارجة بعد الآن وأحلم بالوصول إلى أي أرض. لا يمكن أن تكون مصر أكثر سوءًا من ذلك الملل المطبق علينا من كل جانب على هذه البارجة حتى أصبحنا نتعارك مع بضعنا البعض فقط لقتل ذلك الملل. أنا متأكد أن المصريين سيكونون أداة لطيفة للعب واللهو وسنسلّي بهم أوقاتنا. أعلم أن الأفارقة يسيرون في بلادهم عرايا ويتناكحون في الطرقات كالحيوانات ونستطيع أن نشتري

عشرات الجواري منهم بنصف شلن ليفعلن كل ما نريد كهذا الزاني شهريار الذي سمعنا عنه في الحكايات وتهكمنا عليه ونحن أطفال. ها هو ذا قادم إليك يا مصر شهريارك الجديد ليضاجع نسائكِ في الطرقات!!!

عرفت أن بضع مئات من الجنود البريطانيين قادرون على حكم وإدارة مصر. صراحة أقول للبريطانيين لا حاجة لمئاتكم فأنا قادر وحدي على حكم مصر بأيدٍ من حديد.

***

الجمعة ٤ ديسمبر ١٩١٤م- إلى القاهرة. (يوميات واين وارين)

وصلنا اليوم إلى القاهرة بعد عناء كبير. وصلنا أولًا إلى الإسكندرية وكان الطقس ينتظرنا بأمطار شديدة وبرودة تجمد الخصي. اللعنة إننا في ذلك الوقت في سيدني نقيم حفلات شواء على الشاطئ. ثم ركبنا القطار المتجه إلى القاهرة، كان قطارًا من صفيح وخشب مفتوح الأجناب يلفحنا الهواء البارد برائحة روث الأبقار المقرفة من الحقول المنتشرة على الجانبين. بالرغم من أنها أول مرة أستقل فيها قطارًا لكنني أظنها تجربة سيئة فلا يوجد به مجالس مريحة ولا نادلة للخمور ولا مخادع للنوم وصوته مزعج والأسوأ من ذلك أن المصريين الحيوانات يستقلونه أيضًا معنا. ما ينقصنا الآن

هو أن ننجس بولنا ببولهم في نفس المرحاض!

صاح أحد الجنود المخابيل مناديًا إيانا لكي نلقي نظرة إلى الأفق حيث تظهر القاهرة في المساء بأنوارها الساطعة في أفق الدلتا الخضراء. كان ينظر بإعجاب وتقدير للمشهد ناعتًا إياها بأضواء الحضارة الفرعونية عندما أنارت ظلمات الحياة أما أنا فنعته بالمخبول فهذه أضواء مشاعل القبائل البدائية الهمجيون الغوغائيون الذين يتبرزون حيث يأكلون فأي حضارة يقصد. فضحك الجميع.

عندما وصلنا إلى محطة متربة قذرة اسمها (أبو العلا)، وجدنا بعضًا من رفاقنا البريطانيين في انتظارنا مع مئات من الحمّارين وراكبي الجمال والعربات التي تجرها البغال فساعدونا على حمل أمتعتنا والتوجه إلى معسكر يسمى (مينا) عند سفح الأهرامات. ركبت بغلة وحدي وأخذت أقضي وقتي في التسلية على الحمّار الذي يجر بغلته وهو لا يفرق عنها في شيء، فأخذت أشتمه وأسبه وهو يبتسم لي شاكرًا فأقول له:

- هل أمك زانية؟ هل من الممكن أن أنكحها؟

فيبتسم الرجل ببلاهة وهو يقول بالإنجليزية كلمتين اثنتين فقط:

- نعم ...جيد جدًا ...جيد جيد جدًا.

فنضحك كلنا عليه جميعًا أنا وزملائي (هوارد ديلان) و(جوشوا أليسون) و(جيسون ميلر) والرجل الحمّار يضحك هو الآخر بنفس البلاهة.

***

الأحد ٦ ديسمبر ١٩١٤م- معسكر (مينا). (يوميات واين وارين)

اللعنة على مصر ورمال مصر. اختار لنا البريطانيون مكانًا يسمى (مينا) عند سفح الأهرامات المصرية، يبدو أنهم يعاقبوننا على مساعدتنا إياهم في الحرب، فبينما معسكرات البريطانيين في منطقة تسمى حلمية الزيتون وسط المزارع والحقول وحظائر الخيل ويصل القطار حتى أبواب معسكراتهم، أرسلونا نحن إلى الصحراء حيث كثبان الرمال اللعينة من حولنا في كل مكان على مد البصر إلا من هذه الأهرامات الكريهة التي لا أعرف ما مدى أهميتها أو الإعجاز فيها وهي أحجار مرصوصة بعضها فوق بعض دون أي فائدة ترجى منها، وذلك التمثال القبيح لأبي الهول بجوارها ليس فيه أي جمال ولا فن وهو ينظر إلينا كآلهة البدائيين. صارت الرمال جزء لا يتجزأ من يومنا اللعين في هذا المكان اللعين في هذه البلد اللعينة. رمال في الماء ورمال في الهواء وفي

الملابس وفي المخادع وفي الطعام وحتى بين أفخاذنا وفي مؤخراتنا. أكره هذا المكان.

بعد أن نصبنا خيامنا ونمنا في الليلة الأولى، استيقظنا على نفخة البوق وأخذنا ننظم من أنفسنا. لم أكن أريد أن أستيقظ أبدًا وقد اضطررت البارحة إلى شرب النبيذ الذي هرّبته من البارجة حتى أنام في هذا الجو البارد المليء بالرمال. لكن أيقظني زملائي في الخيمة وتوجهنا إلى طابور الصباح حيث بدأ الكابتن (هوك) في تلقيننا الأوامر والتعليمات الخاصة بالتعامل مع السكان الأصليين، فكنت أعقب على تعليماته بنكاتي بصوت هامس يسمعه الجنود من حولي، كان يقول:

- إذا تعاملت مع المصريين في البيع والشراء أو دفع مال مقابل الخدمة أعطهم ما اتفقت عليه ولا تتجادل معهم.

فكنت أعقب:

- ادفعوا لهم في مؤخراتهم السوداء.

فيضحك الجنود من حولي محاولين أن يكتموا ضحكاتهم. وكان يقول:

- لا تظهروا أموالًا كثيرة أمام المصريين لأن فيهم لصوص.

فكنت أقول بصوتي الهامس الساخر:

- فليحاول ابن زانية منهم سرقتي وأنا أنتزع خصيتيه وأضعهما بجوار رؤوس العبيد الماورونيين المعلقة في منزلنا في (باثرست).

فيضحكون. ثم أخذ الكابتن يتحدث عن وسائل قضاء يوم الإجازة يوم الجمعة. اللعنة لماذا تكون الإجازة يوم الجمعة اللعين؟ أخذ الكابتن يتحدث عن مقاهي الأزبكية وحي (الوسعة) و(وش البركة) وبيوت البغاء، وأخذ يتحدث عن محظورات وتعليمات التعامل مع القوادين والعاهرات فلم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك وصحت بأعلى صوتي:

- لننكح أولاد الزانيات بلا رحمة.

وهنا انطلقت صيحات الاستحسان والحماس والصافرات والتصفيق من جميع من بالمعسكر لم يستطع الكابتن (هوك) أن يمنعها واكتفى بابتسامة هادئة.

***

الجمعة ١١ ديسمبر ١٩١٤م-أول إجازة أسبوعية. (يوميات واين وارين)

استعددت جيدًا لقضاء أول يوم جمعة لي في القاهرة في بيوت البغاء في الأزبكية وأين يمكن أن أذهب في هذه المدينة اللعينة الفقيرة المليئة بالذباب والبراغيث؟! وضعت

راتبي كله في جيبي ومديتي الحادة الصغيرة مختفية في حزامي لزوم الحماية. لبست ملبسي العسكري كله كما بالتعليمات حتى يخاف هؤلاء اللصوص الملاعين ويتجنبوا الاحتكاك بي. ركبنا الترام المتجه إلى وسط القاهرة واتفقنا أننا لا ندفع أي نقود للمحصل فهذا واجبهم أن يخدمونا ويقوموا على راحتنا وانتقالاتنا ولو على ظهور أمهاتهم. فلما اقترب المحصل منا صحنا كلنا فيه وكنا حوالي ثلاثين رجلًا نملأ الترام فوقه وداخله فلوح الرجل بذراعه ورحل عنا. وصلنا وسط القاهرة وأخذنا نسير في مجموعات صغيرة. كان بعضنا مشدوهًا من جمال القاهرة ومباني وسط القاهرة التي تشبه أوروبا فقلت لهم ساخرًا:

- هذا من صنع البريطانيين هل تعتقدون أن البريطانيين سيقبلون أن يعيشوا في خيم من خيش كالمصريين البهائم البدائيين؟

فأخذوا يتضاحكون. كنا في طريقنا إلى (الوسعة) وكنت في أثناء الطريق أحتك بكل رجل أو امرأة أقابلهم في الشوارع مهما كانوا. فنخطف الفاكهة من على عربات الباعة الجائلين، وهذه امرأة بمؤخرة كبيرة فأصفعها عليها، وهذا رجل حاول أن يرمقنا بعين غاضبة فركلته على مؤخرته فجرى مبتعدًا عنا خائفًا كالفأر. وكان هناك رجل معمّم يسير

مع امرأته التي تغطي رأسها بملاءة سوداء لا تظهر من وجهها إلا عينيها فتراهنّا أنا و(هوارد) على من يلمس أثداء المرأة المنتفخة تحت عباءتها كحبة المانجو ثم جريت أنا وفاجأت الرجل وامرأته حين قبضت على ثديها الأيسر الضخم بكفي حتى كدت أخلعه فصرخت المرأة بينما فوجئ الرجل المعمم وسقط على الأرض بعد أن دفعته ثم جرينا أنا و(هوارد) قبل أن يقف الرجل مرة أخرى أو يطاردنا.

وصلنا إلى (الوسعة) التي كانت جنة الرب في الأرض. النساء العاهرات يتبارين في إظهار مفاتنهن في الشارع ليختطفنك من الطريق إلى السرير رأسًا. لن يتورعن عن فعل أي شيء من أجل جذب الزبون إلى مخادعهن. أقسم أن أحداهن كشفت لي ثدييها وسط الشارع لتغريني وتشدني إلى محل عملها. استوقفني اللعين (هوارد) وكنت قد اخترت سيدة مصرية سمينة الجسد لأنكحها وهذه أول مرة أناكح مثل هذا الجسد الممتلئ المليء بالمنحنيات اللحمية والشحمية إلا في سكان أستراليا البدائيين وقال اللعين لي:

- (واين) ... هيا لنتسابق من اليوم وحتى آخر يوم لنا في القاهرة، من سينكح فينا أكبر عدد من العاهرات ينال خمسين شلنًا من الآخر موافق؟

أعجبتني الفكرة فقلت له:

- حسنًا.. أوافق فأنا الذي سيفوز بالتأكيد ...والآن أتركني يا رجل فأنا لم أنكح امرأة منذ أكثر من شهر. أستطيع اليوم أن أضاجع عشر نساء مرة واحدة.

ثم تركني فاختطفتني العاهرة اللعينة إلى داخل أحد البيوت، كان يجلس على مدخله رجل بجلباب أبيض بخطوط زرقاء يهش الذباب الذي يقف على أنفه الكبيرة كحبة البطاطا ثم انفرجت ابتسامته على آخرها حتى لامست شفتاه أذنيه وهو يرحب بي بلغة إنجليزية قميئة كوجهه قائلًا:

- أهلا أهلا مستر تومي... هذا أفضل بيت بغاء في المنطقة ...كل النساء لدينا لديهم تصاريح سليمة وصحيحات الجسد نظيفات الفروج. المرة الواحدة بشلن واحد... شلن واحد فقط من أجلك.

لم أكن أهتم هذه المرة بالنقود فحاجتي الملحة للجنس وإقبال المرأة عليّ بهذه الطريقة جعلني أدفع النقود المطلوبة دون أي إبطاء وأدخل مع المرأة غرفتها وأضاجعها بكل ما أوتيت من قوة.

كانت تجربة جيدة مع تذوقي لتلك المرأة بطعمها المصري البدائي وجسدها البدين المترجرج مع حركاتي وإحترافيتها في التعامل معي. لكني أعتقد أن التجربة الأولى دائمًا ما تكون جيدة أيًا كانت. وأثناء خروجي من غرفتها أخذت

زميلاتها يتحدثن عني بطريقة خليعة أفهمها بالرغم من عدم اتقاني للغتهم النكراء. وأثناء اتجاهي إلى باب الخروج مرت من أمامي عاهرة مصرية أخرى نحيفة الجسد حتى احتكت يدها بفخذي بحركة أرادت أن تبدو غير مقصودة ثم رمقتني بنظرة أفهمها جيدًا. بدون أي إرادة مني حوّلت وجهتي من باب الخروج إلى باب غرفة هذه العاهرة التي استقبلتني بالأحضان والغنج لكن بعد أن وقف القواد في طريقي بابتسامته الصفراء يطلب الشلن مقدمًا فأعطيته دون إبطاء.

خمس مرات قضيتها نكاحًا مع خمس عاهرات مختلفات بنفس البيت، وخمس شلنات دفعتهم إلى نفس القواد الذي كان في قمة سعادته وهو يتناول الشلنات من يدي الواحد تلو الآخر. وفي كل مرة أنوي الرحيل يحدث أمر ما يجعلني أحوّل الدفة إلى غرفة جديدة لأحصل على خدمة أخرى. ثم عرفت بعد ذلك أن هذا هو نهج العاهرات والقوادين مع الجنود المستجدين في القاهرة مثلي. رجعت المعسكر وأنا أترنح من التعب وقد صرفت أجر يوم كامل وقد صارت نتيجة مسابقة النكاح مع (هوارد) خمسة مقابل اثنين لصالحي.

***

الجمعة ١ يناير ١٩١٥م – حانة (نزهة النفوس). (يوميات واين وارين)

بعد أن قضينا ليلة أمس الخميس ٣١ ديسمبر ١٩١٤م في احتفال ماجن صاخب في معسكر (مينا) احتفالًا بليلة العام الجديد، استيقظنا متأخرين يوم الجمعة أول يوم في العام الجديد. قررنا أنا و(هوارد) ومجموعة من الزملاء أن نزور مقهى (نزهة النفوس) في (الوسعة). مقهى (نزهة النفوس) هو مقهى للرقص الخلاعي حيث يقدم راقصات من مختلف الجنسيات يرقصن عاريات أو نصف عاريات ويسمحن للزبائن بالعبث في أجسادهن كيف يشاؤون. إضافة على ذلك فإن المقهى يقدم كل أنواع الخمور.

ذهبنا وكنا في (الوسعة) عصرًا حيث نصحني أصدقائي أن أتأخر قليلًا في الذهاب لمقهى (نزهة النفوس) لأن فقرات الراقصات الخلاعيات لا تكون أولى الفقرات. وبينما كنا نضيّع الوقت، وجدت صبيًا مصريًا قذر الملابس أسود البشرة يحمل صندوقًا خشبيًا ويتمسّح فيّ مرددًا:

- تمسح حذاء يا سيدي...تعريفة واحدة فقط.

فوافقت لنستغل الوقت وتركته يمسح حذائي بينما ظللت أتحدث مع (هوارد) عن برنامج يومنا. وعندما انتهيت وجدت ابن الزانية وقد لوث حذائي البني اللون المصنوع من أفخر أنواع الجلود الأسترالية بدهان مختلف عن لونه فأمسكت بالصبي الأحمق وأخذت أصفعه على وجهه وعلى قفاه صائحًا

فيه:

- ماذا فعلت يا لعين بحذائي؟ أقسم بالرب ستمسحه بوجهك.

وقف زملائي يضحكون وأنا أصفع الصبي بينما أخذ المصريون المارون في الطريق يرمقوننا بنظرات الكراهية والاستنكار دون أن يحاولوا أن يتدخلوا بيني وبين الصبي ماسح الأحذية. أخذ الصبي يصرخ كصوت الغربان الأسترالية النكراء ويردد كلامًا لم أفهمه بينما أخذ (هوارد) والرفاق يضحكون، لكنني لم أحنث بوعدي وأمسكت برأس الصبي كالفرشاة ومسحت بوجهه سطح حذائي الذي لوثه الملعون وهو يصدر صوت صراخه المزعج. على الأقل لن يتغير لون وجه الفتى الأسود القاحل ولكن سيعود حذائي إلى مظهره السابق.

ومع غروب الشمس دخلنا حانة (نزهة النفوس) وكانت فقرة الراقصات الخلاعيات قد بدأت بالفعل. لعن الرب ذلك الصبي كاد يفقدنا متعتنا الليلة. جلسنا بسرعة إلى إحدى الطاولات وطلبنا زجاجات من الجعة وأخذنا نتأمل في الأجساد العارية والنهود المهتزة مختلفة الأشكال والأحجام والألوان، حتى اقتربت منا إحدى الراقصات اليونانيات فالتففنا حولها أنا ورفاقي وأخذ كل واحد منا يتحسسها أينما

تيسر له بكل نشاط وإثارة. بدت الراقصة اليونانية مستمتعة بأصابعنا التي تطئها في كل مكان من جسدها بلا استثناء، حتى بدأت تتململ وتتألم وتتحرج فتنفر فأحس بها أحد الفتوات من حراس الحانة واقترب منا ووضع جسده حائلًا بيننا وبينها ليسمح لها بالهروب من أيدينا.

انتهت الفقرة الأولى وأخذنا نشرب الجعة فكان طعمها أسوأ ما يكون. لم أذق في حياتي جعة بهذا السوء ولا حتى على البارجة كأنها مصنوعة من بول الجياد، فقررنا أن نغيّر المشروب وطلبنا نبيذًا فلم تكن التجربة أفضل مما كانت للجعة. بصفة عامة يمكننا أن نقول إن القاهرة كانت متنوعة في كل شيء ومليئة بكل أنواع الخمور للشرب كما هي مليئة بكل أشكال النساء للبغاء. فمصر تعبر بها سفن من كل أنحاء العالم مما يساعد على تبادل المنتجات والمزروعات والمصنوعات. فالخمور بكل أنواعها كانت متاحة من النبيذ والروم والأسكتلندي والشامبانيا والويسكي حتى الفودكا والساكي كانتا موجودتين. لكن الغش موجود في طباع المصريين في كل شيء، فمن الواضح أنهم يضيفون الماء إلى المشروبات وربما يضيفون أشياء أخرى ويستطيع أي هاوٍ أن يدرك ذلك من طعم الخمور.

استمرت فقرات الرقص الخلاعي واحدة تلو الأخرى ونحن

نشرب الشراب المغشوش ونلهو مع النساء العرايا حتى انتصف الليل فرحلنا عائدين إلى معسكر (مينا) دون أن أنسى أن أضاجع عاهرتين في طريقي بسعر مخفض في أحد بيوت البغاء، فقد انتهى يوم العاهرات وندر الزبائن في ذلك الوقت. كان لا بد أن أحافظ على رقمي متقدمًا على (هوارد).

***

الجمعة ١٥ يناير ١٩١٥م-السلطانية الزرقا. (يوميات واين وارين)

قال أحد المخبولين في كتاب ما في التاريخ إن مصر هبة النيل، وأنا أقول إن مصر هبة المخدرات. لم أر مكانًا في العالم يحتوي على هذا التنوع والوفرة من المخدرات كما رأيت في مصر. عندما كنا نتهيأ اليوم لقضاء بعض الوقت في (الوسعة) اقترب مني أحد الرجال يلبس جلبابًا عليه معطف وطربوشًا وهمس في أذني:

- أتريد مخدرات يا سيدي؟ أجود أنواع الحشيش لدينا.

نظرت إلى الرجل مستفسرًا وسألته:

- ألديك الآن حشيش في جيبك؟

قال الرجل هامسًا:

- لدي في الغرزة جواليق مليئة بكل أنواع المخدرات. تستطيع أن تأتي أنت وأصدقائك وسأعطيك سعرًا رائعًا.

تكلمت مع (هوارد) فأعجبته الفكرة فهو لم يتناول أي مخدر منذ جاء مصر، فذهب كلانا مع الرجل وخرجنا من (الوسعة) إلى منطقة الدرب الأحمر ودخلنا حارة مغلقة ثم بيتًا يبدو مهجورًا حتى فتح الرجل غرفة داخل المنزل كانت مغلقة بقفلين ثم أحضر لنا جواليق عدة وأفرغ محتوياتها على الأرض تحت أقدامنا فوجدنا عشرات من قطع الحشيش والأفيون مغلّفة بأكياس من البلاستيك في أحجام مختلفة. جحظت عينانا من المفاجأة وقال (هوارد) مبهورًا دون أن يرفع عينيه عن المخدرات:

- (واين) ... لا نستطيع أن نأخذ أيًا من هذه إلى (مينا)... سيقبض علينا إن فعلنا.

فكرت قليلًا ثم سألت الرجل:

- هل من الممكن أن نتناول هذه المخدرات لديك هنا حتى المساء وسنعطيك مالًا إضافيًا؟

فرح الرجل ووافق قائلًا:

- طبعًا طبعًا ...على الرحب والسعة ...دعوني أجهز مجلسًا وجوزتين وأشعل الفحم ونسهر حتى الصباح سويًا.

ثم أتبعها بضحكة ماجنة بصوته الأجش. فرحنا لذلك وقضينا ليلة من أمتع ليالي حياتنا ونحن ندخن الجوزة المصرية المطعمة بالحشيش اليوناني ثم جربنا الحشيش المغربي ثم جربنا بعدهما الحشيش الأفغاني. هل هناك أي مكان في العالم يمكن أن تحصل على كل هذه الأنواع من الحشيش شرقًا وغربًا؟! الآن عرفت لم احتل البريطانيون مصرا لم نكن نريد أن ننتهي من هذه الليلة الصاخبة بكل هذه الخيرات ولكن (هوارد) أصر أن نرحل قبل فوات الأوان ونحن لا نزال قادرين على الحركة وإلا عوقبنا في المعسكر في اليوم التالي.

منذ ذلك اليوم وصار ذلك الرجل واسمه (محمود خلّة) صديقنا الصدوق ليس فقط لأنه يوفر المخدرات لنا وحسب بل لأنه صار تابعًا مخلصًا لنا ينتظرنا كل يوم جمعة. نأمره بما نريد فيرشدنا إلى المكان الصحيح والوقت المضبوط والبضاعة المنتقاة والسعر العادل. كل هذا مقابل بضع تعريفات وربما عشاء يتناوله معنا ونحن في غرزته التي يسميها (السلطانية الزرقا).

***

الجمعة ٢٩ يناير ١٩١٥م - بنت الشحاذ. (يوميات واين وارين)

هذا اليوم ذهبنا إلى (الوسعة) كالعادة ولكن كان هناك شيء غريب هذه المرة. كانت كل بيوت البغاء مغلقة هذا اليوم. ولما سألنا أصحاب المحال في الشارع عن السبب، قالوا إن شرطة حماية الآداب قد حرّزوا العديد من شهادات العاهرات الصحية المزورة فقرروا أن يعيدوا ترخيص كل العاهرات فقاموا بحبسهن جميعًا في معسكر بالحلمية ثم سيخرجونهن على دفعات للكشف عليهن في الحوض المرصود وإصدار الشهادات الصحية المعتمدة السليمة، ثم يعودون قبل نهاية الأسبوع.

شعرنا بخيبة أمل شديدة وقد ضاع يومنا وتجمدت مسابقة النكاح بيني وبين (هوارد). حتى مقهى (نزهة النفوس) أغلق ذلك اليوم للتفتيش الصحي على الخمور والأطعمة المقدمة فيه. أخبرني (هوارد) أنه سيستغل الوقت في الذهاب إلى (الموسكي) ليبتاع بعض الأغراض ثم يقابلني في المساء عند (السلطانية الزرقا) فودعني ورحل. أما أنا فظللت كالمسعور أبحث في حارات وشوارع (الوسعة) عن عاهرة ربما استطاعت الهروب من شرطة حماية الآداب ولا تزال سلعتها متوفرة ولو بضعف الثمن فأفرغ فيها همومي وأزيد من حصيلتي الذهبية. صراحة لم أجد أي عاهرة عاملة ذلك اليوم.

وعندما كدت أيأس وقررت أن أرحل عائدًا إلى (مينا)، طرأت على رأسي هذه الفكرة الجهنمية، فقد وجدت رجلًا عجوزًا شحاذًا أعمى يجلس على ناصية إحدى الحارات يتسول المال من العابرين، وبجواره ابنته فتاة مراهقة ربما في الثانية عشرة من عمرها تجلس إلى جواره بجسدها النحيف وملبسها القذر، بينما يبرز من تحته أثدائها كحبتين من الليمون الناضج. أثارني مظهرها القذر المختلف بالكلية عن عاهرات (الوسعة) المتكلفات، فاقتربت منهما حتى رأتني الفتاة فأخذت تتحدث وتردد أشياء بلغتها تكاد تكون ولولة وبكاء وعويل وكأنها تستعطفني أن أعطيهم مالًا وكذلك فعل الرجل العجوز عندما أحس بوجودي، فوضعت تعريفة فضية في كف الرجل الذي شعر بها فأخذ يردد كلامًا آخر غير مفهوم كأدعية وترانيم يبدو أنه يشكرني بها. لكنني أشرت إلى الفتاة أن تتبعني وأنا ألوّح بورقة نقدية كبيرة لها. تبعتني الفتاة وتركت أباها الشحاذ على قارعة الطريق وعيناها معلقتان على الورقة النقدية حتى دخلث بها إلى أحد مداخل المنازل البعيدة عن عيون المارة. وعندما دخلت الفتاة بكل براءة تنشد الورقة النقدية فاجأتها وأمسكتها وقيدت يديها وكممت فمها ثم نزعت عنها ملابسها وناكحتها بقوة حتى قضيت وطري فيها رغمًا عن مقاومتها الضعيفة. كانت الفتاة تبكي وهي كالعصفورة الصغيرة بين يدي وتحت جسدي وكانت

ساذجة غير محترفة للوطء كالعاهرات فكانت تتألم بشدة لم أهتم لها لولا أني كنت أكتم صراخها. اللعنة ...لابد أن يحسب (هوارد) هذه العذراء بعشر عاهرات!!! رميت للفتاة شلن ورحلت عن المكان مسرعًا تاركًا إياها تحت سلم المنزل في مدخله وهي لا تزال تبكي من الألم.

في المساء قابلت (هوارد) عند غرزة (محمود خلة) (السلطانية الزرقا)، وجربنا فيها أنواع جديدة من المخدرات. أخبرت (هوارد) بما فعلته في الظهر فانبهر بي وقلدني بلقب إله النكاح في مصر. أتى (هوارد) هذه المرة مع ثلاثة من زملائنا في المعسكر مما زاد من صخب هذه الليلة في الغرزة وحين انتهينا كانت عقولنا في عالم آخر ونحن نسير في شوارع القاهرة في طريق عودتنا للمعسكر. وبدون أي سبب كنا نضرب من تطاله أيدينا في هذا الوقت المتأخر من الليل حتى اعترضنا رجل مصري قوي البنية متأففًا من ركلنا لمؤخرته، فأقمنا حلقة عراك في عرض الطريق بينه وبين (جيمس) زميلنا العملاق الذي لقنه درسًا لن ينساه أمام الجميع وخلعنا عنه ملابسه وأخذناها غنيمة ليسير الرجل عاريًا في الطريق.

***

الجمعة ١٢ فبراير ١٩١٥م – القضاء على الملل. (يوميات

واين وارين)

بدأ الملل يسري بداخلنا من كل شيء في القاهرة بداية من المعسكر في (مينا) وزياراتنا المنتظمة كل يوم جمعة إلى (الوسعة) وقد حفظنا بيوت البغاء وأصبحنا معروفين للقوادين وحفظنا العاهرات بأسمائهن وأوصافهن ما ظهر منها وما بطن. أردنا أن نزيح عنا الملل فقررنا أن نجرب شيئًا جديدًا. دخلنا أكثر من سبعة أفراد أحد بيوت البغاء واتفقنا ألا ندفع قبل أن نحصل على الخدمة. في البداية رفض القواد رفضًا شديدًا حيث أن ذلك يعارض سياسة المكان لكنه مع عددنا الكبير وافق وقد غرّه ما سيحصل عليه من شلنات كثيرة في وقت قصير.

دخل سبعتنا غرفًا مختلفة وكنا نضاجع العاهرات في نفس الوقت حتى كاد سقف البيت أن يتهدم من تحتنا. وعندما انتهينا خرجنا جميعًا في وقت واحد، وعندما طلب القواد منا المال امتنعنا عن الدفع بحجة سوء الخدمة. حاول الرجل أن يخيفنا بصياحه لكننا كنا أكثر منه عددًا وقوة فلم يستطع أن ينال منا شيئًا وخرجنا من عنده ونحن نتهكم عليه ونسخر منه.

في إحدى حارات شارع كلوت بيك أتى أحد المخنثين الذكور يغريني أن أناكحه فأخذته إلى مكان مخفي وطلبت

منه أن يخلع ملابسه ففرح المخنث وخلع ملابسه كلها فأمسكت قدميه وجذبته بشدة ناحية عرض الطريق في كلوت بيك لنضحك عليه. كان المخنث يرجوني قائلًا لا يا سيدي ويرتمي على الأرض حتى يمنعني من جذبه لكني أخذت أجذبه وهو على الأرض حتى صار في وسط الطريق عاري الجسد وكل الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون يضحكون عليه وعلى أعضاءه الضامرة فأخذ المخنث يبكي وهو يحاول أن يداري جسده.

بدأت في ذلك اليوم بالشعور بحكة شديدة في أيري فأخذت أغسله بالماء والصابون عندما عدت إلى (مينا) بلا فائدة.

***

الجمعة ١٩ فبراير ١٩١٥م -القمار. (يوميات واين وارين)

عرفنا بوجود طاولات للقمار مختفية داخل حانات الأزبكية. القمار ممنوع في القاهرة ليس مصرحًا كالبغاء. لكنه مربح ومثير بكل تأكيد. في أول مرة ذهبنا أنا و(هوارد) وبعض من أصدقائنا نتأمل في طرق اللعب ومهارات اللاعبين. لم يكن الأمر صعبًا على الإطلاق. قررنا أن نجربه فكنت أكسب مرة وأخسر مرة. حتى اعتدنا زيارة طاولات القمار بانتظام.

اليوم جاءني (جيسون) صديقي وعرفني بحيلة نستطيع بها أن نخدع الحمقى على طاولة القمار. لقد أحضر لي مجموعة من أوراق اللعب مشابهة تمامًا لما يستخدمونه على الطاولة. ثم اتفقنا أن نضع في أكمامنا الأوراق المهمة كالواحد والملك والملكة والشاب. ثم نلعب سويًا في نفس المجموعة ويقوم أحدنا بمساعدة الآخر ليكسب عن طريق إخراج الورقة المهمة من كُم معطفه بخفة يد ويستخدمها في الوقت المناسب دون أن يراه أحد، وفي النهاية نتقاسم المكسب. حيلة ذكية.

فعلنا ذلك مرتين دون أن ينكشف أمرنا وكسبنا ضعف أموالنا أنا و(جيسون). أما اليوم فيبدو أنهم قد فطنوا لحيلتنا فلم نستطع أن نستخدمها وخسرنا كل أموالنا. وبسبب إصراري، لعبنا بالدّين وخسرنا حتى تضاعف ديننا لدى صالة القمار. وعندما انتهينا هذه الليلة طلب الرابح أمواله فرفضنا أن نعطيه ونحن بالأساس لا نملك أي نقود. صاح الرجل وهاج وماج وحاول أن يضرب (جيسون) فلكمته في فكه، لكن كان معه حارسٌ ضخم الجثة تابع له في الصالة فتهجم علينا وأخذ يكيل لي ولـ(جيسون) اللكمات فما كان مني إلا أن أخرجت مِديتي الحادة وطعنت الرجل بها في بطنه. تأوه الرجل وأمسك جرحه وسقط على الأرض مضرجًا في دمائه يتلوى من الآلام بينما خرجنا نحن مسرعين من المكان نركض

حتى لا يقتفي أحد أثرنا وعدنا إلى (مينا) دون أن يتبعنا أحد.

برغم انتهاء هذه الليلة الخطرة إلا أن آلام أيري والحكة الشديدة التي تنتابني فيه قد زادت وانتقلت إلى جزعي وبطني وأفخاذي. لا بد أن أذهب إلى الطبيب في الصباح.

***

الجمعة ٥ مارس ١٩١٥م -العيادة وثلاثة وجوه (يوميات واين وارين)

اللعنة على السيلان واللعنة على المصريين. هذا هو أسبوعي الثالث الذي أقضيه في العيادة الطبية في معسكر (مينا) معزولًا عن الجميع بعيدًا عن الأصدقاء محرومًا من الخروج من المعسكر أيام الإجازات وفوق كل هذا توقف راتبي منذ اليوم الأول الذي عُزلت فيه في العيادة. حقا؟! مرة واحدة أحرم من أغلى متع الحياة مضاجعة النساء وصرف الأموال؟!

عندما ازدادت آلام الحكة في كل جسدي السفلي وحدث احمرار شديد في جلدي الرطب على أيري وشرجي وبطني ثم بدأت ألاحظ إفرازات صديدية مؤلمة في بولي، ذهبت إلى العيادة الطبية في معسكر (مينا) وقام الطبيب (آلان) بالكشف عليّ، ثم أخبرني أنني قد أصبت بالسيلان وهو مرض

جنسي انتقل لي من العاهرات المصريات الحاملات للمرض. ثم بعدها بأيام اكتشفت أن هناك بثورًا متقيحة حمراء اللون قد نبتت على أيري وفي بطني وأفخاذي وهي التي تسبب الحكة فيبدو أنني أصبت بالزهري أيضًا وهو أمر نادر الحدوث أن أصاب بالمرضين في وقت واحد كما قال الطبيب (آلان).

تم عزلي في العيادة ومنذ ذلك الوقت وأنا لا أرى إلا وجوهًا ثلاثة، الوجه الغاضب للطبيب (آلان) الذي يزورني كل صباح ليعاينني وهو يرمقني باشمئزاز متمتمًا بين الحين والآخر أن انضمامه إلى القوات الأسترالية كان لمعالجة جروح المعركة للجنود الأبطال لا لمعالجة أحاليل الرجال الشرهين للجنس التجاري. أما الوجه القبيح فهو التمرجي المصري (جمال الطوبجي) وهو الذي يقوم كل يوم بحقني بمحلول الدواء في أيري بطريقة مؤلمة، إذ يدخل الأنبوب المعدني المقوس الطويل في فتحة أيري ويدفعه حتى يصل الأنبوب إلى داخل مثانتي في داخل جسدي محتكًا بجدار أيري الداخلي فأصرخ متألمًا وأنا أسب وألعن في ذلك المصري اللعين (جمال) ثم يبدأ في إفراغ المحلول في مثانتي فأشعر بالكوي في كل جزء من جسدي السفلي. كان هذا يحدث كل يوم مرتين ولابد ألا أفرغ مثانتي لمدة ساعتين محتفظًا بالمحلول الكاوي داخل مثانتي. اللعنة سيستمر هذا الأمر حتى أكمل خمسة أو ستة أسابيع من العلاج المستمر حتى أبرأ وربما أكثر.

أما الوجه الثالث فكان الوجه الجميل وهو وجه الممرضة الأسترالية (جين) الجميلة. كانت (جين) ممرضة متطوعة في صفوف الطاقم الطبي في القوات الأسترالية ضمن بضع عشرات من الممرضات الأستراليات اللاتي انضممن إلى القوات فور تفشي الأمراض الجنسية فيها. كانت جميلة كالملاك رقيقة كالورود نحيفة كالغزال وطويلة كالنخيل المصري لكنها كانت جادة تمامًا في عملها لا تنشغل بأي شيء عنه. لم أكن أستطيع أن أمنع عيني من النظر إليها وكنت أتمنى أن أدعوها على العشاء أو أقبّل وجنتيها الرقيقتين. لكنها في كل مرة تأتي إلي وتتفحصني وتتأمل في حالة أعضائي الداخلية وأيري أشعر بالخجل أمامها، فلم تكن تلك الطريقة التي كنت أريدها أن تنظر إلى رجولتي بها، ثم ترمقني بنظرة اشمئزاز وترحل. اللعنة على المصريين حرموني من كل شيء وتركت محبوسًا في العيادة الطبية بلا مال أو ونيس وأيري يتقطع ألمًا من أنبوب التمرجي وقلبي يتقطع ألمًا من تجاهل الممرضة (جين). متى تنتهي هذه الأيام؟!

***

الخميس ١ أبريل ١٩١٥م -الانتقام العادل. (يوميات واين وارين)

أخيرًا خرجت من العيادة منذ يومين منهكًا ومفلسًا أيضًا. عرفت بعدها أن المعسكر في حالة تأهب استعدادًا للرحيل عن (مينا) في اتجاه الإسكندرية للذهاب إلى المعركة. بلغني زملائي أن فرقتنا من أوائل الفرق التي سترحل عن المعسكر بداية من يوم السبت المقبل الثالث من إبريل بعد يوم الجمعة العظيمة. كان خبرًا صادمًا فأنا لم أعوض خسائري في القاهرة بعد. اللعنة لقد أضعت من عمري ستة أسابيع في العيادة الطبية لأخرج فلا أجد من الوقت ما يعوض خسارتي من متع المال والنساء والأسوأ من ذلك أن نرحل بهذه السرعة من هذا المنتجع السياحي إلى ساحة القتال حيث نكون إما قاتلين أو مقتولين أو مشوهين جرحى. اللعنة عليكم أيها المصريون أولاد الزناة أضعتم عليّ متعي ومالي.

قابلني أصدقائي اليوم ورحبوا بعودتي إلى الحياة من جديد. العنيد (هوارد) أخبرني أنه تخطى حاجز السبعين نكاحًا عندما توقفت أنا عن المضاجعة محبوسًا في العيادة وكان رقمي الأخير خمسة وخمسين مضاجعة. كان خبرًا صادمًا لي فأنا على أبواب أن أخسر لقبي كإله النكاح وسأضطر أن أدفع لـ(هوارد) خمسين شلنًا وأنا مفلس تمامًا. اللعنة على المصريين!

بصراحة أنا لا أريد أن أحارب. صحيح أن هدف القوات

الأسترالية كان لمساندة البريطانيين في حربهم الدائرة، لكني كنت أعتقد أو أتمنى أن يقتصر دورنا على حراسة أو دعم لوجيستي أو أي شيء من هذا القبيل. أما أن نسافر بحرًا إلى بلاد الترك في عقر دارهم ونغير عليهم بأسلحتنا فيصدوننا بالبنادق والمدافع فلم أكن أتخيل أن يحدث هذا. أفكر جديًا بعدم الذهاب إلى المعركة. بل لا بد ألا أذهب إلى المعركة. أعلم أنني لا أمتلك خيارًا حيث سيتم اعتباري متهربًا من الجندية وربما أحاكم وأسجن، ولكنني لن أحارب. رجل واحد ينقص من أربعين ألف أسترالي ونيوزيلندي لن يكون له تأثير أبدًا على نتيجة المعركة، لكني لا أملك أكثر من حياة واحدة! لغة الأرقام لا تكذب!

مهما حدث، هناك أمر أخير لا بد لي أن أفعله قبل أن أغادر هذه الأرض اللعينة. سأزور كل بيت بغاء ارتدته يومًا وسآخذ مالي الذي سرقوه مني. نعم كل المال الذي دفعته لهم هو سرقة وجريمة اقترفوها لأنهم لم يقدموا خدمة نظيفة وأصابوني بالأمراض الجنسية اللعينة بتراخيص العاهرات المزورة نتيجة لجشع القوادين وتكالبهم على ابتزاز أموالنا وتسببوا في النهاية بتوقف راتبي. تحدثت مع زملائي وأقنعتهم بما أنوي فعله في الغد آخر أيامنا في القاهرة وآخر إجازة أسبوعية لنا في مصر. سنهاجم (الوسعة) و(وش البركة) بالمئات وسنغير على بيوت البغاء بيتًا بيتًا ونسترد

أموالنا منهم وإن امتنعوا ضربناهم وأشعلنا في دورهم النيران. من يقدر علينا ونحن بالآلاف في القاهرة كما أننا سنرحل في اليوم التالي فلن يلحقونا ولن تصيبنا شكوتهم إن اشتكوا ولن يستطيعوا أن ينالوا منا أي شيء. حتى المقاهي سنغير عليها ونكسرها تكسيرًا جزاءً لهم لما يقدمونه من خدمات سيئة وخمور مغشوشة. وسأستغل هذه المعركة حتى أختفي ويجهل الجميع مصيري وأتجنب الذهاب إلى المعركة وليكن ما يكون.

حسنًا أيها المصريون يا أولاد الزناة. إن لم أكن أنا إله النكاح في القاهرة فسأكون إله الانتقام وسترون من هو أنا غدًا. إن لكل مدينة في العالم قرحة تتجمع فيها القاذورات والأمراض، أما القاهرة فهي نفسها قرحة العالم أجمع تجمعت فيها كل الأمراض والقاذورات وإن المصريين في حد ذاتهم هم مجموعة من أقذار العالم وأوساخها ويجب علينا تطهير الأرض منهم ومن آفاتهم ولو بالحرق.

(نهاية يوميات واين وارين)

الفصل الثالث معركة الوزير

ما بعد اليوميات. (عفت البدوي- سيدني- الحاضر)

كدت أشعر بالغثيان مما أقرأ وتعجبت أنني صمدت حتى نهاية هذه اليوميات المشينة وما تحمله من مشاعر بغض وعنصرية وعنجهية. ما الذي يجعل شخص بكل هذه الحماقة يدوّن حماقاته ومغامراته وعقده النفسية في يوميات. لقد كانت يوميات شيطان وجد في القاهرة أرض خصبة ليلهو ويرتع بلا حساب. هل كان هذا هو نهجه هو وحده، أم كان ذلك نهج كل الأستراليين في القوات الإمبراطورية الأسترالية تجاه القاهرة وطرق تعاملهم مع المصريين في ذلك الزمن؟ أعرف أن مصر كانت ترزح ذلك الزمن تحت نير الاحتلال البريطاني ومن قبله التركي مما جعل وضع الشارع المصري في أسوأ أحواله وخصوصًا القاهرة المدينة العالمية التي دفعت ضريبة عالميتها وتقابل الحضارات فيها، فأصبحت عبارة عن ماخور كبير ترتع فيه الخطيئة والمعصية واللامبالاة من الحاكم والمحتلين. لكن ذلك الشخص (واين) قد رسم في يومياته التافهة لوحة عن القاهرة عام ١٩١٥م مليئة باللون الأحمر القاني الذي يقزز العيون ويصيب العقول بالروث والنجاسة.

حقيقة شعرت بالأسف لـ(كيث) أن كان له والد مثل ذلك

الجندي الأحمق (واين) وخير له أنه لم تتح له فرصة تربية (كيث) على ما تربى عليه من نجاسة وعهر وعنصرية. بل شعرت باحترامي وتقديري لـ(كيث) أنه يتنكر لمحتويات ويوميات أبيه الأحمق مما يشير إلى أنه يعارض ما فيها ومن تذكره بها. وشعرت أكثر بالندم أنني أضعت ساعتين من عمري في قراءة هذا الهراء. أغلقت اليوميات ورميتها على المكتب وكنت أهم برميها في القمامة لكنني تركتها إلى حين، حتى أتخلص منها بالطريقة التي تليق بها ربما حرقًا أو رميًا في المجارير. ولكي أبعدها عن ناظري وضعتها مع بقية الحاجيات في الحقيبة مرة أخرى وتركتها في كراج البيت في ركن بعيد.

لم أستطع أن أتجاهل ما قرأته في هذه اليوميات ولم أتمالك نفسي ولجئت إلى جهاز الحاسوب أقلب في صفحات الأرشيف الحربي الأسترالي بلا هدف لا أعلم ما الذي أحاول أن أجده فيه. لكن الأرشيف الحربي الأسترالي الإلكتروني على الشبكة العالمية مغرٍ جدًا، فقد كان منظمًا جدًا ومليئًا بالمعلومات القيمة عن القوات الأسترالية في مختلف الحروب. فوجدت صورًا ومذكرات مصورة ضوئيًا وأسماء ومعلومات عن القوات الإمبراطورية الأسترالية في الحرب العالمية الأولى في فلسطين ومصر وتركيا وفرنسا وغيرها. كانت معلومات قيمة مفيدة للباحثين في التاريخ عن تلك الحقبة. أما أنا فعمّا أبحث؟ لا أدري. لقد استفذّتني اليوميات

وما ذكرته عن المصريين والقاهرة في تلك الحقبة. صحيح أنها ذُكِرت على لسان شخص تافه أحمق لا ثقل لكلامه ولا مصداقية له، لكني أردت أن أعرف المزيد من انطباعات جنود أستراليين آخرين.

وجدت قسمًا لمذكرات الجنود المسترجعة والمصورة ضوئيًا، وقمت بتحديد بحثي عن الحرب العالمية الأولى ثم حملة (جاليبولي) ثم اخترت مصر. جميل أن يكون الموقع الإلكتروني على الإنترنت منظم يسهل على الباحثين بحثهم عن المعلومات، كما يحفظ تاريخ بلادهم أيًا كان نصرًا أو هزيمة. والأجمل حرص الدولة على تجميع وحفظ وعرض هذه المعلومات التاريخية للباحثين أو لعامة الناس دون تمييز. أخذت أبحث في المخطوطات والمذكرات وأستعرض بعضها الذي يغطي تلك الحقبة الزمنية والمكانية ووجدت من الجنود من يتحدث عن القاهرة والمصريين. وجدت منهم من يتحدث عن جمال مصر وروعة جوها وأصالة تاريخها الفرعوني والإسلامي وطيبة أهلها ووداعتهم وروحهم المرحة، وعلى النقيض وجدت من الجنود من هم على شاكلة (واين) يتحدثون عن القاهرة ماخور العالم عاصمة العهر والخمور والمخدرات، والمصريون مجموعة من القوادين والعاهرات والمنتفعين الذين لا يهمهم إلا الانتفاع من الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين بأي وسيلة حتى لو كان بالغش

والخداع والدعارة والمخدرات.

صراحة ازدادت حيرتي وازداد اهتمامي بهذه الحقبة التاريخية في مصر، وأصبحت كلمات (واين) في يومياته تمثل بالنسبة إليّ تحديًا شخصيًا وأخذت تسطع في عقلي كلوحات الإعلانات الحمراء على مداخل بيوت الدعارة (القاهرة قرحة العالم ... مدينة الخطيئة التي لا بد أن يطهر العالم منها ومن آفاتها بالحرق). أردت أن أبحث عن قبر (واين) هذا وأخرج جثته وأصفعه على وجنتيه العظميتين وأصرخ فيه: أنت لا تتحدث عن قاهرتي ولا عن أهلي المصريين الطيبين سكان القاهرة الذين عشت بينهم وفي شوارعهم وصليت في مساجدهم. ثم لا أفتأ أن أتمالك نفسي وأحاول أن أبرر كلمات هذا الرجل وسببها وأعزي ذلك ربما لجهلي عن تلك الحقبة، فمعلوماتي عن القاهرة عام ١٩١٥م لا تتعدى المعلومات المستقاة من الأفلام القليلة التي تتحدث عن الاحتلال البريطاني لمصر كقصص نجيب محفوظ مثلًا. ربما لأنني من محبي التاريخ والروايات التاريخية شدتني تلك اليوميات شدًا للبحث في هذه الفترة التاريخية ليس فقط دفاعًا عن وطني لكن أيضًا لمعرفة ما كانت عليه القاهرة ذلك الزمن والسبب في ذلك.

وأثناء بحثي في الشبكة العالمية (الإنترنت) عن القوات

الإمبراطورية الأسترالية في مصر أثناء الحرب العالمية الأولى في فترة التجمع والاستعداد لمعركة (جاليبولي) بتركيا، وجدت ما يسمى بمعركة الوزير التي وقعت يوم الجمعة ٢ إبريل ١٩١٥م في الأزبكية بالقاهرة. وقفت مشدوهًا أمام العنوان. معركة الوزير بين الأستراليين والمصريين في القاهرة؟! كيف حدثت هذه المعركة؟ ولماذا لم نعرف عنها ولم تذكر في تاريخنا أو حتى ينوه عنها أثناء فترة الاحتلال البريطاني؟ هذا شيء غريب. ثم بدأت أقرأ عن هذه المعركة فوجدت لها بعض المصادر القليلة معظمها في أستراليا من الأرشيف الحربي الأسترالي.

«وفي شوارع المدينة التي وصفها هؤلاء الجنود بشوارع الرذيلة خاضوا أولى معاركهم ضد المواطنين البسطاء العزل والنساء التي دفعتهم الحاجة لممارسة الرذيلة مع الغرباء. كان ذلك في شوارع الأزبكية حيث انطلقت الشرارة الأولى من درب (الوسعة) بحارة الوزير والذي كان مشهورًا لدى الجنود باسم الوزة يوم الثاني من أبريل العام ١٩١٥م الموافق يوم الجمعة العظيمة لدى المسيحيين، حيث اندفع أكثر من ٢٥٠٠ جندي أسترالي ونيوزيلندي في الدرب يعاونهم حوالي ٢٠٠٠ مجند آخرين تابعين لجنود الإمبراطورية يلقون بالنساء والرجال من نوافذ المنازل ويضرمون النار فيها وفي الشوارع والحانات والحوانيت،

ولم تستطع سلطات البوليس المصري المسلحة بأسلحتها الخفيفة ولا المطافئ السيطرة على الجنود الذين أحضروا أسلحتهم من المعسكرات واستعانوا بأعمدة البيوت والكتل الخشبية الضخمة واستعملوا العربات كمتاريس في مواجهة الشرطة.

ولم يتم السيطرة على الوضع إلا بعد انطلاق تشكيلات من الجيش البريطاني في الشوارع وإطلاق النار الحي على النيوزيلنديين والأستراليين، بعدها استطاعت الشرطة السيطرة على الشوارع بعد عدة محاولات فاشلة، وقد قدرت الإحصاءات الرسمية عدد القتلى بثلاثة فقط وعشرات الجرحى أما الخسائر المادية فكانت تفوق الحصر، وقد أجرت سلطات الاحتلال البريطاني تحقيقًا صوريًا ألقت فيه باللوم على الأهالي وبالأخص النسوة في بيوت الدعارة بدعوى اعتيادهن على استدراج الجنود وطعنهم بالسكاكين وعلى انتشار الأمراض السارية التي التقطها بعض الجنود، وكان الجيش البريطاني يعاقب من يصاب بمثل هذه الأمراض بوقف مرتبه لحين شفاءه، أما على المستوى الشعبي ونظرًا للفضيحة الكبرى التي سببتها الواقعة لجيش الإمبراطورية في العالم وأيضًا لاستياء الأهالي الكبير من الممارسات الإنجليزية فقد أشيع أن أحد الجنود وجد أخته في ماخور واستعان بزملائه لإخراجها

فحصلت معركة بينهم وبين بلطجية الماخور امتدت لتشمل المنطقة كلها وأجزاء أخرى من القاهرة، ثم تداركت قوات الاحتلال الموقف بترحيل الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين إلى خارج مصر خلال بضعة أيام من الواقعة ليصلوا الجبهة في (جاليبولي) بتركيا يوم ٢٥أبريل ١٩١٥م ليشهدوا هناك الحرب الحقيقية بعد أن خاضوا معركتهم الأولى أمام المدنيين العزل في القاهرة».

ومن حوليات أحمد شفيق باشا المؤرخ المصري المعاصر للأحداث تحت عنوان فظائع اعتداء الإنجليز على الأهالي:

إلا أن هؤلاء العساكر مختلفي الألوان والأجناس متبايني المشارب والمذاهب كان أكثرهم من عامة شعوبهم. ولقد بدت من بعضهم وبخاصة الأستراليين أمورٌ لو وقعت في غير أيام الحرب لأشعلت نيران فتنة كبرى. كما أن أمورًا شنيعة ارتكبها هذا النفر من الجند في بعض أحياء القاهرة وفي رابعة النهار ترتعد لها الفرائص هلعًا. نذكر منها الحادثة التالية المشهورة:

«وهو أنه لسبب ما اتفق جماعة منهم على الدخول إلى بيت من بيوت الدعارة بشارع وجه البركة في رابعة النهار، ولم يلبث المارون والجالسون إلى المشارب في ذلك الشارع الكثير الحركة أن رأوا النساء يلقَين من نوافذ أعلى طابق

من ذلك البيت إلى الشارع .وبعد يسير من الوقت رأوا هؤلاء الجنود يصبون البترول على جدران الدار ثم يشعلون فيه النيران .كل هذا والناس ينظرون هم ورجال الشرطة إلى هذا المنظر الذي يمثل القوة الوحشية في أجلى معانيها ولا يجرؤون على الدنو من هؤلاء التعيسات لإسعافهن أو إطفاء ما أوقد هؤلاء الجند من لهب .وأخيرًا حضر رجال المطافئ الحكمدار ورجال الإسعاف فقام كل منهم بما فرض عليه .وانسحب مرتكبو هذه الجرائم المنكرة آمنين مطمئنين .ولقد كان هؤلاء العساكر وبخاصة عساكر المستعمرات يعاملون المصريين بشيء من الغلظة والاحتقار، كما أنهم كانوا يكثرون من التعدي على بضائع الباعة المتجولين ويأخذونها نهبًا بلا ثمن.»

الجندي الأسترالي إيريك وارد شاهد عيان ومشارك في الأحداث فكتب:

«في الثاني من أبريل، قبل يوم واحد من مغادرتي ميناء، ذهبت إلى القاهرة في إجازة. لقد كان أعظم قدر من المرح خضناه منذ أن كنا في مصر قد حدث في حارة الوزير سيئة السمعة. في حوالي الساعة الخامسة عصرًا، بدأت المشاكل من خلال مواطن وجندي وتطورت إلى أعمال شغب في الليل. تم تجريد المنزل الذي بدأ فيه الشغب من

جميع أثاثه واندلعت النار في منتصف الشارع واستمرت حتى الساعة التاسعة مساءً. أسرّة وكراسٍ وستائر مكدسة في النار. بدأت المشكلة عندما أطلق ذوو القبعات الحمراء النار على الحشد. ثم أصبحوا غاضبين ودمروا كل متجر ومنزل في المنطقة المجاورة وحملوا التبغ والسجائر والمشروبات الوفيرة. أضرمت النيران في منزل إحدى النساء.... لم يبق لوح زجاجي سليمًا.»

وجد الجندي فيكتور ليدلو، من سيارة الإسعاف الميدانية الثانية، أن الحدث كان أكثر إزعاجًا إلى حد ما، وفي روايته وصفه بأنه كان «حدثًا مشينًا»:

«لقد قضينا اليوم إجازتنا الأسبوعية، لكنه سيكون يوم أتذكره لبقية حياتي حيث وقعت أحداث مشينة في القاهرة في المساء. بالطبع كلنا يعلم أنه في كل مدينة كبيرة توجد أماكن سيئة ترتادها النساء في الغالب، حسنًا الحي في القاهرة يُعرف باسم «الواسعة». كان هناك جنديان في أحد هذه المنازل وعندما خرجوا وجدوا أنهم قد سُلبوا أموالهم، بطبيعة الحال استاؤوا من هذا وحاولوا الدخول مرة أخرى إلى المنزل - لكنهم وجدوا أنه مغلق. أدى هذا الحدث الصغير إلى بدء أعمال شغب. تجمّع الجنود معًا وبدأوا في مداهمة هذه المنازل الواحد تلو الآخر،

وألقوا الأثاث من النوافذ ثم أشعلوا نيرانًا ضخمة في وسط الطريق، ثم أشعلوا النيران في المنازل، ثمانية عشر جنديًا شارك في ذلك، كانوا أستراليين ونيوزيلنديين وبريطانيين، وبعد فترة من الوقت وصلت فرقة الإطفاء وشقوا المنزل على الحشد الهائل الذي تجمع بحلول هذا الوقت. حسنًا، أدى هذا الإجراء إلى تفاقم الأمور فقط حيث قام الجنود بقطع الخرطوم إلى أشلاء بسكاكينهم، وفي تلك اللحظة وصل بعض أفراد الشرطة المحلية الخيالة وبدأوا في إطلاق النار على الحشد مما أدى إلى مقتل جنديين وإصابة عدد كبير، إن تصرف الشرطة المحلية في إطلاق النار كان أحمقًا للغاية ولم يكن لديهم أوامر للقيام بذلك، ولكن الأخبار تدور سريعًا جدًا ولم يمض وقت طويل قبل وصول سرب من الخيالة الخفيفة واستعادة النظام، يجب أن يكون هناك الكثير من الأضرار التي لحقت بالممتلكات، يجب أن نأسف لهذه القضية لأنها تجعل الآخرين يشكلون رأيًا سيئًا للغاية عنا، فقد ظلت الصحف صامتة حتى الآن، ولكن يمكنك أن تقدّر الأمور تقديرها الصحيح فقط عندما تُرى بالأعين لا عندما تسمع بالأذن، في وقت قصير جدًا تم إخبار جميع الجنود بالذهاب إلى المعسكر وفعلوا ذلك دون تذمر، وبالتالي انتهى اليوم الأكثر إثارة منذ أن كنا في مصر ولكن للأسف

بعد فقد بعض الأرواح.»

قال آخر:

«كل مدينة كبيرة لديها قرحة، لكن القاهرة هي نفسها قرحة. هذه البقعة الحقيرة جعلت الفتيان الأطهار من السهول التي اجتاحتها الرياح والأدغال المعطرة في أستراليا مرضى موبوئين تمامًا ... بالنسبة لي أرى أن القاهرة هي مجمع للقاذورات التي يجب إزالتها وأن حرقها هو السبيل لتطهيرها كتصاعد البخور إلى الجنة»

قال جندي آخر:

«إن القاهرة حوضٌ متقيّحٌ للظلم تم تطهيره جيدًا بالنار. ولو تركناها ستكون سبة في جبين القوات الأسترالية كعمل غير مكتمل»

لقد أُخذت بشدة مما أقرأه عن القليل مما كتب عن أحداث حارة الوزير التي تبدو كمعركة صغرى استعرض فيها الأستراليون والنيوزيلنديون والإنجليز قدراتهم على الشغب ومقاومة قوى الأمن والنظام لمدة نصف يوم تقريبًا احتلوا فيها الأزبكية وأحرقوا عشرات البيوت والحانات وكانت النتيجة مقتل ثلاثة وجرح العشرات. ربما هناك العديد من المصادر الأخرى التي من الجائز أن أرجع إليها ولابد أن أغلبها

موجودة من الجانب الأسترالي. ربما أكمل بحثي عن هذه الفترة الغريبة فيما بعد.

لكن هنا والآن كان هناك سؤال يلحّ علي، ما علاقة الجندي (واين) بهذه الأحداث؟ ما ذكر في اليوميات يؤيد وبشدة أن (واين) أحد هؤلاء الجنود المحرضين الأساسيين الذين أشعلوا فتيل هذه الأحداث. مما ذكر في المصادر أن من أسباب اشتعال هذا الشغب غلاء حديث لأسعار الخدمات في بيوت الدعارة والمقاهي، وانتشار الأمراض الجنسية بين الجنود بسبب العاهرات المريضات والغير مرخصات مما أوقف رواتب الجنود المصابين وزاد حنقهم. سبب آخر هو حدوث مشكلة مالية بين بعض الجنود وأحد بيوت البغاء كسرقة أو عدم دفع الأجرة. كل هذه الأسباب مذكورة في يوميات (واين) حتى أنني أتخيله بل أشاهده مشتركًا في كل حدث منها. كما أن تصريحه واضح ومباشر في يومياته أنه في اليوم السابق للأحداث يوم الخميس الأول من أبريل ١٩١٥م كتب أنه ينوي أن يلقن المصريين درسًا بحرق بيوت البغاء في اليوم التالي يوم الجمعة العظيمة إضافة إلى نيته التهرب من الذهاب إلى المعركة. ياله من جبان خسيس!

يبدو الآن كل شيء متفق مع الأحداث ومتسق مع بعضه البعض. (واين) كان أحد هؤلاء المغيرين على حارة الوزير إن

لم يكن زعيمهم الذي خطط وقاد أكثر من خمسة آلاف من جنود التحالف الأستراليين والنيوزيلنديين والإنجليز في معركة الوزير بالأزبكية وانتصروا فيها على القوادين والفتوات والعاهرات المصريات. يا لها من معركة بطولية! أما نتيجة المعركة بالإضافة لانتصار الجنود كان احتراق وتهدم عشرات بيوت البغاء ومقاهي الرقص الخلاعي ومقتل ثلاثة بالإضافة لجرح العشرات. بالطبع تم استبعاد وتسريح مئات الجنود من الخدمة وإرجاعهم إلى أستراليا ونيوزيلندا كذلك تم التسريع بترحيل القوات الأسترالية والنيوزيلندية خلال أيام قليلة بعد الحادث إلى (جاليبولي). بالطبع قامت الشرطة بعمل تدابير أمنية من حظر التجوال الليلي والإغلاق المبكر فترة من الزمن لتجنب تجدد الاحتكاكات.

استرحت لتوصلي لهذا التفسير المنطقي الذي لم يكن من الصعب التوصل إليه. ولمزيد من الإيضاح وربط علاقات السبب والنتيجة، يمكننا أن نستنبط أن (واين) والد (كيث) وهو جندي مشاغب لعوب منذ وصل إلى القاهرة وهو يستغل كل وسائل الترفيه المنحرفة التي كانت متوفرة بطرق قانونية أو سرية في شوارع القاهرة ذلك الزمن فكان زبونًا دائمًا في بيوت البغاء ومقاهي الرقص الخليع وغرف القمار وغرز الحشيش والأفيون. بعد أن قضى حوالي أربعة أشهر من انغماسه في هذه الملذات المنحرفة أصيب بالأمراض

الجنسية المنتشرة ذلك الوقت، وتوقف راتبه وتداين بصالات القمار وأصبح مترصّدًا من فتوات وحراس المقاهي وبيوت البغاء. نتيجة لذلك وبالتزامن مع زيادة أسعار هذه الخدمات المنحرفة لزيادة الطلب نتيجة لإقبال الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين على هذه الخدمات نتيجة قرب رحيلهم عن القاهرة بعد أوامر الاستعداد للرحيل، قرر (واين) أن ينتقم بحرق هذه البيوت والاعتداء على من فيها من قوادين وعاهرات ومقاهي الرقص الخلاعي في آخر إجازة أسبوعية وهي يوم الجمعة العظيمة، كما حاول أن يسترجع ما دفعه من أموال إليهم أيضًا. مهما ستكون النتيجة ومهما كان سيحدث فإن رحيلهم في اليوم التالي إلى المعركة كافٍ بإسكات أي صوت ينادي بعقاب من دبر ونفذ هذه الأحداث وهم في عرض البحر في طريقهم إلى تركيا. تخطيط شيطاني، لكن حظ (واين) السيء إنه كان أحد ثلاثة قتلوا ربما برصاص الشرطة أو البوليس الحربي البريطاني. الاحتمال الثاني أن يكون قد هرب في أحشاء القاهرة أو خارجها أو خارج مصر ليتهرب من المعركة المقتربة كما لمّح في اليوميات، ومصر مليئة بأوكار الهاربين الأتراك والألمان والطليان شرقًا وغربًا. في الحالتين كانت آخر صفحة في اليوميات هي يوم الخميس الأول من إبريل ١٩١٥م. ولعل ما يؤكد ذلك أن (كيث) نفسه مع شعوره بالعار من سيرة أبيه، لم ينشر أو يرسل

يوميات والده إلى الأرشيف الحربي الأسترالي كمئات اليوميات الأخرى المنشورة بخط اليد بعد تصويرها ضوئيًا ووضعها على الشبكة العالمية متاحة للجميع.

لكن هل عرف (كيث) بكل هذه الأحداث كما عرفت؟ وهل هذا ما زاد من شعوره بالعار والحنق مما اقترفه أبوه؟ ولكن كيف عرف؟ هل ردة فعله العنيفة ناتجة فقط من قراءته اليوميات وما فيها من خلاعة وانحراف وجبن؟ أم أنه توصل إلى الحقيقة كما توصلت أنا؟ إن تلك الأحداث تمت منذ زمن بعيد، فما أفكر به الآن وأنقب فيه لا بد أن (كيث) قد فعله منذ عشرات السنوات حيث صعوبة التوصل إلى معلومات مقارنة بتوفرها بسهولة على الإنترنت هذه الأيام. ربما أن أحدًا من زملاء (واين) الذين رجعوا من الحرب أو ربما صرفوا من الخدمة بعد الأحداث قد أخبر (كيث) بما حدث، لهذا هو لا يأتي على ذكر أبيه كثيرًا لزوجته ويخفي ما ألمّ به ولا يفخر ببطولته الزائفة في (جاليبولي). وطبعًا (كيث) لا يلوم أحدًا على مقتل أبيه إلا المصريين الذين ينعتهم بالقوادين والعاهرات الذين قُتل أبوه في حربه ضدهم أو هرب من المعركة بسببهم أو ربما بمساعدتهم فمن يدري؟!. لكن يا للخسارة أن يكون (واين) بهذه الموهبة في الرسم. هل هو حقًا من رسم تلك اللوحات بالقلم الرصاص عن مصر وجمال طبيعتها؟ هناك شيء متناقض هنا لا أستسيغه، فمن يحب

الجمال والطبيعة والفن لا يكون بهذه الخسة والنذالة.

شعرت براحة أكبر بعد توصلي إلى هذا التفسير المنطقي الأقرب إلى الحقيقة. ثم سألت نفسي لماذا أنا مهتم كل هذا الاهتمام بهذا الموضوع؟ أصولي المصرية لن يزيدها ولن يقلل من شأنها أيٌّ من هذه الأحداث والمعلومات. وعلاقتي بـ(كيث) وزوجته انتهت فعليًا باستلام البيت الجديد الشيء الوحيد الذي ربطنا سويًا وتماست دوائرنا فيه فترة من الزمن ثم انتهى الأمر. كل من شاركوا في الحرب العالمية الأولى من الأستراليين قد مات بالفعل فآخرهم مات في مايو ٢٠١١م. الأستراليون أنفسهم لا يذكرون شيئًا ولا يتكلمون عن معركة الوزير، ومما قرأته في المصادر القليلة عنها فإن الباحثين القليلين في هذا الشأن قد أجمع أغلبهم أنها معركة غير بطولية مخزية لا تدل على شيء إلا شغب وسوء سلوك وانعدام أخلاق لدى الجنود الأستراليين المشاركين فيها. مهما يكون فقد حان الوقت لأغلق أنا هذه الصفحة وربما أعود بعد فترة لأفتش عن المزيد من المعلومات عن هذه الأحداث في أوقات فراغي. ولكي أغلق هذه الصفحة عليّ أن أحرق هذه اليوميات القميئة وأتخلص مما بها. نظرت من النافذة وجدت الساعة تجاوزت الواحدة صباحًا. فأخذت الحقيبة واليوميات ووضعتهم في ركن في الكراج بجوار صندوقين صغيرين قديمين يحتويان على أظرف ورسائل قديمة لأتخلص منهم

في الصباح بالحرق كما تم حرق بيوت البغاء في حارة الوزير قديمًا. وكأن تلك الحكاية قد كتب على نهاياتها أن تتم على ألسنة النيران وسحب الدخان.

***

العودة إلى القاهرة. (عفت البدوي- سيدني-الحاضر)

مضى أسبوع منذ تلك الليلة التي استطعت فيها حل لغز الجندي المشاغب (واين) وقراري بحرق يومياته التافهة تلبية لرغبة ابنه (كيث) ورغبتي الشخصية في أن أمحو ما بها من قاذورات ومعلومات مشينة مخزية عن مصر. بالرغم من شعوري بالراحة لتوصلي لحل اللغز إلا أنني أجبرت نفسي على نسيان كل شيء ومحاولة تجنب الحقيبة وما بها حتى تأتي الفرصة المناسبة للتخلص منها وساعدني على ذلك انشغالي في العمل بعض الوقت فقد كنت أعود متأخرًا إلى المنزل كل يوم.

اليوم هو السبت -الإجازة الأسبوعية- يوم مشمس مناسب حتى أقوم فيه بحرق اليوميات مع أشياء أخرى عديدة عديمة الفائدة لأفسح المزيد من المساحة في الكراج لأفكر في خطوتي القادمة لاستخدام هذه المساحة. ذهبت إلى الحديقة الخلفية وأعددت بوتقة من الصاج مناسبة لإقامة حريق محدود أرمي فيها الأشياء واحدًا تلو الآخر لتحترق.

أحضرت الحقيبة بمحتوياتها وصندوقين من الورق المقوى مليئين بالأظرف والرسائل القديمة من مخلفات (كيث) وعائلته. أشعلت النار في بعض فروع الأشجار فبدأت النيران تستعر وتكبر في البوتقة ثم أفرغت محتويات أحد الصناديق على الأرض لأبدأ برميها بعد أن ألقي نظرة سريعة على المكتوب عليها. من السهل التعرف على رسائل شركات الكهرباء والماء التي تعود إلى الستينات والسبعينات وما بعدها فصرت أنتقيها وأرميها بسرعة. لماذا يحتفظون بفواتير الخدمات منذ ذلك الوقت؟! وهذه فواتير قديمة للهاتف وهذه فواتير اشتراك في خدمات طبية وأخرى خدمات منزلية ومجتمعية وإعلانية. رسائل منذ نصف قرن لن تكون قليلة!

وبينما كنت أقلّب في الأظرف المختلفة، وقعت عيني على هذا المظروف السميك الكبير نسبيًا مقارنة بباقي الأظرف. أمسكته ورفعته وتحسسته يبدو ثقيلًا بعض الشيء كما لوكان يحتوي على كتاب متوسط الحجم. قرأت ما عليه ففي إحدى جهتيه كان مكتوب اسم المرسَل إليه (كيث وارين) وعنوانه وفي الجهة الأخرى بيانات المرسِل (جوشوا أليسون) والتاريخ على خاتم مكتب البريد ٣ يوليو ١٩٨١. توقفت قليلًا محاولًا أن أتذكر متى وأين سمعت باسم (جوشوا أليسون)؟ يبدو الأمر حديثًا! حاولت لكني يئست من تذكر ذلك فقررت أن أفتح المظروف لعلي أجد كتابًا قيمًا -سأستولي عليه

بالطبع- أو ربما مرجع علمي أو مجلة علمية أو هدية من إحدى المجلات أو شركات النشر. مزقت المظروف وأخرجت ما به ونظرت إليه مبهوتًا. كان دفترًا جلديًا أسود اللون فتحته لأقرأ أولى صفحاته تحت عنوان يوميات سيرجنت (واين وارين)!

***

العودة إلى اللغز. (عفت البدوي- سيدني-الحاضر)

أمام رقصات ألسنة اللهب تجمدت وأنا أنظر إلى الدفتر الجلدي الأسود وأرى وأكرر قراءتي لما هو مكتوب عليه عدة مرات. يوميات سيرجنت (واين وارين)؟ كذّبت عيني وفتحت الحقيبة الصفراء حتى أتأكد أنني لا تخدعني عيناي وأحضرت اليوميات التي كنت أعاينها منذ أيام، لكنني لم أكن موهومًا فقد كان دفتر اليوميات الأول كما هو في الحقيبة لم يتغير ولم يتسلل خارج الحقيبة ليدلف في مظروف قديم مرسل من الماضي ليقع في يدي مرة أخرى. فتحته فتأكدت أنه لا يزال هو هو نفسه قابعًا في مكانه مكتوبًا عليه يوميات سيرجنت (واين وارين). للتأكيد قلّبت صفحاته فوجدته نفس النقش بنفس الخط السيئ ونفس الترهّات الموجودة به، أما ذلك الدفتر الذي أخرجته توًا من المظروف فهو دفتر آخر مختلف وإن كان له نفس الغلاف الجلدي الأسود. هل

هناك (واين وارين) آخر؟ هل هو قريب لـ(كيث) بنفس اسم العائلة ونفس اسم أبيه الأول؟ لا أفهم شيئًا؟

أخيرًا استعدت نفسي من الدهشة وفتحت أولى صفحات اليوميات لأبدأ في قراءتها محاولًا فهم هذا اللغز الجديد. كان خطًا يدويًا جميلًا بالحبر الأزرق أدهشني فهو على العكس تمامًا من الخط اليدوي الآخر في اليوميات الأولى. ثم بدأت أقلب الصفحات وأقرأ. فهمت من الصفحات الأولى أنها يوميات نفس الجندي (واين وارين) -أيضًا- منذ غادر ألباني بأستراليا في أول نوفمبر ١٩١٤م وصولًا إلى مصر في ٤ ديسمبر ١٩١٤م في حملة القوات الإمبراطورية الأسترالية والنيوزيلندية المتوجهة إلى الشرق الأوسط لدعم الإمبراطورية الإنجليزية في حربها ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. نفس الإطار الزمني والمكاني ولكن بكلمات وأسلوب مختلفين، وكعادتي في قراءة الكتب -مرة أخرى- ألقيت نظرة سريعة إلى آخر صفحة مكتوب بها قبل أن أبدأ في قراءتها فوجدت يوميات يوم الخميس الأول من إبريل ١٩١٥م هي آخر ما كتب فيها أيضًا. هناك شيء مشترك في الدفترين إذن، ثم أخذت أقلب الأوراق وأقرأ باهتمام ثم تحول الاهتمام إلى نهم، وقد أخذتني الأوراق إلى عالم وأحداث وأشخاص لم أتخيل أن أعرف عنهم شيئًا يومًا من الأيام. لقد أخذتني هذه اليوميات هذه المرة كما أخذ الأرنب

(أليس) إلى بلاد العجائب غير أن بلاد العجائب في هذه الحالة هي مصر لكن الزمن كان هو زمن العجائب!

الفصل الرابع يوميات أخرى لكائن آخر

التسجيل-السبت٣١ أكتوبر ١٩١٤م (باثرست) -نيو ساوث ويلز. (يوميات واين وارين الأخرى)

لقد قررت اليوم أن أبدأ كتابة يومياتي من الآن وحتى يوم عودتي إلى الوطن مرة أخرى حتى أؤرخ لأحداث رحلتي إلى الشرق الأوسط وانضمامي إلى القوات الأسترالية الإمبراطورية AIF. أنا (واين إدوارد وارين) شاب أسترالي يظنني الجميع جميل الطلعة ممشوق القوام أزرق العينين هادئ الملامح رخيم الصوت، ولكنني أرى نفسي شابًا أستراليًا عاديًا من قرى الساحل الشرقي الأوسط. رباني أبي قس الكنيسة في قرية (باثرست) تربية متدينة وهو يجهزني لأكون القس القادم للكنيسة لأكمل المسيرة الدينية منذ قدمت عائلتنا من إنجلترا أوائل القرن التاسع عشر. صراحة لقد أحببت أبي والطريقة التي يعاملني بها وتأهيله لي لأكون قسًا، حتى لو لم أصبح قسًا فإن تربية أبي لي قد أورثتني حب الناس وتوقيرهم وتبجيلهم لي. لن أقول إنني كنت عند حسن ظن أبي بي خلقًا وعلمًا، ولكني دائمًا ما كنت أسعى جاهدًا لأن أكون مثله في كل شيء منذ كنت طفلًا صغيرًا. نعم يحبني أهل القرية ويوقرونني وكنت أسعى في مساعدتهم جميعًا في كل شيء وفي كل الأوقات.

أكثر ما أحب أن أفعله هو القراءة فأنا قارئ مفكر نهم لكل ما يقع تحت يدي من كتب دينية أو أدبية أو تاريخية أو فلسفية. كما أنهم يقولون إنني موهوب في الرسم بالقلم الرصاص فقد كنت أتحين الفرص لأرسم بالقلم الرصاص كل ما يجذب انتباهي في طبيعة قريتنا الجميلة المتفردة من حقول وأشجار وجبال وحيوانات.

تزوجت حبيبتي (دوننا) فقد كبرنا معًا وتعلمنا معًا وأعطيتها أول قبلة في حياتي، ثم أعطانا الله ابننا الأول (كيث) الطفل الأجمل في الكون الذي أخذ من (دوننا) عينيها وشفتيها وأخذ مني جبهتي وأنفي. إنه الابن الأفضل في العالم وسأسعى جاهدًا أن ينال الأفضل.

اليوم سجلت اسمي في قائمة المتطوعين في القوات الإمبراطورية الأسترالية للذهاب عبر المحيط إلى الشرق الأوسط في حملة عسكرية مساعدة للإمبراطورية الإنجليزية في حربها ضد الأتراك والألمان. لقد نشبت الحرب العالمية في أوروبا وانتقلت إلى دول أخرى ومن الجائز أن تكون أستراليا على خط المواجهة يومًا من الأيام إذا لم نساعد الإمبراطورية الأم إنجلترا في حربها. لكن الأهم من ذلك أن نشوب الحرب قد روع العالم أجمع وهوى باقتصاديات دولٍ وأعمالٍ كثيرة، وقد كان لهذا تأثيرٌ سلبي على وطننا أستراليا. مع ضيق الحال

وقلة العمل وضعف رؤوس الأموال وتبعية أستراليا للتاج البريطاني، اتجهت كغيري من آلاف الشباب الأسترالي للتطوع في الجيش في هذه الحملة. كانت الستة شلنات الراتب اليومي للجنود مغرية إلى هذا الحد فمن الصعب الحصول على مثل هذا الراتب اليومي خالصًا في أي مكان في أستراليا إضافة إلى المعيشة والرعاية الصحية.

أخبرت زوجتي فبكت قليلًا لكنني وعدتها أن أعود إليها بالمال والفخر لنربي سويًا ابننا (كيث) بعد أن أجمع المال اللازم لأبدأ تجارتي الخاصة التي ستعينني على المعيشة دون الإخلال بوظيفتي المستقبلية في الكنيسة. أكره الوداع لكنني غدًا سأودع أبي وأمي وزوجتي وابني وكلبنا وكلّي أمل أن يتفهموا الأمر ويهبوني وداعًا مريحًا لا يقلق روحي وأنا غريب مسافر عبر المحيطات. اتجهت بعد ذلك مع زملائي من (باثرست) ونيو ساوث ويلز للسفر في رحلة طويلة إلى (ألباني) في غرب أستراليا لنركب الباخرة إلى رحلة أطول وأخطر.

***

على الباخرة-الإثنين ١٦ نوفمبر ١٩١٤م ألباني غرب أستراليا. (يوميات واين وارين الأخرى)

وصلنا إلى ألباني منهكين بعد رحلة برية صعبة وطويلة عبر

صحاري أستراليا من الساحل الشرقي وحتى ألباني في غرب أستراليا. عند وصولنا لم يمنحنا الكابتن (هوك) الوقت الكافي للراحة حيث أن البوارج ستتحرك في صباح اليوم التالي، تحتّم علينا اليوم أن نجتمع ونتلقى الأوامر الأولية ونحصل على مهماتنا وحاجياتنا وأسلحتنا قبل الصعود على البارجة. كان يومًا صعبًا مرهقًا مع ضيق الوقت، كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا التجمع الكبير والغريب من الأستراليين. نعم كان عددنا في هذا اليوم فقط أكثر من عشرة آلاف، رأيت في هذه الأعداد الغفيرة أشكالًا وأنواعًا كثيرة من الأستراليين. رأيت رفاقًا من كل الولايات الأسترالية لأول مرة في حياتي، رأيت فيهم من أهل المدن ومن أهل القرى وإن كان أغلبهم من القرويين على ما يبدو من طريقة ملبسهم ولهجاتهم وطرقهم البدائية في التعامل. كما أنني وجدت أعدادًا كبيرة أيضًا من السكان الأصليين والماورونيين وكذلك من آسيويّي الأصل من مهاجرين أو مولدين. عندما تستقر في قريتك طوال نشأتك فمن الصعب استيعابُ أن تقابل كل هذا الحشد المختلف من الأعراق والألسنة يجتمعون على هدف واحد ويتجهون إلى مكان واحد لأداء نفس العمل والحصول على نفس الراتب.

تحركت بنا البوارج التي عبرت المحيط الهندي غربًا حتى بحر العرب ثم البحر الأحمر حتى مرت في قناة السويس

الضيقة فأخذ الجنود يتأملون الأراضي المصرية على الضفتين وما بها من نخيل شامخ ووجوه سمراء لأطفال مصريين يلوحون ويتصايحون لنا.

***

القاهرة-الجمعة ٤ ديسمبر ١٩١٤م القاهرة. (يوميات واين وارين الأخرى)

وصلنا إلى الإسكندرية في الرابع من ديسمبر ١٩١٤م، وبرغم برودة الجو في هذا الوقت من العام مقارنة بأستراليا التي تكون شديدة الحرارة خلاله، إلا أن الجنود كانوا يشعرون بالسعادة عندما وطئت أقدامهم أرض ميناء الإسكندرية المبلل بالأمطار. لقد كانت الرحلة طوال أربعة أسابيع على البارجة بطيئة مملة مرهقة ومليئة بالتغيرات الجوية وتقلبات الموج والكثير من دوار البحر والقيء. لم يغير من نمط الرحلة وبطئها على البارجة إلا بعض حفلات السمر التي كان يقوم بها بعض الغلمان. مثل ذلك الفتي (جوشوا أليسون) الذي كان كالقرد يقفز ويرقص ويغني على أنغام الأكورديون، ويتنكر أحيانًا في هيئة أنثوية في مسرحية خلاعية وسط تصفيق وصيحات الجنود الماجنة وهم يتبادلون الشراب. كان الفتى (جوشوا) سعيدًا مرحًا وكأنه ذاهب إلى الجنة أو ناجٍ من الجحيم، وقد ردد بعض الجنود من قريته بيننا أن سبب

سعادته أنه هرب للتو من مشكلة أو جناية قد اقترفها في قريته فتخلص الآن من ملاحقة الشرطة له، وللحق كان هذا الفتى مشاغبًا سكيرًا مقامرًا كثير المشاكل. أما أنا فقد قضيت الأربعة أسابيع في أحد الأركان الهادئة بعيدًا عن الصخب أقرأ كتابًا وراء كتاب أو أرسم في دفتري أو أكتب يومياتي.

ركب الجنود القطار البخاري متجهين إلى القاهرة، وكان جلهم متحمسًا لمشاهدة القاهرة العاصمة القديمة التي سمعوا عنها، وبالرغم من أن معظم الجنود المتطوعين كانوا من قرى وأرياف مختلفة في أستراليا، إلا أنهم جميعًا سمعوا من الأوربيين عندما كانوا يزورون أستراليا عن القاهرة ومصر والأهرامات والفراعنة والمعابد الفرعونية.

أكد الكابتن هيكتور دينينج: «**... لن ترى في الإنارة الليلية من الدلتا أجمل من أضواء القاهرة... إذا كنت تريد أن تحدق بمقلتيك في أضواء القاهرة، اذهب في المساء (في المرة القادمة التي تأتي فيها في إجازة) إلى الأهرامات. يمكنك الجلوس هناك (بدون أدنى خوف من إحراج العشاق) لمدة ساعة. إذا كنت ترغب في ذلك يمكنك البقاء لفترة أطول.**»

بعد ست ساعاتٍ من تحرك القطار، وصلنا إلى محطة اسمها (أبو العلا) حيث وجدنا في انتظارنا مجموعة من الجنود

البريطانيين، ومعهم مجموعة من الأدلّاء والمساعدين المصريين ليصحبونا إلى مكان معسكرنا على مسافة عشرة أميال غرب القاهرة. وصلنا إلى مكان المعسكر في الواحدة صباحًا في منطقة تسمى (مينا) في الصحراء عند هضبة الأهرامات. بها مبنى يسمى (مينا هاوس) كان يملكه ثري إنجليزي اسمه فريدريك هيد وسماه (مينا) على اسم ملك مصري فرعوني وحّد قطري مصر القديمة الشمالي والجنوبي، كانت فرحتي لا توصف أن أصبح معسكر تدريبنا ومبيتنا على بعد دقائق قليلة من الأهرامات وأبو الهول وفي نفس المكان الذي نزل فيه نابليون بونابرت عندما غزا مصر. من المؤسف أن الوقت قد تأخر جدًا للذهاب إلى رحلة إليهم. أمر القادة الجنود أن يبدؤوا في نصب خيامهم للراحة من عناء تلك الرحلة الطويلة، لم يمض وقت طويل حتى كان الجميع يغط في سبات عميق بعد رحلة عبرنا فيها مصر من شمالها والكرة الأرضية من شرقها.

***

معسكر (مينا) -الاثنين ٧ ديسمبر ١٩١٤م. الجيزة (يوميات واين وارين الأخرى)

في الأيام التالية انشغل الجنود بترتيبات معسكرهم الجديد وتأسيسه وإعادة نصب المخيمات بنظام، وتوزيع الجنود على

المخيمات بترتيب معين، ثم أخذ كل كابتن سريته ليعطيهم الوصايا العشر أو هكذا كنا نسميها، وهي مجموعة من المعلومات والتعليمات الهامة التي ينبغي على جنود القوات الأسترالية في مصر اتباعها لتأمين سلامتهم، كالتحرك في مجموعات والإبقاء على الملبس العسكري أثناء التحرك في شوارع القاهرة في الإجازات، وعدم إظهار مبالغ مالية كبيرة للمصريين لتجنب التعرض للسرقة، وأساليب التعاملات مع المصريين كالبيع والشراء والفصال والتحدث، واستخدام مواصلاتهم واستئجار أشيائهم وغيرها من الأشياء، كذلك تناول المشروبات الكحولية في الأماكن المخصصة لها مع تجنب لعب القمار لتجنب الاحتكاك مع المدنيين. أكثر ما لفت انتباهي هو أسلوب التحدث المتعالي عن المصريين كما يتحدث الأستراليون عن القوم البدائيين سكان أستراليا الأصليين، فعلى العكس مما أعرفه عن المصريين أنهم أساس الحضارة برغم ما عانوه تحت وطأة الإمبراطورية العثمانية، كان القادة الأستراليون يتحدثون عن المصريين بعنجهية وصلف ورثوها ربما من أقرانهم البريطانيين الذين يتحكمون في مقدرات المملكة المصرية برمتها.

عندما أتى الكابتن على ذكر بيوت البغاء والتعامل مع القائمين عليها من قوادين وفتوات وعاهرات، صاح الجنود مهللين ومصفرين فرحين بهذه الميزة والتسهيلات والخدمات

التي تقدم إليهم للمتعة وتهون عليهم آلام فراق الوطن ولو بقدرٍ قليل، بينما كنت أنا -بحكم تربيتي الدينية- أحتقر هذه التجارة والقائمين عليها حتى أنني في (باثرست) نجحت في إغلاق بيت البغاء الوحيد في البلدة بعد جهد جهيد. لكن يبدو أن الحكام البريطانيين لمصر قد قننوا هذه التجارة في القاهرة وخصصوا لها أماكن معينة وقوانين تحكمها وكشفًا دوريًا على العاهرات وشهادات صحية معتمدة، ساعد ذلك على ازدهار هذه التجارة مع توافر المادة الخام من المحتاجات والمعوزات في شوارع القاهرة الفقيرة، والهدف من ذلك كله تقديم خدمة للجنود البريطانيين وحلفائهم تعينهم على تمضية الوقت مغتربين عن أوطانهم، لكن المهنة قد انتشرت وملأت وسط القاهرة وتخطت حدود التحكم في كثير من الأحيان.

«ومع ذلك، عندما واجه الجنود الأستراليون المصريين في أماكن قريبة، كانوا أكثر تناقضًا بكثير. من ناحية، شجعت البيروقراطية العسكرية العليا على الحفاظ على الهيمنة العرقية البيضاء، محذرةً القوات من البقاء بعيدين عن السكان المحليين. عكست كتيبات التعليمات التي نُشرت على عجل للمقاتلين الأستراليين هذا التفكير. بمجرد الوصول إلى مصر، أُمر بإعداد كتيب - ما يجب معرفته في مصر: دليل للجنود الأستراليين. حذر في ذلك الدليل:

"القاعدة الآمنة الوحيدة هي عدم التحدث إلى امرأة من السكان الأصليين على الإطلاق ... جزء كبير من السكان حريصون على معرفة الرجل الأوروبي لكسب المال منه. سوف يصبحون مصدر إزعاج إذا سمح لهم بأن يكونوا مألوفين». احتوى الكتيب على عشرات العبارات المفيدة باللغة العربية، بما في ذلك طريقتان لقول «ابتعد.»

قضيت الأسبوع الأول في القاهرة مثل بقية الجنود الأستراليين في إعداد المخيم والترتيبات الأساسية للاستقرار في القاهرة بعض الوقت حتى يحين موعد التحرك لمواجهة الأتراك ثم بدأت التدريبات المختلفة. ولسوء حظي فقد كان الفتى (جوشوا أليسون) المشاغب مثير المشاكل زميلًا لي في خيمتي مع جنديين آخرين. حاولت أن أتجنبه لكن (جوشوا) لم يكن يترك أحدًا في حاله فيتكالب على هذا ويمازح الآخر وينصب فخًا للثالث. لكني استطعت أن أوقفه عند حده بحزم دون أن أغضبه.

***

أول إجازة- الجمعة ١١ ديسمبر ١٩١٤م القاهرة. الجيزة (يوميات واين وارين الأخرى)

في صباح أول يوم جمعة أقضيه في القاهرة وهو يوم الإجازة الأسبوعية عند المصريين، كان الجنود متحمسين

لاستكشاف القاهرة. لكن يبدو أن أغلبهم إن لم يكن جلّهم كان يرغب في استكشاف حي البغاء بالأزبكية، وقد دلهم الجنود البريطانيون إلى طريق الوصول لوسط القاهرة عبر الترام إلى شارع كلوت بيك، بل نصحوهم بأماكن بيوت العاهرات النظيفات الصحيحات اللائي يحملن شهادات صحية سليمة، حيث أن تزوير الشهادات الصحية اشتهر في هذا المجال. بل إنهم حتى دلوهم على القوادين الأمناء وحذروهم من القوادين المخادعين وغير الرسميين. بل حتى أنهم نصحوهم بعاهرات بعينهن ممن يجدن فنون العهر والدعارة.

يبدو أن هناك مجموعتين أساسيتين للبغاء في وسط القاهرة، المجموعة الأولى في منطقة (وش البركة) في الأزبكية وبها العاهرات الأوروبيات يديرهن قوادون أوروبيون ممن يحتمون بامتيازات فريدة تحت حماية قنصلياتهم، ومنطقة (الوسعة) وبها العاهرات المصريات والحبشيات والزنوج، ويبدو أن الجنود قد انقسموا تباعًا إلى مجموعتين لتلبية أمزجتهم المختلفة.

أما أنا ولأني لا أنوي زيارة بيوت البغاء في وسط القاهرة على غير عادة بقية الجنود، فقد غيرت ملبسي العسكري إلى لباسٍ مدني فلبست بنطالًا وقميصًا ومعطفًا ثقيلًا يقيني برودة الجو في شتاء القاهرة القارص، واعتمرت قبعتي

الجلدية ثم اتخذت طريقًا مغايرًا لما اتخذه أقراني إلى الترام، فقد توجهت إلى سفح الأهرامات وأبي الهول وتوقفت أمامها وتحسست أحجارها منبهرًا بأحجامها وارتفاعها مشدوهًا بأنني في حضرة أقدم بناء في تاريخ البشرية، تساءلت في قرارة نفسي كيف صُنعت هذه الأبنية المعجزة، وكيف صمدت كل هذه السنين وأي عظماء أنشأوها. لم أستطع أن أقاوم هذا الجمال البكر فجلست القرفصاء وأخرجت ورقة بيضاء وقلم رصاص وبدأت برسم الأهرامات وأبي الهول تحت السماء الغائمة وجموع الجمّالين والحمّارين حولهم.

بالرغم من قرب المسافة بين المعسكر في (مينا) وبين الأهرامات إلا أنني قضيت كل النهار أتنقل بين الأهرامات وأبي الهول وأتأمل وأرسم بقلمي الرصاص، ولكن للأسف اليوم قصير في شتاء مصر في ديسمبر فكان عليّ العودة إلى المعسكر استعدادًا ليوم شاق آخر من التدريبات.

«على عكس آمال البيروقراطية العسكرية، لم يبق الجنود الأستراليون بعيدًا عن مصر. (أثبتت بيوت الدعارة في القاهرة أنها لا تقاوم بشكل خاص). واتخذوا نهجًا عمليًا بشكل خاص لكسب الاحترام المصري. تفاعل الأستراليون مع السكان المحليين والمناظر الطبيعية بشكل مختلف عن القوات البريطانية، التي كانت تميل إلى الحفاظ على

مسافة محترمة»

مع هبوط الظلام توجهت إلى المعسكر قبل أن يصل زملائي من رحلتهم الماجنة في وسط القاهرة، استقبلتهم في خيمتنا ووصل إلى مسامعي حكايات الفتى (جوشوا) وزملاءه الآخرين مع العاهرات وحانات الخمور، وقد أخذ كل واحد يحكي تجربته مع العاهرة بلا استحياء وهو يشرح قولًا وفعلًا ما فعله وما ناله من خدمة جيدة أو رديئة من العاهرات، والخمر الرديء الذي يشبه بول الجياد وغيرها من الحكايات التي لا تنتهي.

كان أكثرهم حماسةً الشابَ (جوشوا) الذي أخبر رفيقيه أيضًا أنه وجد مكانًا للقمار في إحدى صالات الرقص، بل إنه وجد حانة لرقص الكانكان المصري الخليع، انبهر الآخرون بما يحكيه عن الراقصات العاريات اللاتي يتلوّين بلا استحياء لإظهار مفاتنهن، وقد أخذ يُقْسم أنه قد قبض بكفه على عشرات النهود العارية أكثر مما سلم على زملائه. لم أتحمل المزيد من الترهات والأحاديث التافهة عن تلك الأمور، انزويت في ركني من الخيمة ونمت بعد أن كتبت يومياتي في دفتري رفيقي في الرحلة وأنا لازلت أشعر بالانتشاء من شعوري المهيب أمام جمال الأهرامات وعظمتها.

***

محمد خليل - الجمعة ١ يناير ١٩١٥م روض الفرج-القاهرة. (يوميات واين وارين الأخرى)

مر أسبوعٌ آخر من التدريبات المختلفة والعنيفة حتى أتى يوم الجمعة مرةً أخرى، ثم أسبوعٌ ثالث وفي كل يوم جمعة كنت أتحيّن الفرصة للذهاب وحيدًا إلى منطقة جديدة لاستكشاف جمال القاهرة الفرعونية والإسلامية والاستمتاع بنقاوة طبيعتها وتاريخها العريق. يوم الجمعة الأول مع بداية العام الجديد ١٩١٥م تجهز الجنود الأستراليون كالعادة للذهاب إلى وسط القاهرة للسُكر والعهر والقمار، بينما توجهت أنا هذه المرة إلى شاطئ النيل. لقد كنت أستمتع بوحدتي وسط هذا الجمال البديع. أنا بطبيعتي أستمتع دائمًا بوحدتي عندما أقرأ كتابًا يأخذني إلى عالم آخر سواء أكان الإنجيل أو كتاب أدب أو فلسفة، لكنني الآنَ وسط عالم جديد وغريب أريد أن أنهل منه قدر الإمكان فمن يدري متى سأرحل عنه حين تتحرك القوات الأسترالية إلى المعركة.

«رأى الأستراليون في مصر «أصالة» أكثر عندما هربوا من حشود الفئران الحضرية في القاهرة. لذلك كان التفكير في الأفق بمعزلٍ على درجات الهرم هو أفضل طريقة للاستمتاع بمصر، كذلك كان استكشاف المناطق الريفية، مثل روض الفرج، التي كانت عربيةً خالصة لا تقيدها

أوروبا»

كان الافتراض الأساسي لمعظم الروايات الأسترالية عن مصر هو أن القاهرة العالمية جعلت المدينة وكرًا للرذيلة. على النقيض من ذلك، في روض الفرج: «يغمر القمر الشارع ببريقٍ شاحب هو المقابل الجوي لغروب الدلتا المسكر. تلمع المآذن المضيئة فيها. ضاع خراب المساكن المزدحمة. وكذلك قذارتها. إنها تتحول إلى كتلٍ مرصعة باللؤلؤ.»

أتيت اليوم إلى منطقة تسمى روض الفرج واتخذتُ مجلسًا على الشاطئ أتنسم رائحة النيل، وأخذت أرسم مجراه وأشعة الشمس المتوارية خلف السحب على استحياء فوق بعض القوارب الشراعية الصغيرة. بينما كنت أتأمل المنظر المبدع من كل اتجاه، لمحت ذلك الشاب على مسافة ليست بعيدة مني وهو متكئ على وسادة وجالس على فرش من الخوص، ملبسه كان مختلفًا عن معظم المصريين الذين قابلتهم، فهو لا يلبس الجلباب أو العمائم والطواقي وإنما بنطالًا وقميصًا على الطريقة الأوروبية بالإضافة طبعًا إلى الطربوش المصري المعتاد. كان مستغرقًا في قراءة كتاب متوسط الحجم استطعت أن أقرأ عنوانه المكتوب بالخط العريض بالإنجليزية (ما وراء الخير والشر ...لفريدريك نيتشه)، وقد تصادف أن يكون هذا الكتاب من قائمة أحب الكتب إلى قلبي وعقلي

ووجداني، حتى أنني قرأته في قريتنا أكثر من مرة وأحفظ مقتطفات منه، فلم أتمالك نفسي وتعمدت التحدث بصوت عالٍ بالإنجليزية:

- **«ليحذر ذاك الذي يحارب الوحوش من أن يتحول هو ذاته إلى وحش».**

سمعني الشاب المصري الملامح، لكنه لم يلتفت إليّ في البداية قبل أن يلتقط الطعم ويفهم المغزى، فالتفت إليّ يتأملني للحظات ثم قال بانجليزية سليمة:

-**«عندما تحدق في الجحيم طويلًا، فإن الجحيم سيحدق فيك أيضًا».**

ابتسمت وقد أيقنت أن الشاب المصري الذكي قد ردد كلمة السر الصحيحة حين أكمل أحد المقتطفات الشهيرة لنيتشه في كتابه «ما وراء الخير والشر»، فوقفت من جلستي وتقدمت لأقترب من الشاب الذي ظل ماكثًا على جلسته بالرغم من عينيه اللتين تتبعاني في حركتي حتى أتيت أمامه تمامًا ومددت يدي أسلم عليه وقلت بوجه مبتسم ودود:

- أنا (واين وارين).

لم يقف الشاب من جلسته وإنما اعتدل فقط ليتبادل السلام معي وقال:

- (محمد خليل) ...هل أنت أسترالي؟

- كيف عرفت؟ أنا لا ألبس زيي العسكري!

أشار (محمد) لي بالجلوس بجواره وقال بثقة متعلم مثقف:

- برُّ مصرَ كله ليس فيه أحد في طولك وبشرتك وعينك الزرقاء وقبعتك الفريدة. فضلًا عن أن وجهك مصبوغ بشمس قوية لا تسطع على أي مدينة في أوروبا.

جلست بجواره متحمسًا وقد وجدت ضالتي في (محمد) وقلت:

- أهنئك على فراستك، ولكن لا بد أن أعترف أني مندهش أن هناك في مصر من يقرأ نيتشه ويتحدث الإنجليزية بطلاقة مثلك.

نظر (محمد) إليّ باستغراب وقال بنفس مستوى ثقته العالية:

- بل الاندهاش كل الاندهاش أن يكون هناك جندي أسترالي من AIF قد قرأ نيتشه، وأغلب جنود الحلفاء في مصر من القرى والأرياف في بلادهم بالكاد يقرؤون ويكتبون.

كان على حق فتنحنحت لأغير الموضوع وقلت:

- حسنًا إننا متعادلان في الدهشة إذن. ماذا تعمل يا

(محمد)؟

- أنا صحفي موقوف عن العمل. وأنت ماذا تعمل في وطنك قبل أن تنضم للقوات الأسترالية ؟

قالها بفخر مصطنع يدل على حالة الإحباط لديه فرددت:

- أنا قس تحت التدريب... وأشغل نفسي بالقراءة والرسم في أوقات فراغي... وربما إن عدت لوطني أبدأ تجارتي الخاصة.

ثم أخذ الحوار يدور بيننا وكأن كلًا منا قد وجد ضالته في الآخر، فبعد أن طال حديثنا أيقنت أن لدينا تقريبًا نفس القدر من الثقافة والاهتمامات المشتركة في نوعية الكتب والهوايات المختلفة، فـ(محمد) يكتب الشعر بالإضافة إلى حبه للفن والفنانين، كما أنه زار فرنسا وقضى بها بعض الوقت مما أتاح له زيارة المتاحف والمسارح في باريس وأصبح من وقتها من متذوقي الفن، فأثنى على رسوماتي اليدوية حين أريته إياها. لكنه تجنب أن يتحدث عن وظيفته وسر إيقافه عن العمل عندما سألته. كان لقاءً مثمرًا وحوارًا حميمًا لم يكن لينتهي دون أن نتفق سويًا على لقاء آخر، فرشح (محمد) لي مسجد السلطان حسن حيث ستبهرني العمارة الإسلامية فوافقت على الفور. من يرفض أن يرافقه شخص مثقف مثله ويكون مرشده السياحي في وطن هو منبهرٌ بحضارته ورغم

ذلك لا يعرف عنه الكثير.

عدت إلى المعسكر هذه المرة وأنا أشعر بنشوةٍ من نوع جديد لم يعكر صفوها إلا الفتى (جوشوا) الذي دخل الخيمة وأخذ يثرثر بمغامراته مع العاهرات في (الوسعة) قبل أن يلومه رفيقه الآخر لأنه تهرب من دفع الحساب في بيت البغاء كما اشترك في القمار وتهرب من خسارته وبالكاد نجا من عراكٍ دامٍ مما وضع كل الجنود الأستراليين في موقفٍ حرج وأعطى انطباعًا سيئًا لدى المصريين عنهم وربما يمتنعون عن خدمتهم، أخذ (جوشوا) يسب ويلعن المصريين وهو لا يفتأ يحك بأصابعه بين فخذيه كالأجرب ويبرر أفعاله بسوء جودة الخدمة والخمر المغشوش وأن المصريين يغشون في ألعاب الورق وما إلى ذلك. كان واضحًا أن الفتى (جوشوا) عنصرٌ فاسدٌ جاذبٌ للمشاكل وأنه لن يتوقف عند هذا الحد بل سيتمادى في خلق المشاكل له ولكل من حوله.

***

منزل (محمد خليل) -الجمعة ٥ فبراير ١٩١٥م - السيدة زينب. (يوميات واين وارين الأخرى)

جمعةً بعد جمعة توطدت العلاقة بيني وبين (محمد خليل)، وأصبحنا صديقين مقربين خلال أقل من شهرين، فقد وجدت في (محمد) ما لم أجده في أحدٍ من أقراني في الجيش.

وجدت منه ثقافة وسعة اطلاع وتفهمًا للثقافات الأخرى وتقبلًا للأجناس المختلفة بعاداتها وتقاليدها، وسعة صدر في تقبل النقد الشخصي والجمعي والمجتمعي أيضًا. انتقلت العلاقة بيننا تدريجيًا إلى الناحية الشخصية، فحكى كل واحد عن حياته الشخصية وأسرته. أخبرت (محمد) عن زوجتي وابني (كيث) وأريته صورة أسرتي، بينما قام (محمد) ببساطة بدعوتي لبيته في منطقة السيدة زينب وكنت سعيدًا جدًا لتلبية هذه الدعوة بسبب فضولي لمعرفة تفاصيل الأسرة المصرية والبيت المصري.

أعطاني العنوان في حي السيدة زينب فذهبت إليه صباحًا وقد سألت أحد العاملين المصريين في المعسكر عن أفضل هدية لأسرة مصرية تدعوني لمنزلها، فقال الرجل أحضر معك طعامًا فأحضرت معي بعض الفطائر من مخبزٍ افرنجي كهدية لأسرة (محمد)، ثم تعرفت عليهم واحدًا واحدًا. عرفت أنه من المنصورة وأنه يقيم مع عمه منذ حوالي عام. كان عمه الحاج (طه خليل) يعمل خردواتي وابن عمه (محمود) يساعد أباه في تجارته ولديه زوجة وأطفال ظلوا يداعبونني أنا الكائن العملاق أزرق العينين بلطف وفضول. كذلك ظهرت نساء البيت وبناته بتحفظ وحشمة مرةً واحدةً خلال اليوم كله وهن مبتسمات لي ومرحبات بقدومي. كان (محمد) لا يزال أعزبًا يستمتع بعزوبيته أو أن هناك شيء آخر في حياته لا

أعلمه حتى الآن.

أحسست بأن الحاج (طه خليل) كان متحفظًا في البداية بعض الشيء على هذه الزيارة تجنبًا للمشاكل والقيل والقال من أهل المنطقة، لكنه ما لبث أن شعر بصدق نواياي، خاصة وأنني لم أحاول أبدًا أن أظهر بزيي العسكري، أو أنوه للقوات الأسترالية أو الحكومة البريطانية الحليفة او الاستعمار وأعوانه، فقد كان واضحًا لهم حقيقتي وهي أنني أعيش في القاهرة كسائح أتى ليتعرف على مصر وأرضها وناسها وأنا أكنُّ كل الاحترام إلى تاريخها وعادات وتقاليد أهلها حتى لو لم يدعني أهلها لزيارتها.

عندما أتى ميعاد صلاة الجمعة ألححت على (محمد) أن يصحبني إلى الصلاة على أن أقف بعيدًا عنهم حتى لا أثير فضول الناس. وافق (محمد) ولمزيد من الحيطة أعطاني جلباب عمه الأبيض لألبسه فقد كان طويل القامة مثلي، وفعلًا ناسبني الجلباب وكنت سعيدًا جدًا بالمغامرة وبشكلي الجديد الذي أضحك الأسرة كلها حتى ظل الأطفال يدعونني «الحاج (واين)». وفعلًا ذهبت مع (محمد) وقد سبقنا الحاج (طه) وولده وأحفاده إلى مسجد السيدة زينب.

في المسجد وما حوله شعرت بروحانيات صلاة الجمعة التي يتجمع فيها أهل المنطقة جميعًا في مكان واحد،

والسكينة النفسية التي تهبط على رؤوس المصلين وهم يستمعون لخطبة الإمام وفي أدعيتهم ثم صلاتهم. إن الخشوع للرب واحدٌ بأي طريقة يصلي الناس بها مهما كانت حركاتهم وإيماءاتهم وأدعيتهم، فخشوع المصريين في خطبة وصلاة الجمعة مثل خشوعنا في قداس الأحد. احترمت المصريين وقد شاهدت بعيني آلاف مؤلفة منهم يصلون في المسجد وحول المسجد في الطرقات وفي الأزقة ولمست بنفسي حرصهم على الوصول قبل الصلاة وفي الصفوف الأمامية أو اللحاق بها وهم على أكمل وجه من النظافة والزينة، ثم تجمعهم بعد الصلاة وجوه مبتسمة بشوشة يتصافحون ويتحدثون ويتبادلون الأخبار، ثم يبدأ بعض الناس بتوزيع طعامٍ مجاني على المساكين في أرغفة من الخبز أو أطباق صغيرة وأكواب من العصائر كنوع من التقرب إلى الرب. إضافة طبعًا إلى الباعة الجائلين الذين يستغلون التجمع البشري الأسبوعي الكبير وينادون على بضاعتهم من فاكهة أو عطور أو ملابس. كان يوم الجمعة كرنفال يشعر الكل فيه بالتواصل والدفء مع بداية هبوب نسمات الربيع في هذا العام.

جاء ميعاد الغداء فتناولت الغداء مع الرجال في غرفة الضيوف، كان طعامًا لذيذًا وغريبًا عليّ بعد أن جفت معدتي من كعكات الأنزاك وطعام المعسكر، فهناك طبق كالحساء

أخضر اللون يسمونه ملوخية لذيذ الطعم بالبصل المكرمل والثوم المدقوق، كما أنهم يحضرون أوراق الكرنب الرقيقة ويحشونها بالأرز المخلوط صانعين أكلة يسمونها محشي لذيذة لها وقع دافيء في المعدة. كذلك الدجاج المقلي في الزبد كان لذيذًا طازجًا مليئًا بالعصارة، أخبروني أنهم يربون الدجاج على أسطح المنازل ويراعون غذائه وصحته وهذا سر طعمه اللذيذ، ووعدوني المرة القادمة بوجبة حمام محشي بالفريك وكنت متحمسًا له فلأول مرة سأتذوقه. زاد من الأمر بهجة أنني كنت أستمتع بجو العائلة الذي أفتقده منذ أتيت إلى القاهرة واسترجع شعوري بالغداء الأسري الذي تقيمه أمي وزوجتي فنجلس أنا وأبي و(كيث) على المائدة معهن نستمتع بدفء الأسرة وحضن الوطن.

***

العقيقة - الجمعة ١٢ فبراير ١٩١٥م. السيدة زينب (يوميات واين وارين الأخرى)

هذا اليوم قضيت معظمه كعادتي الجديدة في بيت (محمد)، فبعد إفطار الصباح وتناول الفول والبيض والباذنجان والطعمية ذلك الاختراع العجيب الذي يملأ الفم بالنكهة اللذيذة ويملأ المعدة بالشبع الدائم ويملأ الأمعاء بالغازات الكثيفة، خرجت أنا و(محمد) لنستغل الصباح في

استكمال استكشاف القاهرة الإسلامية. كانت هناك مئاتٌ من المساجد القديمة التي تعود إلى العصور الوسطى عندما كانت مصر تحت حكم الفاطميين ثم الأيوبيين والأغرب من ذلك المماليك. لم أكن أتخيل أن يستقدم أهل بلد عبيدًا من بلاد أخرى غريبة عنهم ليخدموهم ويحموهم، فيصبح العبيد هم حكام البلاد ويصبح أهل البلد هم -فعليًا- عبيد لدى الفئة الحاكمة لمئات السنين حتى لو جاء من هؤلاء المماليك أمراء صالحون. أشعر بالشفقة على أهل مصر، فعندما اقتربت من تاريخهم وآثارهم أدركت أن قدرهم كان دائمًا أن يخضعوا للاحتلال الأجنبي من كل أمم الأرض منذ بداية الخليقة، ومع ذلك لا يزالون يحتفظون بطيبتهم وأصالتهم وتفردهم. زرنا مسجد الظاهر بيبرس أحد أمراء المماليك الذي حارب الصليبيين والتتار وهزمهم. أترى نحن هم الصليبيون اليوم في مصر؟ وسيأتي يومٌ يُخرج المصريون البريطانيين وحلفائهم منها فيمجد المصريون قادتهم بالمساجد والأضرحة؟

عدنا إلى المنزل قبل صلاة الجمعة، فذهبت معهم إلى مسجد السيدة زينب كالعادة، وعند عودتي فوجئت أن الحاج (طه) سيقوم بذبح شاتين تحت مسمى «عقيقة» فرحًا وابتهاجًا بمولد حفيده الجديد الذي ولد منذ أيام. عندما سألتهم عن سر ذلك وهل هذا من عادات وتقاليد المصريين،

أجاب (محمد) بأن هذا من تمام الدين الإسلامي وهي سنة عن النبي (محمد) بالرغم من أنها كانت معروفة عند العرب في الجاهلية. هي شكر لله على المولود الجديد. بعد الذبح والتقطيع والتسوية فوجئت بهم يُخرجون جزءًا كبير منها إلى المساكين والمعوزين في ميدان السيدة زينب. أما هم فقد صنعوا مائدةً كبيرة من الأرز والخبز وصلصة الطماطم والثوم وعليها قطع اللحم متراصة، ودعوا إليها جميع من في حارتهم من جيران، حتى أنني فوجئت بقسيس قبطي مصري من أهل الحارة أتى وسلم وبارك واحتضن الحاج وأخذا يتلاطفان في جو من الود والسعادة فرحًا بقدوم المولود، ثم أخذ يتمتم بأدعية قبطية على رأس المولود ثم قبله وكأنه طفل قبطي مسيحي، ثم جلس بين أبناء الحارة ليأكل يده بيد الجميع وهو يلقي بالنكات هنا وهناك. ياله من جو أسري دافئ على عكس برودة الجو في معسكر (مينا) بالرغم من وجود الآلاف من أبناء جلدتي. لكن الدفء مصدره القلب دائمًا.

في هذا اليوم أحضرت معي كاميرا التصوير الفوتوغرافي من الصحفي المرافق للقوات الأسترالية، ولم أجد أفضل من هذه المناسبة لالتقاط صورة مع عائلة (محمد) أتذكرهم بها حين أرحل عن مصر. فاخترت أحد الشبان المتعلمين من أهل الحارة، وعلمته كيف يلتقط الصورة باستخدام الكاميرا، ووقفت أنا مرتديًا جلبابي المصري المريح وسط عائلة

(محمد) حتى نجح الشاب في التقاط الصورة.

عبّرت لـ(محمد) عن سعادتي باحتفال العقيقة، وبطقوس يوم الجمعة المعتادة منذ إفطار الصباح الباكر مرورًا بالصلاة في مسجد السيدة وحتى الغداء العائلي ثم القيلولة، فأخبرني (محمد) بأمر مولد سيدنا الحسين يوم الاثنين القادم، وقال لي إن كانت طقوس يوم الجمعة في السيدة زينب أعجبتني فمولد سيدنا الحسين سيبهرني. تحمست للفكرة حماسًا شديدًا حتى أنني قررت أن آخذ ذلك اليوم إجازة لأقضي أطول فترة ممكنة في مولد الحسين الاثنين القادم.

في نهاية اليوم وبينما كان (محمد) يتمشى معي ليودعني، فوجئنا بجلبة وزحام في أحد الميادين في وسط المدينة، فجذبنا فضولنا لنجد مجموعة من الجنود الأستراليين السكرانين، ولم أفاجأ إذ وجدت الشاب المشاغب (جوشوا) على رأسهم، وقد تطوع أحدهم بالشجار مع أحد الرجال المصريين بتحريض من (جوشوا) وأصدقاءه الساخرين اللاعنين للمصريين بأقذع الألفاظ التي أحرجتُ لسماعها أمام (محمد) . كان من الواضح أن الرجل هو فتوة أو حارس مقهى ما وجرى جدال بينه وبينهم وتواعدوا أن يتشاجروا خارج المقهى بالأيدي والأرجل لكمًا وركلًا. كان الأسترالي عاري الصدر وكان طويل الجسد بينما كان الرجل المصري

قصيرًا ذو جلباب لكنه كان مملوءًا بالشحم. أخذ الاثنان يتلاطمان قبل أن يقيد الجندي الأسترالي الرجل المصري بعد أن أنهكه لكمًا وطرحه على الأرض. أخذ (جوشوا) يصيح لزميله أن يخلع عن الرجل ثيابه إمعانًا في ذله وإعلانًا لهزيمته، فأخذ الجندي يخلع عليه جلبابه والرجل يقاوم بضعف، فقام زملاء الجندي الأسترالي بمساعدة زميلهم في خلع جلباب الرجل الذي استسلم في النهاية لتكاثرهم عليه، حتى نجحوا وصار الرجل بملابسه البيضاء بسروال قصير وقميص من القطن. أخذ الجنود الأستراليون بالضحك وكان (جوشوا) أكثرهم فُجرًا وهو يلوح بالجلباب كغنيمة بينما ظل الرجل المصري جالسًا على الأرض يلتقط أنفاسه. ثم رحلوا وانفض الجمع ورحل الرجل أيضًا يجر أذيال العار.

لا أدري لماذا ينتهي يوم جميل كهذا اليوم هذه النهاية المخزية. لقد كنت أتجنب النظر إلى صديقي (محمد) الذي يستضيفني في بيته كل يوم، وكأنني لا أجد من الكلمات ما أعتذر له بها عن تصرفات زملائي. هؤلاء هم قومي وزملائي في المعسكر ورفاقي في الحرب، وربما يموت أحدنا على صدر الآخر فتمتزج دمائنا، فأيهما أبقى وأرقى، أخوة الدم أم أخوة الروح؟! لم أدر ما أقول فودعته ورحلت إلى المعسكر.

«اعتمد الجنود الأستراليون على العروض الذكورية

المفرطة للترهيب والإكراه البدني. اعتبر العديد من الجنود أنه من مسؤوليتهم الخاصة إخضاع المصريين عن طريق العنف الخارج عن القانون إلى الخضوع الهادئ. قتال على ما يبدو غير ضار بين أحد أفراد الكتيبة الثانية في AIF ومصري محلي - فاز به الأسترالي - يبرر ذكره في تاريخ وحدة الكتيبة على وجه التحديد لأنه أثبت تفوق الرجولة الأسترالية»

***

مولد الحسين- الإثنين ١٥ فبراير ١٩١٥م. الحسين (يوميات واين وارين الأخرى)

ذهبنا اليوم إلى مولد سيدنا الحسين المعنى الحقيقي للكرنفال الديني. وعرفت أن المصريين يحتفلون بمولد السيد الحسين حفيد النبي (محمد) كل عام في نفس الوقت حول مقامه الذي يدفن فيه جسده أو جزء من جسده. أعجبني الرقص الصوفي على صوت الطبول والمزامير والإنشاد الديني بأصوات ذكورية أو أنثوية دافئة، بل أخبرني (محمد) أن نابليون بونابرت بنفسه كان يرقص مع الإنشاد الديني في نفس المكان. يا للعجب ما قصة نابليون بونابرت معي في مصر؟!

رأيت بعدها الألعاب المختلفة والأضواء الساطعة والألوان

الباهرة، وذقت الأطعمة اللذيذة والحلويات الغريبة التي لا تظهر إلا في تلك المناسبات، وشاهدنا الملاهي وصيوان السيرك الذي دخلناه واستمتعنا بعروض المخاطرات وحامل السكاكين والبهلوان. أخذني (محمد) إلى داخل المسجد حيث المقام وهو المكان المدفون فيه حفيد النبي (محمد)، فرأيت الكثير من الناس من مختلف الأعمار والأشكال من رجال ونساء وأطفال وهم يتمسحون بالسياج النحاسي المحيط بالمقام، ويدعون ويتمتمون ويتضرعون بأدعية مختلفة ومناجاة. سألت (محمد) :

-أليس من الخطأ أن يدخل شخص كافر مثلي هذه الحجرة المقدسة؟

ظهرت في عين (محمد) نظرة تعجب وعقد حاجبيه وقال:

- من قال أنك كافر يا (واين). أنت تتبع نبيًا نحن نؤمن به كما نؤمن بنبينا. كلانا يؤمن بالله الواحد على طريقته. نحن هنا كلنا سواسية وما في قلوبنا هو ما يتحكم فيما سنصير إليه وما مدى تقربنا إلى الله.

أعجبتني كلماته فسألته:

- ماذا يقولون؟ هل يطلبون حاجاتهم من الحسين؟

قال:

- بل يرجون شفاعته ووساطته لله، فالله هو القادر والحسين أحد أوليائه الصالحين.

سألته:

- هل إذا طلبت من الحسين شيئًا سينفذه لي؟

قال (محمد) :

- فقط إن كان قلبك طاهرًا ولسانك صادقًا ونيتك طيبة.

قلت:

- حسنًا ... أريد من الحسين أن...

قاطعني (محمد) بسبابته على شفته وقال:

- لا تطلب بلسانك ... أطلب بقلبك وأخلص النية.

فهمت ما كان يعنيه (محمد)، فالتفت إلى المقام ذو السياج النحاسي اللامع وفعلت مثل الناس فلمست السياج النحاسي بأطراف أصابعي، ثم أغمضت عيني واستحضرت صورة الإمام الحسين في ذهني، فظهر لي على شكل أبي -القس- بملامحه الطيبة لكن بملبس عربي قديم ووجه تشع الأضواء منه، فطلبت منه في قرارة نفسي أن أعود إلى وطني سالمًا معافيًا وأحتضن زوجتي وابني (كيث)، أما إن مت في الحرب فأرجو أن يتذكروني ويظلوا فخورين بي إلى الأبد.

***

الجمعة ١٩ فبراير ١٩١٥م- جانب (محمد) الآخر. السيدة زينب (يوميات واين وارين الأخرى)

كانت في كل يوم جمعة بعد الغداء من عادة المصريين أن يستريحوا أو يقيلوا بعض الوقت في منتصف النهار لتجديد نشاطهم لليل. بينما خلد جميع الرجال للراحة أخذني (محمد) وذهبنا إلى حجرته الخاصة في الدور الأرضي بجوار السلم، وأخذنا نتحاور حواراتنا الشيقة بدلًا من الخلود إلى الراحة. قلت:

- إن ما أراه كل يوم أزورك فيه يوم الجمعة وفي المولد وفي شوارعكم وبيوتكم، يناقض ما نسمعه في معسكرنا ليل نهار. إن التدين متغلغل في حياة المصريين بشكل كبير، والأصالة والعراقة تنضح في كل أفعالكم. ليست الصلاة وحسب، لقد كنت أراقبكم طوال الوقت وأنتم لا تفتئون تذكرون الله في كل حركاتكم وأفعالكم وأقوالكم وأناشيدكم. ونسائكم محتشمات مهذبات يجبرن الجميع على احترامهن. أنا حزين على ما نتداوله عنكم يا صديقي.

سأل (محمد) مستفسرًا ساخرًا:

-ونحن أيضًا نقول عنكم الثيران الأسترالية يا صديقي فلا

تصدق كل ما تسمعه عن جهل القائل. فماذا تقولون عنا؟

ضحكت ثم قلت:

- إننا نسمع الجنود والقادة يتكلمون عن المصريين فيصفون القاهرة بمدينة الخطيئة وقاع العالم. كلها بيوت بغاء مليئة بالعاهرات والقوادين وحانات الخمور وصالات الرقص الخليع والقمار واللصوص والمنتفعين الذين يبيعون أي شيء وكل شيء من أجل بقشيش.

قاطعني (محمد) ضاحكًا:

-وماذا أيضًا يا صديقي...!! أنت تصف جهنم ولا تصف القاهرة. إن القاهرة التي تتحدث عنها هي قاهرة البريطانيين. عاصمة ممسوخة شكّلوها لمحو هوية المصريين وكسر إرادتهم فيسهل قيادتهم وتحقيق أهدافهم وكذلك لراحة جنودهم وجنود حلفائهم. أما القاهرة وكل مدن وقرى مصر شمالًا وجنوبًا مليئة بالمصريين الحقيقيين الذين بذرتهم آلاف السنين من التاريخ الفرعوني والقبطي والإسلامي، فشكلت شخصية فريدة عنيدة صعبة الخنوع والخضوع بالقوة ويشهد التاريخ على ذلك. هل تريد أن تعلم أصل كل هذه الموبقات من تجارة البغاء والرقيق الأبيض الذي تتهمنا فيه؟

انتفضت من جلستي المستريحة وقلت مستنكرًا:

- ماذا رقيق أبيض؟ هل أنت مجنون يا (محمد) ؟ ألا يزال هناك تجارة رقيق أبيض في مصر؟

ابتسم (محمد) بثقة من سذاجتي، ثم أشار لي أن آتي فتبعته إلى حيث يشير إلى باب خشبي يغلق على فجوة كبيرة تكونت تحت درجات السلم الصاعد إلى الأدوار العليا، فتح (محمد) القفل بمفتاح كان يحتفظ به في جيبه ثم فتح الباب الخشبي فإذا بالفجوة تحت درجات السلم مثبت بها أرفف خشبية مرصوص عليها عشرات الكتب بانتظام. اندهشت من كمية الكتب وتنظيمها وأردت أن ألقي بتعليق أعبر به عن انبهاري بمحتويات المكتبة السرية، لكن (محمد) استوقفني قائلًا:

-سأريك الآن كنزي الثمين الذي لا يعرف مكانه سواي أنا فقط.

ثم مد يده إلى مجموعة من الكتب القديمة في أسفل مكان في مكتبته وأخرجها، فظننت أنه سيريني كتبًا نفيسة يخبئها إلا أنه وضع الكتب جانبًا ثم مد يده إلى فراغ خفي بحجم عقلة إصبع وجذب شيئًا ما فانكشف درجٌ كان مخفيًا في الحائط لا يتعرف عليه أي أحد بسهولة. واضح أن (محمد) يخفي شيئًا ثمينًا بداخله. فتح (محمد) الدرج وأخرج ملفًا جلديًا مليئًا بالأوراق عن آخره ووضعه على المنضدة أمامنا

وقال:

-هذا هو صندوق الأسرار يا عزيزي ... هذا ملف يحتوي على دلائل وأوراق تربط تجارة البغاء والرقيق الأبيض والمخدرات وبين كل من حلفائك الإنجليز وسلطانهم المدلل حسين كامل.

لم أحاول أن أفتح الملف وتبادلت النظر بين (محمد) وبين الملف الجلدي وقلت:

- ألهذا طردت من وظيفتك؟

هز (محمد) رأسه بعدم اكتراث ثم قال:

-هذا إلى جانب أشياء أخرى أكثر أهمية.

-مثل ماذا؟

صمت (محمد) وهو يتفرس في ملامحي لوهلة وتسائل:

- هل حقًا تريد أن تعلم يا صديقي؟ ربما يكون الأمر خطرًا عليك يا حليف البريطانيين.

أشحت بيدي ومططت شفتي قائلا:

-ما الذي يمكن أن يكون خطرًا عليّ يا (محمد) . أنا راحل عن بلدك خلال أسابيع إلى الحرب، وربما لن أعود إلى مصر مرةً أخرى. هيا يا رجل شاركني أسرارك كما شاركتك الطعام. ألا تقولون في مصر «عيش وملح»؟! ألا زلت لم تثق بي بعد.

ابتسم (محمد) من سلاسة منطقي وقوة حجتي. أعلم أنه يثق في، ويعلم أنني لا أزيد عن كوني مجرد جندي مثلي مثل آلاف من جنود الحلفاء، جاء في مهمة عمل محددة هدفها المال، ولست صاحب قضية استقلال أو حكم أو استعمار أو مستقبل وطن. كما أن ما يجمعني بـ(محمد) وما يهمني هو الجانب الإنساني والثقافي والحضاري، ولا أصول في نفسي ذات مرجعية عسكرية أو سياسية. لقد جئت للعمل مقابل المال وأستغل وجودي في مصر للسياحة والمتعة والتعلم. قال (محمد) مفسرًا:

- لقد تم إيقافي عن العمل لأنني عضو نشط في الحزب الوطني المناوئ للسرايا والاحتلال البريطاني، ومن أنصار عودة الخديوي عباس حلمي الثاني الذي خلعه حلفائك الإنجليز ونصّبوا مكانه السلطان حسين كامل. مكتب الخدمة السرية أو ما يسمى بالبوليس السياسي يترصدني ويراقبني وأمر بإقالتي من الجريدة، ويسعون لنفيي من البلاد كالسيد (محمد فريد) وكل أعداء السرايا مناهضي الاحتلال البريطاني للتخلص من بحثي عن الحقيقة والملف الذي أمامك جزء منها.

- وما هي تلك الحقيقة يا (محمد)؟

تنهد (محمد) وقال:

- فضيحة واحدة من فضائح السرايا العديدة قد تزلزل أركانها وتهدد العلاقات بين السرايا وبين البريطانيين، ومن يدري فربما يخلعون السلطان حسين كامل على إثرها مثلما عينوه منذ شهور.

شعرت بالدماء تسري في عروقي والفضول يقتلني إثارة فقلت:

- وما علاقة ذلك بالرقيق الأبيض؟

ابتسم مرة أخرى وهو يعيد الملف الجلدي إلى خزانة الأسرار، ويرجع كل شيء إلى سابق عهده ويغلق كوة الكتب تحت درجات السلم بالقفل، ثم جلس بجواري وربت على قدمي وهو يقول:

- لتفهم هذا لا بد أن تأتي معي يوم الجمعة القادمة في نزهة خارجة عن المألوف لزيارة عالم جديد.

ثم أعقبها بابتسامة خبيثة لم أفهم مغزاها.

***

الجمعة ٢٦ فبراير ١٩١٥م -الملك المخنث وسجينة (الوسعة). الأزبكية (يوميات واين وارين الأخرى)

مر اليوم سريعًا في بيت (محمد) حتى ما قبل غروب

الشمس، واستعددت للرحيل وقمت بتوديع الأسرة المصرية الكريمة وشكرتهم على حفاوتهم المعتادة وكرمهم الجم، ثم غادرت مع (محمد) إلى حيث وعدني المرة السابقة. اصطحبني إلى وسط القاهرة في شارع كلوت بيك فوجدت وجوهًا مألوفة من الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين يتحركون بنشاط بين بيوت البغاء وبين محال الخمور المنتشرة وهم ما بين سكير وواعٍ وثائر فسألت (محمد) :

- لماذا جئت بنا إلى هذا المكان يا (محمد)؟ هذا ليس عهدي بك يا صديقي.

قهقه (محمد) وهو يعدل طربوشه وقال:

- لتجد الأحجار الكريمة عليك أن تنقب في أسفل كهوف المناجم يا صديقي. الحقيقة تنبع من هنا وأنا كصحفي يبحث عن الحقيقة لا تهمني الوسائل.

بقيتُ مستغربًا فأخذني (محمد) إلى زقاق في حارة الوزير في حي (الوسعة)، بجوار فندق بورسعيد وجدنا مدخلًا على مبنى يبدو متواضعًا مكتوب على بابه مقهى (نزهة النفوس). كان يجلس على جانبي المدخل رجلان قويان لهما بنية عريضة وملامح غليظة وشوارب ضخمة وعيون جاحظة. واضح أنهما حراس المكان أو فتواته. سبقني (محمد) وحاول الدخول أولًا فاستوقفه أحد الفتوات بيديه وقال في غلظة

وقد فهمته من طريقته الفظة:

- رايح على فين يله؟

وقبل أن يرد (محمد) قام الفتوة الآخر بإفساح الطريق لي وقال للأول كلامًا جعله يسمح لكلينا بالعبور، فأفسح الحارس لي ولـ(محمد) وسمحا لنا بدخول المبنى وهو يرمقه بنظرة مهينة فسألته عن قصد الرجل فقال (محمد):

- يعتقد أننا أنا وأنت بيننا علاقة مثلية يا صديقي، فهذه هي تذكرتنا لدخول هذا العالم والضريبة التي ندفعها للبحث عن الحقيقة.

تدلى فكي وارتفع حاجباي اندهاشًا، ثم واصلنا الدخول إلى ممرٍ أفضى إلى سلم ضيق صعدناه إلى الطابق العلوي حتى وجدنا ستارة مخملية فتحناها ودخلنا فانبهرت واتسعت حدقتاي مما أراه. كانت صالة كبيرة واسعة بها العديد من الطاولات الخشبية المغطاة بالمخمل الأحمر، وعليها يجلس العديد من الرجال الأعيان المصريين المطربشين أو المعممين إلى جانب عدد كبير من الجنود الإنجليز والأستراليين والنيوزيلنديين، وقد توزعوا ما بين طاولات الصالة ومنضدة البار التي وقف خلفها النادل يوزع زجاجات الخمر وكؤوس الشراب المختلفة بهمة ونشاط. يبدو أن الليلة لا تزال في بدايتها، فلم يكن هناك العديد من فتيات الليل والمرافقات

على الطاولات كما أن الصالة ليست مكتظة عن آخرها بعد.

اتجهنا إلى إحدى الطاولات الخالية البعيدة عن المشهد الرئيسي وجلسنا فقلت وأنا أتلفت حولي:

- ماذا ننتظر هنا يا (محمد)؟ لو يعلم أهل قريتنا وجودي هنا لمنعوني من حضور القداس لا من تقديمه.

ابتسم (محمد) ثم قال:

- هنا سأريك قطعتين مهمتين من جسد الحقيقة التي سألتني عنها.

وقبل أن يكمل كلامه انطفأ نور الصالة المبهر ليحل محله نور خفيض، ثم صوت مقدم الفقرات الجهوري يتكلم بكلمات عربية مطعمة بالإنجليزية الركيكة، ويقدم أولى فقرات الليلة رقصة البطن الشهيرة. صفق الحاضرون بتثاقل قبل أن تبدأ موسيقى تخت شرقي تنبعث في الخلفية، ثم خرجت من خلف الستائر راقصة سمراء ذات جسد عريض بملابس خليعة تكشف عن خصرها. ثم أخذت ترقص وتتلوى وتنخفض وترتفع مع حركات يديها ورجليها على أنغام الموسيقى ونقرات الإيقاع. إلّا أنني كنت أشعر بشيء غريب في هذه الراقصة شيء غير مريح بالمرة. حركتها وليونة جذعها وانحناءات جسدها لا تبدو طبيعية بل لا تبدو أنثوية بالمرة

رغم احترافية الحركات الراقصة، فبدت مشاهدتها كأنك تأكل كعكًا محلى بالسمك المملح. دققت النظر في وجه الراقصة حينما اقتربت ناحيتنا فتأكدت أن تلك الملامح ليست أنثوية بالمرة، فهي لوجه رجل زنجي الملامح أفطس الأنف مكتظ الشفتين قصير القامة يرتدي أثقالًا من الأساور والسلاسل الذهبية حول عنقه تكفي لزمرة من النسوة. لم أصدق ما تراه عيني، وأظهرت الدهشة ممزوجة بالشعور بالغثيان وكدت أصيح بما أشعر حتى أحس بي (محمد) فأمسك ذراعي وهو يهمس في أذني كاتمًا ضحكته:

- تمالك نفسك يا صديقي وسأخبرك بكل شيء. فقط أخفِ مشاعرك ولا تخرج ما في جوفك امتعاضًا حتى تنتهي هذه الرقصة.

نظرت إليه مندهشًا لما يقول فهدأتني هزة رأس منه لوهلة، وظللت أجبر نفسي أن أراقب الرقصة المقززة حتى انتهت. لم أصدق نفسي أكثر عندما انطلق التصفيق من كل من في الصالة بدون أي إبطاء أو مجاملة. فنظرت إلى (محمد) متسائلًا:

- ما هذا المسخ يا (محمد) ؟ وما علاقة ذلك بحكاياتك.

اعتدل (محمد) على كرسيه وهو يعد نفسه ليحكي حكاية طويلة لإرضاء فضولي:

- القصة المعلنة لهذا المسخ الذي رأيته أنه شهبندر تجار تجارة البغاء والخمور والعالم السفلي وربما من أثرى من عمل بهذه التجارة. يلقبونه بالملك المخنث كما هو واضح لك.

وقبل أن يكمل خرج ذلك المسخ وهو يلبس ملبسًا أنثويًا خليعًا مليئًا بالترتر والقطع الذهبية المتدلية والتي تصدر أصواتًا مع احتكاكها ببعضها البعض أثناء حركته، ويضع مساحيق تجميل على وجهه بطريقة لاذعة لا ذوق فيها، ولا تزال أرطال الأساور والأقراط والسلاسل والخلاخيل الذهبية تزين جيده ويديه ورجله بشكل مبالغ فيه. لم يكن يسير وحده بل كان يتبعه اثنان من الفتوات مفتولي العضلات في زي أسود موحد تملأه السلاسل المعدنية وأسنانهم تلمع من قطع الذهب المركبة في فكوكهم. تبعتهم أنا و(محمد) بعيوننا حتى جلس ذلك المخنث القرفصاء على طريقة النساء عادة، جلس على كرسي عظيم المظهر مبطن بجلد الغزال ومسنده من فراء الأسود مظهِرًا أبهة الملوك ورقي الأمراء وغرور النبلاء وهو يرمق جميع من بالصالة بأطراف عينيه، ساندًا ذراعيه على مسندي الكرسي العاجي بينما وقف الحارسان على جانبيه ينتظران أوامره. أتى أحد الرجال المصريين الأعيان واقترب منه ثم انحنى وطبع قبلة على ظهر كفه الأيمن بخضوع العبيد ورغبة المريدين وشوق الصوفيين، ثم

مال على أذنه يهمس فيها بكلام بمنتهى الأدب والخضوع.

ازدادت دهشتي وفضولي وأنا أرى ما أرى، فسألت كالمسحور دون أن أنزل عيني من على ذلك الرجل أو المرأة أو أيًا ما كان:

- وما هي القصة الحقيقية يا (محمد)؟

فقال (محمد) وهو لا يزال يهمس في أذني خوفًا أن يسمعه أحد:

- القصة الحقيقية يا صديقي أن هذا الرجل الملك المخنث واسمه (إبراهيم الغربي). ربما يكون من أخطر رجال العالم وليس في بر مصر فقط إن لم يكن أخطرهم. هذا الرجل أسس التجارة الشرعية للبغاء في القاهرة، ولديه الآن أكثر من خمسة وعشرين بيتًا للدعارة وأكثر من خمس صالات للرقص الخلاعي والأخطر من كل هذا تجارتي المخدرات والرقيق الأبيض.

التفت إليه متسائلًا في استنكار فأكمل (محمد) مسترسلًا :

- عندما كان شابًا صغيرًا كان والده تاجر رقيق في أسوان عندما كانت تجارة الرقيق شرعية، حيث كانوا يجلبون العبيد من السودان والحبشة ليبيعوهم في كورسكو في أسوان في صعيد مصر، أما بعد تجريم تجارة الرقيق اختلف (إبراهيم)

مع والده عند شعوره بالعار بعد أن عرف بأمر ميوله الجنسية، فهرب (إبراهيم) إلى القاهرة بعد فترة وجيزة قضاها في قنا في خدمة البريطانيين هناك، ثم أسس تجارة البغاء الشرعية في القاهرة خطوة بخطوة بمساندة الإنجليز الذين قننوا التجارة وسنّوا القوانين وأصدروا التصاريح والشهادات الطبية. أما تجارتي المخدرات والرقيق الأبيض فيديرها بسرية وحرفية تحت أعين السرايا والبريطانيين الذين يعلمون بأمرها ويستفيدون منها ويغضون الطرف عنها حتى كبرت أعماله وصارت مؤسسة إجرامية دولية.

- ماذا؟ دولية!!!

- نعم يا صديقي. فبالنسبة للمخدرات له في كل دول العالم المصدرة لها رجاله ووسطاءه الذين يعقدون الصفقات ويقومون بعمليات التهريب. أما الرقيق فقد كان الأمر يقتصر في البداية على النساء المصريات، ثم توسع بعلاقاته لجلب النساء من الجنوب في الحبشة وأفريقيا لإرضاء المزيد من الأذواق مستغلًا علاقات والده السابقة وشبكته من العملاء. أخذت تجارة العبيد تتوسع رويدًا رويدًا بالتوازي مع تجارة البغاء ومصادر المخدرات حتى أصبح لديه عشرات البيوت ومئات العاملين والفتوات والقوادين والعاهرات تحت إمرته. لم يكتف بكل هذا فتوغلت يده لاستقدام الرقيق الأبيض من

آسيا الصغرى والهند والشراكسة والأوكران واليونان والطليان والفرنسيين. أصبح لدى (إبراهيم الغربي) مؤسسة إجرامية لتجارة الرقيق الأبيض تمتد في كل جزء من العالم بعملاء ومكاتب وعلاقات، وتصب كلها في الموانئ المصرية حيث الجمارك المصرية محكومة بواسطة رجاله وعملاءه فيسهلون عبور العبيد ويزورون الأوراق اللازمة.

- وأين الحكمدارية البريطانية من ذلك؟

- أخذ (إبراهيم الغربي) يكبر ويتوحش، وحتى يضمن استقرار تجاراته استطاع أن يرشو أوصال الإدارة البريطانية في مصر رويدًا رويدًا حتى أصبح تقريبًا كل مأموري أقسام القاهرة يقبضون رواتب شهرية منه ليغضوا الطرف عن تجاوزاته الإجرامية والجنائية. بل إن إدارة حماية الآداب كلها في جيبه، فهو يستصدر رخص بيوت البغاء والشهادات الصحية للعاهرات بأسهل الطرق ودون كشف طبي. أصبح الملك المخنث دولة فوق الدولة، وأصبحت لديه محكمته الخاصة التي يقضي فيها بأحكامه بين القوادين والعاهرات. بل لديه سجنه الخاص الذي يعاقب فيه مخالفي قوانينه وقد يصل العقاب فيه إلى حد الموت جوعًا. كل شيء يتم تحت سمع وبصر الإدارة البريطانية التي لا تريد التدخل طالما المشاكل بعيدة عنها. فـ(إبراهيم الغربي) بالنسبة إليهم فرصة

للاستثمار وليس مشكلة للمقاومة. وهو يعدهم بتقديم أفضل الخدمات لرجال الحلفاء من خمور سليمة وعاهرات صحيحات البدن خاليات من الأمراض من أجل إقامة مريحة بعيدًا عن المشاكل.

انبهرت مما أسمع فقلت مبهوتًا:

- يبدو هذا عالمًا مخيفًا يا (محمد) . ويبدو أنه أكبر وأخطر من أن تقاومه أو تحاربه بمفردك، لكن ألهذا أنت مطاردٌ وموقوف؟

ابتسم (محمد) ثم قال:

- هنا لا بد لك أن تسمع الجزء الثاني من الحقيقة.

وكأن مقدم الفقرات قد سمعه ولبى أمره، فانطفأت الأنوار مرة أخرى وانطلق الرجل يعلن عن رقصة الكانكان المصرية التي ينتظرها الجميع وتقدمها مجموعة من الفتيات ذوات الأجساد الرائعة من كل مكان في العالم. ازداد صفير الجنود وتصفيقهم وعلت أصواتهم وقد أتى ما ينتظرونه منذ البداية بفارغ الصبر قبل أن تنطلق الموسيقى الشرقية في الخلفية، وبدأت الستائر الخلفية تهتز وتخرج منها راقصات واحدة تلو الأخرى يمشين بدلع وخفة على أنغام الموسيقى ناحية منتصف الصالة تتبعهن الأنوار حيثما ذهبن. كن فتيات

مختلفات الأحجام عاريات الصدور والجزوع إلا من بعض السلاسل الذهبية التي تتهادى على نهودهن العارية فتهتز باهتزازها يمينًا ويسارًا، وهن يبالغن في حركاتهن لإبراز تلك المفاتن بشتى الطرق. وكل واحدة منهن عليها تاج يلمع من الذهب والأحجار الكريمة وكأنهن ملكات، أما على أوساطهن فيربطن قطعًا من الساتان الشفاف مختلف الألوان تغطي -فرضًا- أردافهن وفروجهن وإن لم تكن تستر أيًا منها. كانت الراقصات من مختلف الأجناس فمنهن المصرية والحبشية والشركسية واليونانية والأوروبية لإرضاء كل الأذواق. بعد أن رقصن كمجموعة واحدة في المنتصف انطلقت كل واحدة منهن في اتجاه مختلف في الصالة تقترب من جمع من الرجال أو الجنود حيث ترقص أمامهم مباشرة، مما يتيح للرجال كجزء من الاستعراض بتلمس وتحسس أي جزء من جسدها أيًا كان ما يبتغون وبأي طريقة يرغبون، وعليها أن تبتسم مجاملة وتضحك فرحًا وغنجًا وتتقبل ذلك بصدر رحب -حرفيًا- بل إنها تتعمد الصاق جسدها بأحدهم إذا لم تجد منه تجاوبًا.

وكان حظنا أنا و(محمد) فتاة أوروبية. اقتربت تلك الراقصة الأوروبية ضئيلة الجسد وهي تهز جزعها وصدرها العاري، وتوقفت ناحيتي أنا و(محمد) مباشرة ترقص كالمسحورة بلا روح بل إنها كانت تنظر إلى (محمد) بعين

زائغة وكأنها مخدرة العقل مسلوبة الإرادة مكسورة الفؤاد، لكن بالرغم مما يبدو على عينيها من زيغ وشرود كان يبدو من نظراتها إليه أنها تعرفه تمام المعرفة.

نظرتُ إلى (محمد) فوجدته هو الآخر ينظر إلى الفتاة بعين عاشق عطوف وليس بعين ذئب مهتاج كما يقتضي الموقف، وعيناه لم تصعدا إلى صدرها العاري أو تنزلا إلى أردافها البضة بل ظلت معلقة على وجهها وعينيها في مناجاة بريئة. مضت دقائق على هذا الوضع قبل أن ترجع الراقصات إلى منتصف الصالة وتتوقف الموسيقى مع نهاية الاستعراض، ثم يختفين مرة أخرى خلف الستائر مخلفين ورائهم الكثير من التصفيق الذكوري والصافرات الشبقة والضحكات الماجنة والتعليقات السخيفة ومزيد من السكر يغشي عقول الجنود ويسيل الزبد من أفواههم.

كأن (محمد) كان في عالمٍ آخر غير ذلك العالم الماجن، أفاق بعد نهاية الاستعراض على صوتي يوقظه وينبهه حتى استعاد تركيزه وتنهد تنهيدة حزينة ثم قال:

- تلك هي القسم الآخر من الحقيقة.

- من؟ الراقصة؟

ثم بدأ (محمد) يحكي لي عن السر الذي يحتفظ به وحده

ويملأ ذلك الملف الجلدي السري في منزله بالعديد من التفاصيل والأوراق التي تثبته. أخبرني أنه كان يتتبع عمليات (إبراهيم الغربي) القذرة في تهريب الرقيق الأبيض، فساقته الصدفة إلى وقوع معلومات مهمة عن هذا الشأن في يديه. وحكى الحكاية الغريبة من أولها عندما جاءه عم (رمضان) جارهم بالسيدة زينب وهو يعمل سقا في منطقة الأزبكية. كان عم (رمضان) يزود البيوت في هذه المنطقة بمياه الشرب، وأثناء خروجه من أحد البيوت بحارة الوزير، وقعت على رأسه ورقة من إحدى نوافذ الدور العلوي بالبيت. فتح الورقة ووجد مكتوبًا فيها بخط اليد كلماتٍ بالإنجليزية لم يفهم منها شيئًا وهو يجهل القراءة والكتابة بالأساس، وعند عودته إلى بيته صادف (محمد) في الطريق فأخبره بأمر الورقة وأعطاه إياها. أما (محمد) ففتح الورقة ووجد فيها (أنقذوني أنا فتاة بريطانية مسجونة في هذا البيت لدى الملك المخنث). جذبت الرسالة انتباه (محمد) وهو يوقن أشد اليقين أن الملك المخنث هو لقب (إبراهيم الغربي) الشهير يعرفه القاصي والداني. كما يعرف أن لـ(إبراهيم الغربي) بيوت سرية يسجن فيها المعاقبين والمذنبين من القوادين والعاهرات المارقين.

اهتم (محمد خليل) بالأمر وجذبته حاسته الصحفية للبحث فيه وسأل عم (رمضان) عن البيت الذي سقطت الرسالة عليه

منه، فوصفه له عم (رمضان)، لكن (محمد) طلب منه معروفًا آخر وهو أن يعطيه زي عمله وأدواته لغرض في نفسه. ولما كان عم (رمضان) عشرة عمر لم يسأل (محمد) عن سبب ذلك وأعطاه زيًا إضافيًا لديه من الجلد وقربة ماء من جلد الماعز.

لبس (محمد) زي السقا وملأ القربة بالماء وذهب إلى البيت الذي وصفه عم (رمضان) في وقت الظهيرة حيث يكون أغلب الناس في البيوت نائمين وقت القيلولة اتقاءً للحر فتكون أفضل فرصة للتسلل والتنصت. طرق الباب فأطل رجل عريض غليظ الملامح بجلبابه الرمادي وسأله بغلاظة عما يريد فقد كان واضحًا أن (محمد) قد قطع عليه قيلولته، فأخبره (محمد) أنه جاء لتزويد البيت بالماء بدلًا من عم (رمضان) المريض. أشار له الرجل بالدخول دون أن يعبأ بأمره وذهب إلى كنبة في ساحة المنزل السفلية ورمى جسده ليكمل نومه. اطمئن (محمد) لعودة الرجل إلى النوم وقرر أن يكمل المغامرة، وبدلًا من التوجه إلى البهو الداخلي للمنزل حيث يكون الزير والقلل، توجه بخفة عبر درجات السلم إلى الدور العلوي فوجد به ثمانية أبواب خشبية موصدة لا يستطيع أن يرى ما خلفها لغرف موزعة بالتساوي على الجانبين. فكر قليلًا قبل أن يدرك ما سيفعله. أخذ يطرق كل باب بهدوء ثم يهمس عبر الباب بالإنجليزية:

- هل أنتِ الفتاة البريطانية؟ لقد جئت لإنقاذك. أرجوكِ ردي هل أنت الفتاة البريطانية؟

كان يعلم أن بيتًا لا يسكنه إلا عاهرات وقوادين وفتوات، لن يفهم فيه أحد الإنجليزية إلا لو كانت لغته الأم. لم تفلح الحيلة مع الأربع غرف الأولى فلم يرد أحد في أول غرفتين، بينما ردت في الثالثة سيدة مصرية بشتيمة غير مهذبة سبقتها بصوت من حلقها، بينما سمع في الرابعة صوت فتاة هامسة بلغة أوروبية شرقية لم يفهم منها شيئًا. كاد يفقد الأمل قبل الغرفة الخامسة حينما سمع عبر الباب الموصد الرد الذي ينتظره بصوت رقيق متردد بالإنجليزية:

- هل تبحث عن الفتاة البريطانية. أنا الفتاة البريطانية.

تنفس الصعداء وبدأ بالكلام مع الفتاة بصوت هامس:

- لقد جئت لأنقذك فلا تخافي مني. من أنتِ؟ هل أنت سجينة؟ من أتى بك إلى هنا؟

بدأت تأتي أصوات الفتاة ضعيفة هامسة من خلف الباب وهي تقول:

- أنا (أنجيلا دراور) من مانشيستر ببريطانيا. أنا سجينة لدى الملك المخنث بعد أن انتهت خدمتي لدى أحد الأسياد. أعتقد أنهم سيتخلصون مني في أقرب وقت. أرجوك

ساعدني أخبر البريطانيين عني أو ابعث برسالة إلى أهلي في إدينفيلد بمانشيستر.

- لا تخافي سأنقذك من هنا.. أنا اسمي (محمد خليل) و ...

وقبل أن يكمل سمع صوت طرقات على الباب السفلي فنزل سريعًا عبر الدرج ومثّل أنه انتهى من ملئ حاجيات المنزل وسيأتي في اليوم التالي في نفس الوقت. لم يعبأ به الحارس القبيح ولم يرد عليه وهو يرحب بأحد الزائرين له.

وبعد عودته لمنزله شعر (محمد) بحسه الصحفي بمدى أهمية قضية الفتاة البريطانية السجينة (أنجيلا). الإدارة البريطانية لن تغض الطرف عن تجارة الرقيق الأبيض إذا وقعت فتاة بريطانية ضحية لها وهي سابقة لم تحدث من قبل. حتى في خدمة البيوت والعائلات الراقية لم يكن من السهل للبريطانيين في مصر أن يمتهنونها. العِرق الإنجليزي المتعجرف يأبى أن يسمح لهم بذلك، ولا يوجد حتى تصريح قانوني للبريطانيات بممارسة البغاء في (وش البركة) معقل العاهرات الأوروبيات بالأزبكية.

قرر (محمد) أن ينبش الموضوع بشكلٍ أكثر عمقًا كنابش قبور الفراعنة الباحث عن الكنوز. في اليوم الثاني ذهب بنفس الطريقة التي نجحت في اليوم السابق، فنجح في دخول المنزل وصعد درجات السلم ثم أتى باب الغرفة

الخامسة وأخذ ينادي على (أنجيلا) هامسًا باللغة الإنجليزية، حتى ردت عليه وشكرت الرب أنه عاد مرة أخرى. أخبرها (محمد) أنه يحتاج المزيد من المعلومات حتى يستطيع مساعدتها. كل هذا من خلف الباب الموصد وفي ظروف غير مناسبة للحكي والسرد والحوار. ذهب (محمد) أكثر من مرة حتى يستطيع أن يلم بقصة (أنجيلا). حتى بدأ الحارس يشك فيه ويراقبه فتوقف مضطرًا عن زيارتها حتى ظهرت في حانة (نزهة النفوس).

توقف (محمد) عن الحكي لثوانٍ يسترجع فيها الأحداث قبل أن يقول مكملًا:

- عرفت منها أنها فتاة في العشرينات من عمرها من أسرة فقيرة بإدينفيلد إحدى قرى مانشيستر ببريطانيا العظمى. لم تكن ذات مال أو علم أو موهبة أو حتى جمال يستطيع أن يساعدها أو يمهد لها الطريق للحصول على عمل ما في لندن حيث النبلاء والأثرياء ورجال الأعمال. في أحد الأيام أتى إلى القرية رجل انجليزي من لندن يبحث عن فتيات للعمل في الخدمة المنزلية لأحد الأعيان هناك. كانت فرصة ذهبية لأنجيلا فقدمت نفسها للعمل، وكانت تعتقد أن فرصتها ضعيفة للحصول على العمل لأنها تقريبًا عديمة المواهب والكفاءة فليس لديها مهارات في الطبخ أو لغات أجنبية

أخرى وبالكاد تعرف القراءة والكتابة. لكن الغريب أن من بين كل المتقدمات إلى الوظيفة من ذوات المهارات المتنوعة في إدارة وخدمة المنازل تم اختيارها هي، وكأن متطلبات الوظيفة كانت أن تكون عديمة الكفاءة والمؤهلات. ودّعت (أنجيلا) أهلها وذهبت إلى لندن لتخدم في أحد البيوت فترةً وجيزة قبل أن يخبروها أنهم سيرحلون إلى القاهرة في رحلة عمل وينبغي عليها أن تصحبهم مقابل مزيد من الأجرة فوافقت على الفور. عندما وصلت إلى القاهرة أخبروها أنها ستنتقل للعمل لدى أحد الباشوات الكبار في مصر حيث المال الوفير وحياة الرغد والسعة. ودون أن ينتظروا رأيها فوجئت لتجد نفسها سجينة في أحد قصور القاهرة في غرفة سفلية موصدة لا يدخل عليها إلا خادم زنجي واحد ليزودها بالطعام. حاولت أن تسأل عن سبب حبسها فلم يرد أحد وتركوها بين جدران الغرفة حائرة خائفة. حتى كانت إحدى الليالي دخل عليها رجل كهل كبير الشأن واعتدى عليها بمساعدة الخادم الزنجي.

ثم تركها في محبسها مصدومة لا تعلم شيئًا. بالرغم من صدمتها وخوفها ظنت أنها كانت مرة عابرة من رجل في أزمة منتصف عمره لكن تكرر الأمر تقريبًا كل ليلة. يدخل عليها الرجل بعباءته الحريرية الفاخرة وخلفه خادمه الزنجي ليقيدها ثم يعتدي عليها الرجل بكل ما أوتي من قوة حتى

يقضي وطره فيها ثم يتناول شطيرة من اللحم المحمر على الزبد ثم يرحلان ليتركاها وحيدة مرة أخرى بعد أن يترك لها الخادم طستًا به ماء ساخن وملابس نظيفة حتى تستحم. ولأنها كانت تقاوم الاعتداء أصبحوا يضعون لها مخدرًا في شرابها لتكون سهلة لينة في يد الرجل حتى أصبح يدخل عليها بمفرده بعد أن اطمئن لذلك. ثم تفنن الرجل الكهل في اغتصاب الفتاة البريئة ومضاجعتها فصار يصول ويجول فوق جسدها بشراهة وشذوذ وسادية بما لا يمكن أن يفعله مع سيدة محترمة أو فتاة من بنات العائلات، والفتاة لا حولا لها ولا قوة تستسلم لمصيرها اليومي وعذابها الذي لا ينتهي وآلام جسدها التي لا يهتم بها الرجل بأساليبه الشيطانية السادية للاستمتاع.

توقف (محمد) عن الحديث وهو يبتلع لعابه من الأسى لحال الفتاة. فرققت لحاله قبل أن يكمل قائلًا:

- عام كامل قضته الفتاة المسكينة في بيت ذلك الكهل أحد رجال السرايا الكبار، جارية جنسية في أخس أشكال الرقيق الأبيض. وبعد أن سأم منها الرجل أصبح يتركها للخدم والمساعدين والأصدقاء كأنه يهدي منديله للآخرين ليمسحوا مخاطهم به.

- وماذا بعد يا (محمد) ؟

- حدث ما لم يكن في الحسبان. مع نشوب الحرب العالمية خلع البريطانيون الخديوي عباس حلمي الثاني أثناء سفره خارج مصر، وقد كان الخديوي الذي أحبه الشعب طوال اثنين وعشرين سنة، وولوا مكانه السلطان حسين كامل. ويبدو أن ذلك الكهل المختل عضو في أسرة السلطان المنصّب حسين كامل أو على الأقل في دائرته المقربة، فأمر بالتخلص من الفتاة على الفور لتجنب معرفة الفضيحة بشكل أو بآخر مما قد يضر بعلاقة البريطانيين بسلطانهم المدلل.

وهنا أُرجِعت الفتاة إلى (إبراهيم الغربي) الذي جلبها من إنجلترا بعلاقاته ورجاله وأهداها لذلك الرجل هدية مجانية لنيل الرضا السامي ولمزيد من الصلاحيات والتسهيلات في تجاراته الثلاث البغاء والمخدرات والرقيق الأبيض.

كانت الأوامر أن يتخلص من الفتاة تمامًا لتُمحى القضية من الأساس. فقام بحبسها في سجنه الخاص وقام بدس مخدر جديد في السوق المصري لها في جرعات منتظمة. كان المخدر أقوى من الحشيش والأفيون المنتشر في شوارع القاهرة آلاف المرات، فكان يضعها دائمًا في حالة من الشرود والتشتت والنسيان والهدف من ذلك أن يمحوا كل ذاكرتها وينسيها من كانت ومن تعرف وماذا تعرف. أثناء ذلك استطعت أنا أن أصل إليها في سجنها كما وصفت واستطعت

خلال محادثاتي معها أن أستجمع تلك المعلومات. ويبدو أنهم لم يعودوا يخشون مما تعرفه بعد أن أدمنت المخدر، فأنزلها (إبراهيم الغربي) للعمل في صالة الرقص الخليع كما رأيت، وأسكنها في بيت الراقصات تحت حراسة مشددة. أما أنا فكان أقصى ما استطعت أن أفعله أن سارعت بكتابة برقية إلى عائلة (دراور) في إيدنفيلد مانشيستر بدون كتابة بياناتي، أخبرهم فيها أن ينقذوا ابنتهم من بيوت البغاء في القاهرة. ومنذ ذلك الحين وأنا أفتش وأبحث وأحقق وأحصل على الوثائق والمعلومات وأتتبع الخيوط لمعرفة كل جوانب الحقيقة.

- مسكينة (أنجيلا). وهل عرفت من هو ذلك الرجل المختل؟

- هذا ما أحاول معرفته يا صديقي. هناك سياج حديدي حول القضية يمنعني من الوصول إلى الحقيقة. هناك قوى خفية تحاول أن تعيقني عن كشف هذا الغموض. كل ما أعرفه أنه شخصية كبيرة من رجال السلطان حسين كامل، لو عُرف اسمه وكشفت الفضيحة ربما يحدث الشقاق بين السرايا وبين الإنجليز. ومن جهة أخرى لا أخفيك سرًا يا (واين) إنني أشعر بالشفقة على هذه الفتاة المسكينة. مهما كان وطنها، فقد بيعت كجارية دون إرادتها وتم استغلالها جنسيًا من شخص

مريض ويتم قتلها ببطء بين صالات التعري والغرف الحمراء وجرعات المخدرات. كل هذا ليتم محو اسمها من سجلات الأحياء لمجرد أنها كانت لعبة في أيدي أحد رجال السرايا. أي ظلم في هذا العالم!

سكتت وأنا أحاول أن أتماسك أمام هذه القصة الحزينة فجذبت يد (محمد) لنرحل عن هذا المكان الموبوء. خرجنا وتنسمنا هواءً نظيفًا بعيدًا عن دخان السجائر والحشيش ورائحة الخمور وعاد كل واحد إلى مسكنه بعد أن أكد (محمد) عليّ أن أحتفظ بالسر لتجنب التعرض للخطر.

***

الجمعة ٥ مارس ١٩١٥م. سر (أنجيلا). السيدة زينب (يوميات واين وارين الأخرى)

كنت متحمسًا لمعرفة المزيد عن حكاية (أنجيلا)، ثم تذكرت أن هذه الحكاية ليست ملهاة للتسلية لكنها مأساة إنسانة تعيش بالفعل حياة بائسة، فألجمت حماسي اليوم. وعندما أتيت منزل (محمد) هذا الصباح وجدته على غير حالته التي تعودته عليها. لقد كان صامتًا شاردًا حزينًا وكأن شيئًا ما قد حدث مؤخرًا له. سألته:

-ما بك يا (محمد)؟ أنت اليوم صامت على غير العادة. هل

حدث شيء ما؟

تنهد تنهيدةً حارة وأخذني إلى غرفته ثم أغلق الباب وجلسنا سويًا فقال بصوت مبحوح:

-لم أخبرك أنني أستطيع مقابلة (أنجيلا) من وقت لآخر في بيت الراقصات.

شهقت متعجبًا وسألت:

-كيف ذلك؟ لقد وصفت لي سجنًا وسجانين وحراسًا وقيود حيث تمكث!

أراد أن يبتسم لكن همًّا ما منعه فقال:

-مهنة الصحافة يا صديقي. المهم أنني قابلتها منذ يومين وعرفت عنها ما يفطر قلبي. فمأساة الفتاة أكبر وأفجع مما نتخيل.

-احكِ لي يا صديقي ربما أستطيع مساعدتك؟

فأخذ يحكي لي أولًا كيف استطاع أن يجد طريقة لمقابلتها. فبعد أن استقرت (أنجيلا) في بيت الراقصات الخلاعيات حيث لا يدخل ولا يخرج عليهن إلا حارس البيت الوحيد القادر على دخول البيت في أي وقت بل يدخل غرف الفتيات بدون استئذان حتى وإن كن عاريات وأكثر من ذلك لو تطلب

الأمر، وذلك حتى يتأكد من استتباب الأمن ومتابعة حال الفتيات ويزودهن بالأغذية من الخضار والفاكهة واللحوم حيث تعمل خادمتين في البيت لخدمتهن في المأكل والمشرب ونظافة البيت. أما الراقصات فواجبهن أن يسترحن ما يتبقى من الليل وجزءًا من النهار ثم يقضين بقية النهار في نظافتهن الشخصية وتجميل بعضهن البعض من حف ونتف وتمشيط وتحميم وتفصيل ملابس الرقص والتدريب على فقرات الرقص تحت إشراف أقدمهن في البيت «الألفة».

كان روتينًا يوميًا تزامن مع جرعة المخدر اليومية التي توضع لـ(أنجيلا) في طعامها وشرابها لتجعلها طيّعة خاضعة في بيت الراقصات فتتبعهن فيما يشرعن في عمله بلا جدال. دائمًا ما تكون فترة قبل الظهيرة هي فترة الحيوية والنشاط والإفاقة الوحيدة بالنسبة لـ(أنجيلا)، فمع استعادتها نشاطها بعد الاستيقاظ يكون تأثير المخدر في أدنى مستوى له بعد مرور ساعات الليل الطويلة على آخر جرعة في طعام العشاء وتبقّي ساعة أو أقل على تناول الغداء المطعّم بالمخدر، وبالتالي تكون تلك الفترة بالنسبة لأنجيلا فترة إفاقة وانتباه وتأمّل في حالها واسترجاع لذكرياتها.

على جانب آخر تعودت الفتيات كل أسبوع على زيارة الدلّالات كل يوم أربعاء في الضحى، فيحضرن صررهن

المليئة بالأقمشة والملابس وقطع الزينة المختلفة للشعر والخصر والخلاخيل والحلقان والأساور وما شابه. كن حين يأتين يحدث هرج ومرج في الصالة الكبيرة حيث يتسابقن الفتيات في الوصول إلى دلالتهن المفضلة، فيتمايزن في مجموعات على كل دلالة لما يعرفنه عن كل واحدة منهن وتخصصها، فهناك دلالة القماش وهناك دلالة الزينة وهناك دلالة قطع الملابس الشخصية وهكذا. استطاع (محمد) ذلك الصحفي العفريت أن يتعرف على إحدى الدلالات ويبرم معها اتفاقًا ينص على أن يتنكر على هيئة (اللّبيسة) وهي إحدى مساعدات الدلالة التي تحمل صرر البضائع وتساعد الفتيات في تجربة الملابس، وبالرغم من صعوبة الأمر إلا أنه قدم لها عرضًا لا يرفض فوافقت، وفعلا تخفى (محمد) بملبس لّبيسة وغطى وجهه بالبرقع والملائة اللف ودخل مع فوج الدلالات ومساعداتهن في أحد أيام الأربعاء، وبدأ الهرج والمرج كالعادة وتسابقت الفتيات على فرز كل صرة لدى كل دلالة بحثًا عن شيء قيّم تختطفه وتشتريه قبل زميلاتها. بينما كانت (أنجيلا) تنظر بفضول من بعيد بين أجساد الفتيات على إحدى الصرر، وإذا بيد (محمد) تجذبها في رفق بعيدًا عن زحام الفتيات وإذا بصوته الذي تعرفه جيدًا يأتي من خلف البرقع الذي يخفي وجهه هامسًا:

-أنا (محمد خليل).. أدخلينا وحدنا إحدى الغرف بسرعة.

أفاقت من ذهولها وأدركت (محمد) من صوته. الصوت الوحيد الذي تعرفه يتحدث الإنجليزية بطلاقة بلهجة مصرية. الصوت الوحيد الذي كان يؤنس وحدتها في سجنها الطويل بنبرات مشفقة. الصوت الوحيد الذي كان يعدها بالحرية والخلاص. على الفور تلفتت حولها لتتأكد أن أحدًا لا يراها، ثم أخذت (محمد) المتنكر في زي اللبيسة إلى حجرتها وأغلقت الباب ورائهما. رفع (محمد) البرقع من على وجهه والملاءة اللف من على رأسه حتى تراه (أنجيلا) التي وقفت تتفحصه بفضول فقال:

-أعتذر إن كنت جئت إليكِ على هذه الهيئة، فتلك هي الوسيلة الوحيدة التي أستطيع من خلالها دخول هذا البيت. يمكن دخول معسكر بريطاني أسهل مما يمكن أن تفعل في بيت للغربي. ولولا معرفتي الوثيقة بإحدى هؤلاء الدلالات ما استطعت ذلك.

كانت أول مرة ترى فيها وجهه. خلال الشهور الماضية كان يأتيها صوته من وراء باب محبسها مفعمًا بالأمل مشجعًا إياها واعدًا لها بالحرية والخلاص، لكنها لم تر وجهه يومًا من الأيام. وها هو اليوم يأتيها بشخصه وجسده الرشيق ووجهه الأسمر إلى غرفتها وسط حراسة رجال (الغربي) الذين يمنعون حتى الذباب أن يدخل إليها. فقالت:

-لقد تكبدت الكثير من الصعاب لتراني سابقًا وها أنت تفعلها مرة أخرى.

ابتسم دون أن ينزل عينه عن عينيها وقال:

-في مهنتنا نبذل الكثير من الجهد حتى نظفر بالحقيقة.

قالت:

-ألهذا جئت؟ من أجل الحقيقة؟

فرد مسرعًا:

-ليس هذا وحسب، بل لأنني أتعاطف معك وما يحدث لك وأنت لا ذنب لك فيه. أنتِ ضحية للفساد والخطيئة في مصر يا (أنجيلا) وأنا أشد أعداء الفساد والخطيئة في وطننا.

ثم سمع جلبة في الخارج فعرف بقرب انتهاء زيارة الدلالات، فسارع بوضع الملاءة على رأسه ورفع البرقع على وجهه ثم قال مسرعًا:

-سوف آتي مع الدلالات كل أربعاء، وسنقضي وقتًا أطول سويًا لكن الآن لا بد أن أذهب.

وفعلًا خرج من الغرفة ليتفاجأ بحارس البيت في وجهه فأخرج من تحت الملاءة صدرية نسوية كان يخبئها وقال بصوت أنثوي:

-هجيبلك المرة الجاية اللي أوسع منه يا شابة عشان اللي جربتيه قافش على صدرك حبتين.

لم تفهم (أنجيلا) كلمة من كلمات (محمد) باللغة العربية، لكنها فهمت أنها ألعوبة من ألاعيبه وقد ابتلعها الحارس فأدار وجهه إلى دلالة أخرى فهزت (أنجيلا) رأسها بينما غمز (محمد) بعينه لها.

ثم توالت الزيارات الأسبوعية استطاع (محمد) خلالها أن يعرف من (أنجيلا) معلومات كثيرة عن أسرتها وتفاصيل كثيرة عن خطفها واجتذابها إلى القاهرة. حاول أن يعرف منها أوصاف ذلك الرجل الكهل المختل الذي كان يمتلكها ويعتدي عليها من السرايا، لكنها لم تستطع أن تصفه بدقة حيث أن الإضاءة دائمًا كانت خفيضة في الغرفة، إضافة إلى أنها كانت دائمًا مخدرة مما يجعلها في حالة من التشوش والشرود، لكنه كان كهلًا في العقد السادس ذو جسد نحيل وشارب منمق كبير معقوف لأعلى.

كانت زيارة (محمد) تهوّن على (أنجيلا) حياتها الصعبة النجسة المملة، فكانت تنتظر يوم الأربعاء بفارغ الصبر حتى تراه ويختليان في الغرفة ويتحادثان أطول فترة ممكنة من الوقت. وكان (محمد) يحثّ الدلالة أن تطيل من وقتها في بيت الراقصات، لكنها حذرته فالحارس ليس سهلًا وقد

يكتشف الأمر.

توطدت العلاقة بين (محمد) و(أنجيلا) وقد وجدت (أنجيلا) فيه الأنيس والمنقذ والفارس النبيل، في مكان قذر كالذي تعيش فيه لا يعبأ إلى بما تعريه من جسدها المهدور. في أوقات كهذه وفي ظروف مماثلة كالتي عاشتها وتعيشها، صار قلبها ضعيفًا هشًا يبحث عمن يقويه ويشد من أزره ويجمع شتاته فلم يكن إلا (محمد). أصبح قلبها معلقًا به وأصبحت عيناها مشتاقة لرؤياه وهي تبحث عنه بين الدلالات، وتتسارع نبضاتها حين يلمس يديها. كان الوقت الضئيل الذي تقضيه الدلالات في بيت الراقصات هو نافذتها الوحيدة على الحياة ومنفذها الوحيد إلى الأمل فالحب الذي تسلل إليها دون إرادتها.

وعلى الجانب الآخر تحول عطف (محمد) على المسكينة (أنجيلا) وشفقته على حالها وما آلت إليه، إلى عاطفة من الحب غريبة الأطوار. نعم غريبة الأطوار فأي عاطفة تنمو بين فتاة إنجليزية كانت جارية جنسية وراقصة خلاعية في حانات البغاء، ولا يعي عقلها ما يدور حولها إلا في سويعات قليلة من اليوم، وبين شاب مصري يكره الاحتلال الإنجليزي ويقاومه بكل ما أوتي من قوة. لكنه الحب وأي شيء غير الحب يفعل ذلك! أما (أنجيلا) فمنذ خروجها من (إيدينفيلد)

لم تجد من يحنو عليها أو يرمقها بنظرة عطف أو إعجاب. حتى في (إيدينفيلد) مسقط رأسها كانت فتاة قروية عادية لا أحد يرغبها أو يتوق إليها. استيقظت لتجد نفسها آلة لإشباع رغبات رجل كهل مختل مريض بالسادية، حتى ملّ منها فتحولت إلى لعبة يلهو بها الغلمان الشهوانيون في حانات الرقص الخلاعي. (محمد) فقط هو من كان يبحث عنها حتى وجدها بين الركام والقذارة، ثم فعل المستحيل ليقابلها ويتحدث معها ويعرف قصتها ويبحث عن طريقة لإنقاذها. ظنته في البداية صحفيًا فضوليًا يبحث عن سبق صحفي من خلال قصتها، لكن أحاديثه معها وطريقته في حوارها ونظراته إليها جعلتها تتأكد من عاطفته وصدق مشاعره.

كانت (أنجيلا) نتيجة لاختلال مستويات المخدر لديها، تعاني من تقلبات نفسية وعاطفية تجعلها متقلبة المزاج في كل مرة يلتقيان في غرفتها. فتارة تكون سعيدة مفعمة بالأمل منطلقة المشاعر مقبلة على الحياة تقابله بالابتسامات والدعابات، وتارة تبدو حزينة منكسرة ضائعة لا أمل لها تقابله بالدموع والبكاء.

هذه المرة الأخيرة كانت من تلك المرات التي كانت فيها منكسرة حزينة تائهة. بعد أن دخلا غرفتها وجلسا على مخدعها استندت بظهرها على مسند المخدع القائم، ونظرت

إلى سقيفة الغرفة في حزن وسكون. أمسك يديها وهو يتعمق في عينيها الخضراوين ومضت دقيقتين على هذا الوضع دون أن ينبس ببنت شفة قبل أن تنتبه إليه قال لها في هيام:

-كم كنت أتمنى أن أكون شيكسبير حتى أصف مدى شوقي لك يا (أنجيلا) بكلمات إنجليزية بليغة.

انتبهت وكأنها كانت غافلة فقالت:

-(أنجيلا)؟! ... لقد نسيتُ أن اسمي كان يومًا من الأيام (أنجيلا). أنت الوحيد الذي يذكرني بنفسي يا (محمد). أنت الوحيد الذي يعيدني من ضياعي ويفيقني من شرودي.

شعر باعتصار قلبه لما يراه من حالها فأراد أن يطمئنها:

-سيخرجك الله من الضيق قريبًا يا (أنجيلا) ... سأفعل المستحيل لأنقذك من هذا المستنقع الضحل الذي زرعوا أقدامك فيه رغمًا عنك. سأنقذك ولو ضحيت بنفسي.

قاطعته:

-وما النتيجة يا (محمد) لقد ماتت (أنجيلا) منذ زمن. لقد قتلوا فيّ الشعور والعقل والأنوثة ولا سبيل لاسترداد أي منهم.

ثم أخذت تبكي برقة وبصوت مكتوم مما حمّل قلبه بأثقل

شعور بالعجز والألم. ولم يجد من الكلمات ما يعزيها لكنه قال:

-لم يقتلوا قلبك الطاهر يا (أنجيلا). إن ما نشعر به أكبر دليل على أن ما بداخلك من طهر وعاطفة لم تُمس ولم تُدنس ولابد أن ننقذها قبل أن ينالوا منك. مقاومتك لما حل بكِ هو خير برهان على نقاء أصلك وأنك لن تقبلي الاستسلام له والرضوخ عليه. نحن نصارع الوقت. كل يوم تقضينه بين براثن هذا المخنث في عالمه، أشعر أنه يقربنا من المواجهة التي لا بد أن نستعد لها لنخرج منها منتصرين مزهوين بغنيمتينا من الحب والحرية.

ابتسمت بانكسار والدموع لا تزال تبلل جفنيها وقالت مستنكرة ساخرة:

-الحب والحرية؟! وماذا ستكون النتيجة في ظنك يا (محمد) في أفضل الأحوال؟ لقد نسيت إنسانيتي وصرت شبح امرأةٍ فقدت أنوثتها وشعورها وعقلها فماذا تبقى لها؟

قال وهو يتلمس وجهها بأطراف أنامله:

-أنت أجمل امرأة رأيتها يا (أنجيلا) وجمالك ليس في روحك وقلبك فقط، إنما وجهك وجسدك آيتين من الرقة والجمال... هذه عينك جنة خضراء تكسوها سماء ملبدة من الأحزان ...هذه جبهتك شمس مشرقة خريفية ...هذه وجنتك

صدر طفل رضيع.. هذه شفتاك...

لم يتمالك (محمد) نفسه أمام ذلك الجمال الحزين المستسلم أمامه، وانحنى يطبع قبلة رقيقة على شفاهها. لم تتمنع عنه (أنجيلا) ولم تندهش ولم تندفع هاربة. فقط استسلمت له لتتركه يعتصر شفتيها تقبيلًا، ثم ازدادت أنفاسه العميقة وشعرت باحترار وجهه ينصب عليها صبًا، كانت (أنجيلا) كعادة الراقصات في مبيتهن يمكثن في لباس نومهن الفضفاض الخفيف الحريري الناعم، وبالرغم من ذلك كان (محمد) دائمًا يغض النظر عن جسدها المثير حتى عندما كانت ترقص شبه عارية في حانة (نزهة النفوس). أما الآن مع شعوره بضعفها وقلة حيلتها وانكسارها، أحس أنه منجذب إليها أكثر، ربما ليقوي من عزيمتها وإعطائها أملًا في الحياة وشعورًا بالبهجة والإثارة، أو ربما لأنه هو من يريدها الآن ...لا يدري. لكنه وجد نفسه يندفع نحو شفتيها تقبيلًا، ثم ارتقى بجسده تلقائيًا فيما انساب جسدها يتمدد مرتخيًا على الفراش الحريري، تابع (محمد) كالمسحور يقبلها ويتلمس جسدها ويرفع عنها ردائها وكان كل شيء ممهدًا له ليضاجعها في غرفتها على مخدعها بينما الجميع منشغلون عنهم بالخارج.

لكن (محمد) شعر بشيء غير طبيعي. شيء جذب الدماء

من عروقه وأرخى أعصابه المثارة. لقد ظل (محمد) لدقائق يقبل (أنجيلا) ويتحسس جسدها ووصل بأطراف أصابعه إلى دواخله، وكان هامًا بالدخول بها وما من شيء يوقفه أو يحول بينهما، لكن (أنجيلا) لم تكن كذلك. لم تكن كذلك أبدًا. لم تتجاوب مع حركاته وسكناته ولمساته. لم ترد نبضات قلبها على زلزال قلبه. لم ترتد أنفاسها على أنفاسه الإعصارية. لم يخرج منها تأوه أو غنج. لم تغمض عينيها تمتعًا وتخيلًا لتعيش معه في خياله الجامح. باختصار كانت (أنجيلا) نائمة أسفله على المخدع كالوسادة الباردة لا حياة فيها ولا دفء. ما كان لأي امرأة مهما كان عمرها أن يرفض جسدها ذاك العرض المغري من جسد نشطٍ دافئ ثائر.

شعر (محمد) بالدماء الحارة تبرد، وبأعصابه ترتخي، وبأنفاسه تكبت، وبفتيله ينطفئ، وبعد أن كاد عقله أن يسدل الستائر استعدادًا لغشاة تغشوه بين سحابات الإثارة، أعاد (محمد) تشغيل عقله مرة أخرى مع توافد مئات من الأسئلة تراوده وتطرق بابه في عنف. ماذا حدث؟ ماذا بها؟ لماذا لا تتجاوب معه؟ ألم تشعر به قلبًا وجسدًا؟ ألم تشعر بقلبه ينتفض رغبة فيها وجسده ينتصب انجذابًا إليها؟ هل هذا ممكن؟ هل الإنجليز كائنات أرقى فلا يتضاجعون كبقية كائنات العالم الدونية؟ اعتدل (محمد) من فوقها وقد كان بالفعل قد اتخذ موضع الرجل من امرأته على الفراش قيد

أنملة من الدخول بها، كان وجهه مصدومًا مشدوهًا يبحث عن أجوبة لأسئلته التي تقع على عقله كالسهام السامة. وعندما اعتدل أراد أن يسألها عما حدث، لكنه قبل أن يسألها وجد الجواب أمامه واضحًا جليًا مستلقيًا على المخدع.

كانت (أنجيلا) وقد رفع (محمد) عنها رداءها الخفيف بالفعل، وارتمى عليها دون أن تسقط عيناه على جسدها، فلما اعتدل لمحت عيناه جسدها العاري الذي كان مستترًا تحته وقد وجد فيه ما لا يوصف ولا يتوقعه أحد. كان جسد (أنجيلا) من أسفل بطنها إلى عجزها وفرجها إلى أسفل أردافها محروقًا ذائب الجلد مكرمش اللحم وردي اللون، لا تميز فيه عضوًا ولا شقًا ولا شفرا. كان كأن بركانًا قد انفجر على فرجها وبردت حممه على بطنها مخلفًا آثار الحمم الذائبة المسالة التي دمرت كل ما في طريقها. شعر بالغثيان وتمنى لو لم يقدم على ما فعل ويكشف سر المسكينة. ليتها منعته وحفظت سرها واستمر هو في حبه الأفلاطوني لها دون شائبة. ماذا عساه يقول؟ لا بد أن يقول شيئًا ما. ماذا عساه يفعل؟ إن أي شيء سيقوله أو يفعله أكيد سيجرح مشاعر الفتاة.

لم يستطع أن ينقل بصره من بين فخذها الذائب المشوه وجاهد أن يمنع نفسه من الغثيان وقال مصدومًا وهو يضغط

على كل حرف ينطقه:

-ماذا فعل هؤلاء الملاعين بكِ؟!

بكت (أنجيلا) وهي تبتعد بعينيها عن عيني (محمد) الذي يحدق في حروقها بألم يحاول أن يخفي ما به من الامتعاض. ثم حكت له تفاصيل مأساتها التي أخذ يحكيها لي وقلبه يعتصر ألمًا وصوته يختنق من آن لآخر.

مرت شهور طويلة قضتها المسكينة في القصر يعتدي عليها ذلك الرجل الكهل الغامض المختل يوميًا. تدرج الرجل في اعتداءه على (أنجيلا)، ففي البداية كان يعاملها برقة ولطف بغية الاستمتاع بها فقط. لكن مع مرور الأيام وهبوط السأم اللعين على العقول الذكورية الشهوانية أخذ الرجل المختل يتفنن في ألاعيب جنسية مختلفة وغريبة، ساعده على ذلك خادمه الأسود اللعين وأيضًا ذلك المخدر الذي يضعونه لها في الشراب فيجعلها طيّعة لينة معهم. ومع مرور الأيام صارت هذه الألاعيب أكثر توحشًا وشذوذًا وتخطت حدود الاستمتاع لتصل إلى درجات الخطورة والألم والجراح والشذوذ، وقد صار يستخدم فيها ما تطاله يداه من عصي وقضبان وسلاسل أو سياط. ولأنها كانت دائمًا تحت تأثير المخدر فقد كانت لا تعي شيئًا مما يحدث لها أو حولها، لكنها عندما تستعيد وعيها تجد جسدها مليئًا بالجراح والندوب ويسترجع جسدها كل

الآلام فتصرخ متألمة من سحجات وجروح أو حين تذهب إلى الخلاء. صار عذابًا روتينيًا شبه يومي تخوضه الفتاة وتعجز فيه عن الصراخ والألم أو حتى طلب النجدة. يأتيها الرجل ويتلاعب بجسدها ثم يقضي وطره فيها ثم يأتيه الخادم الأسود بشريحة كبيرة من اللحم تتراقص فوق زبد مغلي سائح داخل مقلاة نحاسية على صينية فضية كبيرة. يأخذ الرجل من الشريحة قضمة أو قضمتين وكأنه يكافئ نفسه على ما بذله من جهد رامقًا ضحيته العارية بطرف عينيه وهي ملقاة منهكة على المخدع مخدرة العقل ثم يرحل.

حتى كانت إحدى الليالي كان فيها الرجل سكرانًا إلى درجة خطيرة بل كان يبدو فيها غائبًا عن الوعي والإدراك في عالم آخر كما لو كان مخدرًا منتشيًا، فدخل عليها ووطئها كالعادة وقضى وطره فيها أسرع من تبوله، والفتاة مستسلمة جسدًا وروحًا وعقلًا. ويبدو أنه لم يرضَ عن متعته هذه الليلة وقد انتهت سريعًا بلا ألاعيب ولا إمتاع. لهذا وبدون أي مقدمات أخذ الرجل يلطم الفتاة على وجهها وهي تصرخ نصف نائمة مخدرة كما لو كانت تحلم بكابوس. كان يلطمها بأقصى ما يستطيع من قوة و يسبها ويلعنها ناعتًا إياها بالإنجليزية بالباردة البليدة والفتاة حتى لا تستطيع أن ترد أو تتكلم لتسأل عن ذنبها؟ حتى صرخ الرجل لخادمه أن يأتي، فأتى الرجل مهرولًا كعادته وهو يحمل شريحة اللحم المشتعلة على

الزبد المغلي يفوح منها رائحة اللحم المقلي مع بخار الزبد الساخن المتراقص. فأمره الكهل أن يأتي بالمقلاة فقرب الرجل الصينية إلى سيده. أخذ الرجل المقلاة من يد الخادم ونظر إلى الفتاة المخدرة النصف نائمة وهي عارية على ظهرها بينما يترنح هو من السكر والانتشاء ويسيل اللعاب من شدقيه بعين زائغة، ثم ضحك ضحكة مجنونة وكأنه قد توصل إلى أمر ما، وأمر الخادم أن يمسك يديها ويقيدها حتى لا تتحرك فنفذ الخادم الطلب وهو لا يفهم ما يهم الرجل بفعله، وإذا بالرجل يصب الزبد المغلي من المقلاة مباشرة على فرج (أنجيلا) وبين فخذيها. انتبهت الفتاة المسكينة للألم الشديد بالرغم من تخديرها. صرخت بأعلى ما في صوتها وحاولت الإفلات من يدي الخادم أو إخفاء عجزها بفخذيها، إلا أن الخادم كان يمسكها بشدة ويقيد حركتها حتى أنهى الكهل كل الزبد المغلي على بطنها وفرجها وهو يضحك استمتاعًا كلما صرخت أكثر وكأنه يستعيض بصراخ آلام حروقها ما لم يكن من صراخ غنجها فيشعر بالرضا. حتى الخادم بالرغم من تقييده إياها إلا أنه شعر بالألم لها وأخذ يرجو الرجل أن يكف قائلًا:

-حرام.. كفايا يا سيدي... كفايا يا سيدي... حرام!

يبدو أن الرجل قد سأم الموقف فأفرغ كل ما تبقى من

المقلاة بل ورمى بشريحة اللحم المشتعلة عليها وهو يضحك، ثم رمى المقلاة في ركن الغرفة وخرج يترنح وهو يردد:

-الآن قد ختمتك بخاتم السلطنة المصرية الجديد ...لن يطأك أحد بعدي أيتها الإنجليزية البليدة...

بقي الخادم يحاول جاهدًا أن يمسح الزبد السائح سريعًا عن عجز الفتاة الصارخة الباكية ويغطيها، ثم خرج يبحث عن ماء بارد أو ثلج يرطب به من جراحها وينقذ به ما يستطيع إنقاذه. هو يعلم أنه لا يمكنه أن يأتي بطبيب أو يدخل أي أحد آخر عليها. ففعل ما استطاع لتضميد جراحها ودهانها بالدهانات المرطبة وكله ألم على حالها، لكن كان ذل خضوعه أكبر من شفقته عليها.

بعد هذه الحادثة قضت (أنجيلا) أيامًا بين الموت والحياة استطاع الخادم فيها أن ينجدها من الموت المحقق، ثم مرت أسابيع طويلة تسترد عافيتها وهي لا تستطيع حتى أن تنظر إلى جراحها الملتهبة المتقيحة في موضع في جسدها كان الأكثر رقة وإحساسًا، وظلت تعاني عند دخولها الخلاء أو في تقلبات نومها حتى اعتادت على آلامها بمرور الأيام، وظلت تبكي في الليالي لحالها وما صارت إليه. وتجنب الرجل الكهل المختل القرب منها وقد أخبره الخادم بما فعله بعد أن عاد إلى رشده، وهنا قرر الرجل أن يتخلص من (أنجيلا) تزامنًا مع

إعلان الإنجليز خلع الخديوي عباس حلمي الثاني وتولية حسين كامل وإعلان مصر سلطنة تابعة للحماية الإنجليزية بحكم المعتمد البريطاني (هنري مكماهون) لإزالة أي وصاية تركية على مصر. والسبب في ذلك أن الرجل الكهل المختل الغامض على علاقة وثيقة بالسلطان الجديد فكان الخلاص من (أنجيلا) هو الحل الأمثل في الوقت الأمثل.

ومنذ ذلك الوقت فقدت (أنجيلا) شعورها الأنثوي فلا تطيق الوطء ولا تشعر بإثارة أو غنج حتى ولو كانت بين أحضان أكثر الرجال فحولة، يبدو أن الاحتراق قد أتى على كل مواضع الإحساس لديها. ولهذا لم يستخدمها (إبراهيم الغربي) في بيوت البغاء العديدة التي يمتلكها، لكنه استخدمها مع الراقصات الخلاعيات حيث أن بقية جسدها لم يمسه حرق أو تشويه.

انتهى (محمد) من قص مأساة الفتاة (أنجيلا) المسكينة وأنا لا أكاد أصدق ما أسمعه. أي ظلم في هذا الكون وقع على (أنجيلا)؟ كيف يمكن لبشر أن يتجرد من رحمته وإنسانيته ويتعامل بتلك البشاعة مع كائن رقيق مسكين لا حول له ولا قوة؟ رأيت دمعة حائرة على جفن (محمد) فربّت على كتفه ولم أجد بدًا من الرحيل هذا اليوم أبكر مما تعودت. فقد ازداد اليوم قتامة بهذه القصة الحزينة ولن أستطيع أن أجاري

(محمد) في حزنه وألمه.

***

الجمعة ٢٦ مارس ١٩١٥م -فتيل الانفجار. الأزبكية (يوميات واين وارين الأخرى)

اليوم الجمعة ٢٦ مارس ١٩١٥م كان يومًا مليئا بالأحداث الغريبة والمتسارعة. قضيت اليوم مع عائلة (محمد) ثم ذهبنا إلى شاطئ النيل لنتحدث عن مشكلة (أنجيلا) وكيفية حلها. أخبرني (محمد) كم يشعر بالأسى عليها والظلم الذي وقع عليها وتسبب في حالها الآن، وما اكتشفه في جسدها من حروق وتشوهات قضت على الفتاة فعليًا جسدًا وروحًا، ثم انتهى النهار باتفاقنا على الذهاب إلى حانة (نزهة النفوس) مرة أخرى، فـ(محمد) يشعر أن (أنجيلا) تحتاجه الآن أكثر من أي وقت مضى بعد أن عرف بما ألم بها وبأدق أسرارها. مرة أخرى أنا مضطر للذهاب إلى مقهى الرقص الخلاعي الذي لا أستمتع بوجودي به إلا أنني وافقت لأرافق (محمد) وأساعده إن تطلب الأمر. وصلنا إلى بوابة الحانة وقد كانت الشمس في طريقها للغروب وبدأ العساكر والضباط الأستراليون والنيوزيلنديون بالتوافد على الحانات، فحاولنا الدخول كالسابق لكن هذه المرة استوقفنا الحارسان على البوابة وقال لـ(محمد):

-أنت ممنوع من الدخول يا حضرت.

استنكر (محمد) ذلك فقال له معللًا:

-أنا معاه يا معلم... أنا بتاعه.

فدفعه بعنف بعيدًا عن مجال دخول الحانة وقال متجاهلًا النظر إليه:

-والله لو حتى كنت بربوره بنفسه مش هتخش... الملك محرّج على كل البيوت والقهاوي مفيش أفندية يدخلوها تاني. مانتوا سبب المشاكل والقرف كله بيجي من وراكوا ... غور يا أخي بقى!!

قالها بفظاظة وهو يدفعه مرة أخرى في صدره، فتعرضث له بجسدي الطويل وأنا أقول غاضبًا بالإنجليزية:

-أنت! ماذا تفعل؟ هذا صديقي

فنظر إليّ الرجل بتمعن وقال:

-يو ويلكم تومي ...هي نو كم..نو كم ...فاهم يا طور؟

فهمته بالرغم من الإنجليزية البلهاء فجذبني (محمد) بعيدًا عن الحارسين وقد أدرك أنه لا فائدة من الجدال معهما فهما ينفذان الأوامر، ويبدو أن (إبراهيم الغربي) قد اشتم أمرًا ما فقرر منع الأفندية المصريين من الدخول.

-ماذا سنفعل يا (محمد)؟

فكر (محمد) لثوانٍ ثم قال:

-تدخل أنت يا (واين) وتخبر (أنجيلا) ما سأقوله لك ....

وقبل أن يكمل كلامه فوجئ بأصوات جلبة وجدال وصراخ وعراك بالأيدي وزجاج يتهشم في الدور العلوي لحانة (نزهة النفوس). كان هناك صوت شاب بالقرب من النافذة العلوية يصرخ بإنجليزية بلكنة بريطانية:

-(أنجيلا).. (أنجيلا).. تركوها إنها أختي.. اتركوها يا ملاعين سأبلغ عنكم.

انتفضنا أنا و(محمد) عند سماعنا اسم (أنجيلا) وتلاعبت بنا الأسئلة تدور في أذهاننا، وحاولنا الدخول فمنعنا الحارسان مرة أخرى وهما يتطلعان عبر بئر السلم المؤدي إلى الحانة العلوية. فجأة تكسر زجاج نافذة علوية وهوى منها جسد شاب بملبس عسكري إنجليزي سقط من ارتفاع طابقين إلى الأرض صارخًا، ارتطم بالأرض صانعًا عاصفة ترابية شديدة قبل أن يطلّ رجلان من فتوات الحانة عبر الزجاج المتكسر من النافذة العلوية ليتأكدا أنهما قد تخلصا من الرجل. انطلقنا وانطلق معنا العديد من رواد الطريق من رجال مصريين بالجلابيب والطواقي وجنود أستراليين

ونيوزيلنديين بالزي العسكري يلتفون حول الشاب الذي سقط على الأرض مغشيًا عليه مضرجًا بدمائه من رأسه وأنفه.

اندفعت لأحمل الشاب مع جنديين إنجليزيين آخرين وأسعفناه بضمادات مؤقتة، سمعنا أثناء ذلك حوارًا دار بين جنديين أستراليين من رواد الحانة الذين كانا شاهدين على العراك، فقال أحدهما للآخر أن هذا الشاب كان في الحانة مع أصدقاء له يشربون الخمور وعندما بدأت الراقصات الخلاعيات بالرقص اندفع إلى إحداهن وأمسكها وأراد أن يأخذها معه إلى خارج الحانة، فلما تعرض له فتوات الحانة بالضرب ادعى أنها أخته وأخذ يصيح أتركوا (أنجيلا) إنها أختي...سأبلغ عنكم بتهمة اختطاف إنجليزية... ثم أخذ الجنديان يتهكمان على الشاب الإنجليزي مدعين أنه كان سكيرا ولا يدري ما يقول، فمن المستحيل وجود بريطانيات يعملن في مجال البغاء في مصر. ثم رجعا سيرتهما الأولى إلى الحانة بينما ظل (محمد) يقف يفكر بهدوء ليفهم الموقف. وهنا توارد إلى ذهني تساؤل، إن كان من الممكن أن يكون هذا الفتى فعلًا أخو (أنجيلا) وأنه جاء بعد أن استقبل رسالة (محمد) التي أرسلها وأتى فعلًا ليخلصها؟ ثم حملنا الفتى بعد ذلك إلى محطة قطار كوبري الليمون حيث استقللنا القطار المتجه إلى حلمية الزيتون حيث يوجد المعسكر والمستشفى الإنجليزي. بينما أشار (محمد) لي أنه سينتظر قرب الحانة

لبعض الوقت.

***

السبت ٢٧ مارس ١٩١٥م - حلمية الزيتون. (يوميات واين وارين الأخرى)

تواردت الأنباء اليوم داخل معسكر (مينا) أننا نستعد للتعبئة والتحرك إلى الإسكندرية الأسبوع المقبل. جاءنا الكابتن هوك وأخبرنا أن القوات الأسترالية والنيوزيلندية ستتوجه إلى الإسكندرية استعدادًا للرحيل إلى المعركة بداية من صباح يوم السبت ٣ إبريل على مراحل تنتهي بعد أربعة أيام، وأن معسكر (مينا) سيتم إخلاؤه وتفكيكه بعد ذلك. شعرت بغصة في حلقي لأن رحلتي إلى مصر الحبيبة سوف تنتهي خلال أيام معدودة، وسأودع صديقي (محمد) وعائلته المصرية الطيبة. يا لها من خسارة! والأكثر من ذلك أن ساعات الحرب تقترب بسرعة بعد أيام من التدريب والسياحة أيضًا في القاهرة. هكذا بدون مقدمات أصبح يوم الجمعة المقبل هو آخر إجازة أسبوعية أستطيع أن أقضيها في القاهرة. لم يكن هذا هو شعوري أنا وحدي وإن تغيرت الدوافع، فقد سرى شعور بالخسارة لهذا المنتجع الذي نعيش فيه منذ ديسمبر الماضي، والاستعداد للعمل الشاق من القتال والجراح والدماء خلال أيام يلقي بظلالٍ من الخوف والقلق والترقب على

الجميع. أما أنا فلا أشعر بالخوف من القتال بالرغم من قساوته، فأنا كنت دائمًا مستعد له أيًا كانت النتائج. إنما حين يتعلق قلبك بالقاهرة مدينة التناقضات، وأهل القاهرة الطيبين، ومباني القاهرة وآثارها العتيقة، وجو القاهرة الدافئ، وشمسها الحنونة وبدرها المضيء، يصبح فراقها كفراق الحبيب مؤلمًا. يعلم الرب أني أحببتها، ويعلم الرب إن كنت سآتيها مرة أخرى أم لا.

عندما استيقظت ذلك الصباح وجدت مخدع (جوشوا) كما هو لم يتبعثر، يبدو أنه لم ينم عليه منذ فترة من الوقت، وتذكرت أنني لم أره منذ فترة طويلة ربما لانشغالي بقضية (محمد)، فلما سألت زميلنا في الخيمة (جيسون) قال إن (جوشوا) قد التقط الأمراض الجنسية من العاهرات وانتشر المرض في كل جسده، وقد احتجزوه في العيادة الميدانية منذ فترة حتى يشفى، وهو الآن على أعتاب الشفاء ومن الممكن أن يخرج من العيادة بنهاية هذا الأسبوع.

ثم بدأنا يومنا العادي بتدريبات المشاة الشاقة، حتى كان منتصف النهار فجاءني استدعاء لوجود زائر خارجي. ذهبت إلى الخيمة الأمنية في مدخل المعسكر وإذا بي وجدت (محمد خليل) في انتظاري. لم يكن (محمد) لينتظر حتى يقابلني يوم الجمعة المقبل ليعرف عن أمر الشاب الإنجليزي.

أتى إلى المعسكر الأسترالي في (مينا) وطلب مقابلتي، وتعرض لأسئلة واستجواب وتفتيش شديد حتى وافقوا على استدعائي. وعندما أتيته أخذني جانبًا وسألني عن الفتى الإنجليزي، فأخبرته أنه كان مغشيًا عليه حين أودعناه المستشفى العسكري بحلمية الزيتون. طلب مني (محمد) أن آتي معه إلى المستشفى الإنجليزي لنتحدث مع الشاب، فوافقت على الفور وحصلت على تصريح خروج لبقية ذلك اليوم بحجة زيارة صديق بريطاني مريض بحلمية الزيتون، وركبنا الترام إلى وسط القاهرة ثم ركبنا القطار إلى حلمية الزيتون. بالطبع الأمر ليس بهذه السهولة لشاب مصري أن يدخل المستشفى العسكري الإنجليزي، فكنت أنا أحد وسائله للدخول مع بعض من حيله الصحفية النابغة بالإضافة إلى تفتيش ذاتي مهين من حراس المشفى. ثم دخلنا إلى المشفى وبحثنا عن الشاب حتى وجدناه نائمًا على فراشه ورأسه مضمدة ويده مربوطة إلى صدره. جلسنا على جانبي الفراش وانتظرنا قليلًا حتى أحس بوجودنا. كان الشاب صغيرًا في السن يبدو في العشرين من عمره أو أقل وتبدو هيئته أنه من الريف الإنجليزي. سألنا بصعوبة:

-من أنتما؟ وماذا تريدان؟

اقتربت منه وطمأنته قائلًا:

-لا تخف... أنا (واين وارين) من القوات الإمبراطورية الأسترالية وهذا صديقي المصري (محمد خليل) يعمل صحفي.

نظر إلينا بريبة ثم قال:

-ماذا تريدان؟

بادر (محمد) بالكلام:

-لقد كنا هناك في (الوسعة) عند حانة (نزهة النفوس) وشاهدنا حراس الحانة وهم يضربونك ويطردونك منها. لكننا سمعناك تنادي على (أنجيلا). هل تقصد (أنجيلا دراور)؟ من فضلك أخبرنا نحن هنا لنساعدك.

حاول أن يعتدل فور أن سمع اسم (أنجيلا) وقال منتبهًا:

-نعم أنا أخوها الأصغر (أندرو دراور) من إيدينفيلد بمانشيستر. اختفت أختي منذ أعوام بعد أن عملت كخادمة في بيت نبيل بريطاني في لندن. أخذنا نبحث عنها في لندن ولم نجدها أو نستدل عليها، وعندما كدنا نفقد الأمل وصلتنا برقية من القاهرة من شخص مجهول يدعي أنها تعمل في حانات البغاء في القاهرة. لم نصدق ذلك فكيف يمكن أن ينتقل بها الحال من عاملة منزل في لندن إلى فتاة بغاء في القاهرة. وللمصادفة تم تجنيدي في قطاع القاهرة ووصلت

منذ أسبوعين. وعندما أتيت إلى الحانة مع زملائي لم أصدق نفسي حين رأيتها ترقص عارية بين الراقصات الخلاعيات والرجال يتحسسون جسدها بأيديهم. تكلمت معها فكانت كالمسحورة لا تتذكرني، فجذبتها من ذراعها لنرحل عن المكان فضربني الحراس ولم يستطع زملائي مساعدتي.

ثم نكس رأسه بينما أخذت أنا و(محمد) نتبادل النظر سويًا فقلت مستفسرًا:

-وما الذي تنوي فعله؟

سارع الفتي بالرد:

-سأبلغ إدارة حماية الآداب فلا أعتقد أن وجود (أنجيلا) في الحانة قانوني.

قاطعه (محمد):

-(أندرو) أخشى أن الأمر في مصر معقد أكثر مما تظن. إن إدارة حماية الآداب يشوبها الفساد ولن يفيدوك إن لم يضروك.

زادت حيرة الفتى وقال:

-وما الذي يعقد الأمر؟ إنها أختي ولا أظنها راضية عن حالها هنا.

قلت معللًا:

-لقد تم توريط (أنجيلا) مع عصابات خطرة تعمل في تجارة الرقيق الأبيض والمخدرات. ولن يتخلوا عنها بتلك البساطة لخطورة ما تعرفه عنهم، وصدقني إن لهم عيونًا وأصابع في كل إدارة وقسم شرطة في القاهرة.

نظر (محمد) إلى كلينا وقال بهمة:

-أنا و (واين) أصدقاء لك ولـ(أنجيلا) ونعرف قصتها ونحارب في نفس الجبهة ونريد أن ننقذها من هذا المستنقع الفاسد. أنا الذي بعثت إليك بالبرقية لتنجدها في القاهرة. لكن لا بد لنا أن نتحد سويًا ونتصرف بذكاء وبسرعة، فبعد ما حدث بالأمس أصبح الوقت ليس في صالحنا على الإطلاق. لدي خطة سأشارككم إياها يوم الأربعاء هنا في نفس المكان والزمان. لكن أهم شيء السرية فالجواسيس حولنا في كل مكان.

تعاقدت أنظار ثلاثتنا بعقد العزم والنية المخلصة لإنقاذ الفتاة المسكينة، واتفقنا أن نتقابل يوم الأربعاء التالي في مستشفى حلمية الزيتون عند (أندرو) في المستشفى، ليخبرنا (محمد) بخطته. ولما رحلنا سألته عما ينوي فعله. لم يخبرني (محمد) وطلب مني التمهل لكنه في نفس الوقت سألني:

-(واين)... الشهور القليلة الماضية التي جمعتنا سويًا جعلتني أعرف ما بداخلك يا صديقي من وفاء وإخلاص وأخوة قد لا أجدها من مصريين. ومن واجبي أن أحذرك أن الطريق الآن أصبح أشد خطورة مما تظن. وأخشى عليك أن تصاب بأذى في أرض غريبة وقد لا أستطيع مساعدتك. استمع إلى نصيحتي واترك هذا الأمر لي أنا و(أندرو) فكلانا لديه جرح شخصي في هذا الأمر لا بد أن نبرئه بأنفسنا. أما أنت فأرجو أن تستمع إلى نصيحتي وابتعد عن هذا الأمر.

ابتسمت وأنا أستعد لركوب القطار في محطة حلمية الزيتون وقد شعرت فعلًا بصدقه وأخوته وهو يحذرني ويخشى عليّ أن أصاب بضرر وقلت:

-هل تعتقد أنه ينبغي أن يكون لي هدف أو مكسب شخصي حتى أساعد شخصًا ما في مأزق؟ أنت حقًا لا تعرف الأستراليين يا صديقي. أنتم تقولون عيش وملح وأنا أكلت معكم عيش وملح وملوخية ومحشي ودجاج وهذا يعني أنكم أمنتم جانبي واستضفتموني كفرد من عائلتكم، وأنا اعتبرت نفسي جزءا من عائلتك عوضني عن افتقادي لأسرتي في أستراليا. ليس كل الأستراليين يا صديقي ثيران الأجساد ذئاب الشهوات يعيشون على الجيف والنجاسة كالضباع كما تشاهد في الأزبكية، فنحن أوفياء أيضًا كالكلاب ونغضب

كالأسود.

قال (محمد) محذرًا:

-الأمر جد خطير يا (واين). أنا مراقب من مكتب البوليس السياسي، والغربي يمتلك شرطة حماية الآداب في جيبه. وقصة (أنجيلا) تمس السرايا بطريقة أو بأخرى فضلًا عن الإنجليز. جهة واحدة من هؤلاء الجهات كافية للتخلص منا أنا وأنت.

قاطعته:

-أستطيع حماية نفسي يا (محمد) فلست ضعيفًا. سيكون من العار أن أتركك وحيدًا تجابه كل ذلك. سأكون معك حتى آخر يوم لي في القاهرة ويبدو أنه ليس بعيدًا.

سألني (محمد) بقلق مستفسرًا:

-ماذا تعني؟

قلت بخيبة أمل:

-يبدو أن أيامي في القاهرة معدودات، فقد تواردت الأخبار في (مينا) عن بدء التعبئة للفيلق الأسترالي والنيوزيلندي استعدادًا للتحرك إلى الإسكندرية الأسبوع المقبل. يبدو أن المعركة تقترب.

مرت نظرة حزينة سريعًا على عيني (محمد) وهو يتخيل أن تنتهي أيام مرافقتنا سويًا بهذه السرعة. ثم تحول وجهه إلى الجدية وقال:

-إذن لا بد أن نتحرك سريعًا.

أعجبت بحماسه فربّت على كتفه وركبنا القطار.

***

الأربعاء ٣١ مارس ١٩١٥م- (جوشوا) و(محمد). (يوميات واين وارين الأخرى)

جاء يوم الأربعاء وحصلت على تصريح للخروج بعد انتهاء التدريبات. وأثناء وجودي في الخيمة قبل الخروج، فوجئت بـ(جوشوا) يدخل الخيمة وهو منهك القوى صامت شارد الذهن وظهر على وجهه علامات الإرهاق بعد أسابيع طويلة من العزل في العيادة، ثم ارتمى على مخدعه زافرًا فسلمت عليه ودعوت له بالشفاء العاجل، وهممت بالخروج فاعتدل واستوقفني وقال بعين نافذة:

-هل ستخرج لمقابلة صديقك المصري؟

توقفت ونظرت إليه مستفسرًا:

-صديقي المصري؟!

قال وقد أزاح عينيه عن مواجهتي وكأنه يخفي شيئًا ما وقال مترددًا:

-لقد رأيتكما هناك في وسط القاهرة حين كنا نضرب ذلك الرجل المصري منذ أيام هل نسيت؟

تذكرت فهززت رأسي وقلت:

-نعم نعم... حقيقة لا ... لن أذهب لمقابلته. أنا فقط ذاهب إلى الموسكي لشراء بعض الهدايا التذكارية قبل أن نرحل من القاهرة.

شعرت أن (جوشوا) أدرك كذبتي فهز رأسه ببطء متفهمًا بالرغم من عينيه المستنكرة وسأل:

-ألن تذهب إلى حانة (نزهة النفوس) مرة أخرى يوم الجمعة؟

شعرت بشيء من الحذر من أسئلته. كيف عرف أنني ذهبت هناك مرة سابقة؟ ما سر اهتمامه المفاجئ بي وسؤاله عن أماكن ذهابي؟ يبدو أن (جوشوا) قد شعر بشيء من الحرج والحذر من صمتي وقد أيقن تسرعه وغرابة أسئلته فغير مسار الحوار وقال:

-هل تعلم أنهم أوقفوا راتبي منذ ستة أسابيع بسبب مرضي الذي التقطته من العاهرات اللعينات؟

وضعت يدي في جيبي وأخرجت راتب يوم وقدمته إليه على سبيل التبرع وقلت له:

-هل تحتاج بعض المال؟

تبادل النظر بيني وبين الستة شلنات في يدي وقال بامتنان مزيف:

-لا شكرًا ... يبدو أنني سأحصل على مكافأة عما قريب.

مكافأة لـ(جوشوا) الفتى المشاغب؟! أشك في ذلك. أردت أن أنهي الحديث الغريب حتى لا أتأخر عن موعدي مع (محمد) و(أندرو) فأشرت له بيدي مسلمًا ورحلت.

وصلت إلى محطة حلمية الزيتون وقبل أن أخرج منها اصطدم بي رجل بجلباب وعمة من تلك العمائم الأزهرية للشيوخ وطلابهم. كانت صدمة متعمدة من الرجل حاولت أن أفهم معناها، وقبل أن ألتفت للرجل جاءني صوته مكتومًا:

-لا تلتفت يا (واين) أنا (محمد).

أخذتني الدهشة للحظات قبل أن أستعيد رباطة جأشي. إنه (محمد) في حيلة جديدة. فتصنعت عدم تحدثي إليه وقلت له:

-ماذا تفعل بهذا الملبس ولماذا تتخفى يا (محمد)؟

قال (محمد) دون أن ينظر إليّ:

-لا وقت للحديث يا (واين). لقد صدر أمر من البوليس السياسي باعتقالي، والكل يبحث عني في كل مكان. لن أستطيع أن أدخل معك إلى المشفى. (أنجيلا) مسجونة وحدها في بيت رقم ٨ درب المبلطين من حارة الوزير وعليها حراسة مشددة. سألاقيكم هناك ظهر الجمعة القادمة.

سألته:

-وماذا ستفعل أنت حتى ذلك الحين يا (محمد) كيف ستنجو بنفسك من هذا المأزق؟

قال لي:

-لا تقلق بشأني، لقد كنت أعلم أن ذلك اليوم قادم لا محالة وقد كنت مستعدًا له، ولكني لن أجعلهم يظفرون بي قبل أن أفضحهم وأحرر (أنجيلا) وأنتقم لها وأزلزل الأرض من تحت أقدامهم، لكن هناك شيءٌ أخير لا بد أن أفعله حتى أتأكد من ذلك.

قلت:

-ما هو؟

قال:

-لا تشغل بالك بي يا صديقي. اذهب إلى (أندرو) وأخبره بما أخبرتك، واتفقوا على أن تفاجئوا المكان في عدد محدود لا يزيد عن عشرة أو خمسة عشر رجلًا، وأتموا الأمر بسرعة مفاجئة حتى لا تستجذبوا أنظار الشرطة أو البوليس الحربي. وأنت يا صديقي إذا لم أستطع أن أقابلك مرة أخرى قبل رحيلك فقط تذكر صديقك المصري بالخير. وخذ حذرك طوال الوقت حتى ترحل عن مصر.

تعجبت من هذا الوداع الغريب فقلت:

-ماذا تقول يا (محمد)؟ سألقاك أكثر من مرة يوم الجمعة والأسبوع المقبل قبل رحيلي.

قال:

-أتعشم ذلك. أستودعك الله يا صديقي

ثم رحل بهدوء دون أن يلتفت إلي. لا أدري لماذا لا أشعر بالطمأنينة بعد كلمات (محمد)، ولماذا أشعر أنه كان يودعني لأنه يهم بشيء ما. شيء خطير. ربما الهرب خارج القاهرة أو خارج مصر. أشعر أنني لن أقابله مرة أخرى. القلق بداخلي على (محمد) اتحد مع وجع فراق القاهرة القريب صانعًا ثقلًا على النفس.

دخلت المشفى ووجدت (أندرو) في انتظاري فأخبرته بما

علمته للتو. أخبرني أنه سيأتي إلى حارة الوزير ظهرًا ومعه زمرة من أصحابه من الكتيبة الإنجليزية يفوق عددهم العشرة. فاتفقت معه أن أكون في انتظارهم هناك قبل أن يصلوا وأنضم إليهم حتى نجد (أنجيلا) ونحررها من أجل الإنسانية ومن أجل صديقي (محمد).

***

الخميس ١ إبريل ١٩١٥م -قبل العاصفة. (مينا) (يوميات واين وارين الأخرى)

هذا اليوم شعرت بحركة غريبة في المعسكر. منذ الصباح الباكر وأنا أرى (جوشوا) والعديد من الجنود من زمرته وهم يذهبون ويجيئون بين الكتائب المختلفة والخيمات. لقد اجتمع بهم (جوشوا) أولًا في الصباح يتحدث معهم وكأنهم يدبرون أمرًا ما وكان عددهم ثمانية، ثم تفرقوا كل واحد إلى اتجاه مغاير عن الآخر وأصبح كل واحد منهم يجتمع مع مجموعة من الجنود في فترة استراحة التدريبات ويتكلم معهم بجدية وإثارة.

اقتربت من (جوشوا) وهو يتحادث مع مجموعة من الجنود، بل كان يخطب فيهم وأخذت أسترق السمع لما يقوله. كان يتحدث بعصبية ثورية وهو يقول:

-منذ الأسبوع الماضي ارتفعت أسعار بيوت الدعارة والحانات مرتين في (الوسعة) و(وش البركة). أولاد الزناة هؤلاء يمصّون دمائنا.

صاح آخر بصوت أكثر غضبًا:

-ولا ننال منهم إلا أمراض الزهري والسيلان. لقد صار ربع معسكرنا مصابين بالأمراض الجنسية وتوقفت رواتبنا لذلك. هل جئنا من بلادنا وتغربنا لنعمل بالمجان ونصاب بالأمراض اللعينة من أولاد الزناة بعد أن يسلبونا أموالنا؟

صدرت عن الجنود صيحة استهجان لذلك، فقال واحد ضخم الجثة منهم وهو ماوروني من السكان الأصليين الأستراليين بصوت جهوري غليظ:

-الجمعة الماضية دخلت على عاهرة فرفضت أن تخدمني وطردتني صائحة أخرج يا أسود يا آكل لحوم البشر.

علت نبرة الجنود بصيحات الاستهجان فقال (جوشوا):

-لا يمكن أن نصمت على هذه الإهانات لإخواننا الماورونيين.

فعلَت صيحاتهم أعلى وأعلى، وأنا أتعجب أن يقول (جوشوا) هذا الكلام وهو أكثر من قابلته عنصرية وتنمرًا في حياتي حتى على أبناء جلدته. صاح جندي آخر قصير وهو

يشيح بيديه:

-لقد رأيت نادل المقهى بنفسي وهو يملأ قناني البيرة ببوله في الغرفة الخلفية للحانة.

صاحوا ممتعضين فقال آخر متممًا على كلامه:

-وهم في أفضل الأحوال يغشون في الخمور بالماء ... كلنا متأكدين من ذلك.

قال رابع:

-لقد سرقت مرتين في بيوت الدعارة وعندما سألتهم تنكروا لذلك وطردوني....

وصلت صيحات الجنود إلى الذروة وامتدت لثوانٍ متصلة وهم يصيحون في غليان:

-الموت لأبناء الزناة ...لنحرقهم عن بكرة أبيهم...

وأخذوا يكررونها مرارًا وتكرارًا حتى أشار لهم (جوشوا) بالسكوت ثم قال بتعقل:

-حسنًا يا إخوتي ...الغد هو يوم الجمعة العظيمة إجازة للجميع وسيكون يومًا مزدحمًا بالزبائن... سنكون هناك في الأزبكية منذ الصباح وسنشرب وسنعربد بأقصى ما نستطيع، ثم نلقنهم درسًا لن ينسوه. ومهما كانت النتيجة فإننا راحلون

اليوم التالي عن القاهرة فليلحقنا إذن أولاد العاهرة...

ضحك الجنود مقهقهين وتفرقوا بعد أن اتفقوا على خطتهم. وقبل أن نتفرق كلنا وجدت (جوشوا) ينادي عليّ فتوقفت وقال لي:

- وأنت يا (واين) ألن تأتي معنا غدًا؟

تعجبت من إلحاحه عليّ أنا دونًا عن الآخرين وتخصيصه السؤال لي وقلت:

-ربما يا (جوشوا) ... ربما...

ثم هممت بالغروب عنه سريعًا مبتعدًا عن عينه المتفحصة. ابتسم (جوشوا) ورحل ليذهب إلى مجموعة أخرى من الجنود لحثهم على المشاركة. بدأت أشعر بالخطر يقترب من الجميع. ولا أدري إن كان ما يخطط له (جوشوا) وزمرته المشاغبون قد يساعدنا حين نهم بإطلاق سراح (أنجيلا) أم لا. للأسف انتهى اليوم ولا أعرف كيف أجد صديقي (محمد) لأخبره بما سمعت لنتناقش ونعيد حساباتنا ونقرر. فلنقم بالأمر إذن ولنرتجل وليكن الرب في عوننا.

رجعت خيمتي لأكمل تعبئة حقيبتي بحاجياتي الشخصية استعدادًا للسفر صباح السبت حيث أن الغد الجمعة سيكون يومًا مزدحمًا بالأحداث وربما لن يتسنى لي الفرصة لإكمال

تعبئة حقيبتي. عندما فتحت حقيبتي فوجئت بذبابة كبيرة الحجم ميتة على سطح قمصاني البيضاء بشكل واضح ومقزز. يبدو أنها قد تسللت إلى الحقيبة بالأمس قبل أن أغلقها ثم ماتت مختنقة بداخلها. أتعلمون؟! سأتركها داخل الحقيبة، بل سآخذها معي حتى أعود إلى الوطن لتذكرني بتلك الأحداث الغريبة وسط عالم من الطيبة والأصالة والخير. سأتركها لتذكرني بذلك المخنث (إبراهيم الغربي) بين رجال القاهرة الأتقياء الطيبين كالحاج (طه خليل). سأتركها لتذكرني بـ(الوسعة) و(وش البركة) أوكار العهر والبغاء بين أحياء القاهرة الإسلامية التقية الجميلة كالسيدة زينب والحسين. سأتركها لتذكرني بـ(جوشوا) ذلك الفتى المشاغب الفاسد اللعوب بين عشرات من الجنود الأستراليين الأبطال. سأتركها لتذكرني بذلك الرجل الكهل المختل سليل السرايا بين مئات من الرجال المخلصين لمصر وقضاياها كـ(محمد خليل). سأتركها لتذكرني بما ندنسه نحن والبريطانيون في هذه البلاد الأصيلة الطيبة وما نفعله من مسخ لحاضرهم وتجاهل لماضيهم واستغلال لمستقبلهم.

(نهاية يوميات واين وارين الأخرى)

الفصل الخامس صائد السلمون

نهاية مبتورة. (عفت البدوي- سيدني-الحاضر)

كانت هذه آخر صفحة من يوميات (واين) الأخرى. توقفت عند هذه الكلمات الجميلة المعبرة من إنسان مثقف عاقل ناضج. لكن لا نهاية محددة لهذه الأحداث المقلقة المثيرة بعد أن وصلت إلى ذروتها دون ختام لها. نهاية غريبة لا ترضي عقلي ولا ضميري. وصلت إلى تلك النهاية ولم أنتبه إلى النيران التي انطفأت بالبوتقة بعد أن توقفت عن إلقامها بالأوراق والأظرف، لكن النيران اشتعلت في مكان آخر في ذهني بعشرات الأسئلة تراودني لا أجد لها إجابة. لماذا هناك دفترين مختلفين ليوميات (واين وارين) أحدهما له كشيطان معربد والآخر كملاك متجول؟ آخر يوم مدون في كلا اليوميات هو يوم الخميس الأول من أبريل ١٩١٥م، هل هذا يعني أن ذلك الرجل مات مقتولًا في أحداث حارة الوزير يوم الجمعة ٢ إبريل ١٩١٥م؟ أم لا يزال احتمال هروبه قائمًا؟ يبدو أن هناك شبه اتفاق على اختفاءه ذلك اليوم أيًا كان السبب. لكن ما سر وجود دفترين بهذا الشكل المتفاوت؟ ومن أصدق؟ وما هي الدلائل والبراهين؟ وماذا يهمني من هذا الأمر؟

صعقت لسؤالي الأخير. ماذا يهمني من هذا الأمر؟ لا (كيث) يبحث عن حل للغز وفاة أبيه أو اختفاءه ولا يريد التحدث

عنه بالأساس. وأنا لن يحدث أي فارق معي مهما كان التفسير وحل اللغز. ربما لشغفي بالتاريخ وشعوري بالحرج نتيجة جهلي التام عن هذه الأحداث الغريبة التي لم أتخيل أنها حدثت في قلب القاهرة يومًا ما كان هذا هو السبب الذي يقلق عقلي ويدفعني للتساؤل عن حلٍ للغز (واين)؟ ربما لأن يوميات (واين) بها صورتين مغايرتين للقاهرة وأهل القاهرة مما يستفزني للبحث عما ينقذ سيرة مدينتي ووطني وأهله؟ ولكن ما حدث حدث، ولن يفيد أحد المعرفة بتفاصيله. أحداث هذه المسماة بمعركة الوزير حدثت وقتل نفر قليل وغالبًا كان (واين) منهم. ماذا سيفيد إن عرفت أن من مات أو اختفى هو (واين) الفاسد أم (واين) الخيّر؟ فالنتيجة واحدة. ربما يفيد (كيث) ولكنه هو نفسه لا يهتم. لكن ربما سبب عدم اهتمامه أنه يظن أن أباه هو ذلك الفاسد (واين) ذو اليوميات من الحقيبة. هل إذا عرف أن والده هو (واين) الآخر صاحب اليوميات المرسلة بالبريد سيستريح باله وتستقر روحه؟ هو لا يعلم أن تلك اليوميات أُرسلت بالبريد فهو لم يفتح المظروف من الأساس. ما الذي يجعله لا يفتح طردًا ثقيل الوزن به كتاب أو ربما شيء أثمن؟ ومن أرسله؟ تذكرت أن من أرسله هو (جوشوا أليسون) ذلك الفتى المشاغب في يوميات (واين) الأخرى. لماذا يقوم (جوشوا) بإرسال يوميات أخرى لـ(واين) بعد موت (واين) وعودة (جوشوا) من الحرب

بأكثر من خمسة وستين عامًا؟ والأغرب من ذلك أنه يرسل يوميات تثبت شغبه وفساده وتورطه في أحداث الشغب في القاهرة؟ للبحث عن إجابة صحيحة لا بد أن أسأل نفسي السؤال الصحيح. فما هو السؤال الصحيح؟ عن ماذا أبحث؟ من يساعدني؟ ولماذا يساعدني أحد؟!

اللعنة أنا أشعر بالنار تتصاعد من رأسي نتيجة تدافع تلك الأسئلة التي لا أجد لها جوابًا مقنعًا لعقلي. لأتجاهل الأمر ولو لبعض الوقت فإما أن أتناساه، وإما أن أعيد ترتيب أفكاري. أخذت اليوميات ووضعت الصندوق بباقي الأظرف جانبًا ثم عدت إلى داخل المنزل محاولًا التجاهل.

***

الخوارزميات في الخدمة المصرية. (عفت البدوي- سيدني- الحاضر)

مضت أيام منذ أن قرأت اليوميات الأخرى لـ(واين) الآخر. وضعت الدفترين ذوي الغلاف الجلدي الأسود جنبًا إلى جنب في أحد الأرفف أمام مكتبي، فصرت كلما جلست على المكتب في غرفتي أراهما وكأنهما يلحان عليّ أن أسبر غورهما وأكشف أسرارهما، فلا أفتأ أجبر نفسي لأتوقف عن التفكير فيهما بحجة أن شيئًا لن يتغير مهما عرفت ومهما اكتشفت.

وفي النهاية انتصرت اليوميات عليّ، ولم أستطع أن أقاوم هذا الشعور الملح بأن هناك شيئًا مفقودًا يبحث عن أحدٍ يفك طلاسمه. إن لم يكن أحد يهتم بحله فسأسعى أنا لحله من أجل إرضاء غروري. الآن صارت الأسئلة الصحيحة أكثر وضوحًا أمامي. كيف مات (واين) أو أين اختفى؟ ما هو مصير (محمد) و(أنجيلا)؟ ولكي أجيب على هذه الأسئلة قررت أن أُبحر في الشبكة العالمية بحثًا عن معلومات إضافية أو مفصلة عن أحداث معركة الوزير علّني أجد أسماءً أو تفاصيل تفيدني في معرفة الحقيقة، أو استكمال الصورة المنقوصة أو المغلوطة التي لدي.

أثناء بحثي عن معلوماتٍ عن هذه الموقعة وهذه الحقبة في تاريخ مصر، فوجئت بمجموعة من إعلانات الشبكة العالمية (الإنترنت) عن أشياء وكتب ومقالات لها صلة ببحثي. إعلانات الإنترنت تكون موجهة تلقائيًا وتستهدف الباحث بناءً على بحثه عن شيء ما، فلو أنك سألت على الانترنت عن أفضل نوع صابون، ستقوم الخوارزميات بتحليل بحثك ثم تعرض عليك آلافًا من الإعلانات المرتبطة بمنتجات الصابون في المكان الذي تعيش فيه. حيلة تسويقية ذكية. أما أنا فكانت هدية الخوارزميات لي عرضًا خاصًا على كتب لها علاقة بتاريخ مصر وما أدراك ما تاريخ مصر واهتمام العالم

أجمع به. قلبت في عشرات الإعلانات المتلاحقة على شاشة الحاسوب وأغلقت العديد من هذه الإعلانات التي لا تهمني في الوقت الحالي ولا تفيد بحثي، حتى وقفت أمام كتاب باللغة الإنجليزية اسمه (في الخدمة المصرية ١٩٠٢-١٩٤٦م سير توماس راسل باشا) الكتاب منشور عام ١٩٤٩م.

وبالبحث عن (توماس راسل) عرفت أنه شرطي إنجليزي عمل بالخدمة في الشرطة المصرية من عام ١٩٠٢م وحتى عام ١٩٤٦م. خلال هذا الوقت ترقى وتولى العديد من المناصب القيادية في وزارة الداخلية بمصر، منها مفتش للداخلية في العديد من المحافظات، ثم أصبح نائب حكمدار الإسكندرية، ثم نائب لحكمدار القاهرة ١٩١٣م، حتى أصبح حكمدار القاهرة منذ عام ١٩١٧م وحتى تقاعده. له الفضل الأكبر في الحرب على المخدرات خلال فترة عمله. تقاعد عام ١٩٤٦م وكرس بقية حياته لصيد سمك السلمون وتوفي في لندن يوم ١٠ إبريل عام ١٩٥٤م.

إذا كان (راسل) باشا في هذه المواقع القيادية في الشرطة المصرية خلال هذه الفترة، فلابد أنه قد حضر أو علم أو تكلم عن حادثة معركة الوزير بأي طريقة، لا شك في ذلك. لم أتمالك نفسي حتى اشتريت الكتاب عن طريق الإنترنت وعرفت أن شحنه سيأخذ يومين من الوقت حتى يصل إلى

بيتي بحكم وجوده في مكتبة في سيدني.

أخذت أعد الأيام في انتظار الكتاب الذي ربما يحتوي بداخله على معلومات قيمة ونادرة عن معركة الوزير غير تلك المعلومات المستقاة من مذكرات ورسائل الجنود الأستراليين السطحية التي تتطابق تقريبًا في وجهات النظر ولا يوجد منها أي نفع لي في بحثي. لقد ذكر الأستراليون في مذكراتهم عن معركة الوزير أن الشرطة المصرية والبوليس الحربي قد انضما إلى المعركة المستعرة في الحارة، وأن إطلاق النار بدأ من جانبهم بحماقة وتسرع ساعدت على اشتعال الموقف ووقوع ضحايا. لا يمكن لفرقة كبيرة من الشرطة المصرية أن تنضم إلى معركة في قلب القاهرة وتطلق النيران ونائب الحكمدار لا يعلم عنها شيئًا. لا بد أنه يعلم خلفيات هذا القرار خاصةً وأن هناك محاكمةً تمت يوم السبت ٣ إبريل ١٩١٥م، بالطبع كانت محاكمة صورية باعتراف الجميع. لا بد أن ما وراء هذه الأحداث والمحاكمة والقرارات كلها مذكورٌ في مذكرات (راسل) باشا. لو كان في الخدمة في الحكمدارية في القاهرة منذ ١٩١١م حتى ١٩٤٦م فلا يمكنه أبدًا أن يتجاهل هذا الحدث الجلل، ليس وحفظ الأمن والأمان في الشارع المصري هو مسؤوليته الأولى والأخيرة.

أخيرًا وصل الكتاب في طرد متوسط ففتحته بسرعة

وشممت رائحة الطباعة الجديدة من الكتاب الذي نشر أول مرة عام ١٩٤٩م. ذهبت إلى مكتبي وأخذت أقرأه بكل نهم واهتمام صفحة صفحة بكل دقة حتى لا يفوتني شيء ثم أنهيته في مساء نفس اليوم بعد أن أصبت بخيبة أمل كبيرة. فالكتاب ذو المائتين وأربعٍ وتسعين صفحة لم يأتِ على ذكر معركة الوزير أو أحداث (الوسعة) أو شغب الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين في الأزبكية ولو مرة واحدة وكأنه لم يكن في مصر في هذا الوقت. بالرغم من المعلومات القيمة التي يحتويها الكتاب عن هذه الفترة والمشاكل الأمنية الموجودة في مصر حينها، إلا أنه يؤكد أن لا دخل له بالسياسة وأن جل اهتمامه كان الوضع الأمني والجرائم الجنائية. في الكتاب يتحدث (راسل) باشا عن حياته المبكرة وانضمامه للعمل في مصر، ثم نظام الأمن في مصر والصحراء والسطو وكلاب الشرطة وحواة الأفاعي والغجر، ثم تحدث عن فترة عمله في الإسكندرية ثم القاهرة تحدث فيها عن المجتمع السفلي، وهنا أتى على ذكر (إبراهيم الغربي) في سطور قليلة لا تفيد، ثم الجريمة السياسية وقد كان تركيزه منصبًا على الجرائم السياسية أثناء عمله كحكمدار بعد عام ١٩١٧م وفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، ثم استفاض في حديثه عن المخدرات صاحبة أكبر نصيب من مذكراته وهو يتحدث بالتفصيل عنها وعن كل ما يتعلق بها من أسباب

وأشكال وطرق تهريب ونشأة وحضوره الإقليمي والعالمي في هذا المجال.

لا أستطيع أن أصدق خلو هذه المذكرات عن أي تفاصيل أو حتى تنويه عن هذه الأحداث التي يعتبرها الأستراليون معركة خرجوا منها منتصرين ومذكورة في سجلاتهم وأرشيفهم الحربي. هل من الممكن أن يكون هناك شيءٌ ناقص في هذه المذكرات؟ من الطبيعي أن تكون هناك مسودة لأي كتاب تحتوي على عمل المؤلف بالكامل، ثم تخضع للقص والمراجعة والتنقيح والتحرير مما يخرج العمل بشكله النهائي في نسخته المطبوعة، لكنه ينقص بعض المقاطع التي يراها المحرر أو الناشر لا تخدم الكتاب تسويقيًا. أنا متأكد أن هناك مسودة للكتاب بها معلوماتٍ أكثر تفصيلًا، وربما تحتوي هذه المسودة على بعض المعلومات عن أحداث (الوسعة). لا بد لي أن أصل إلى صائد السلمون هذا.

لجأت مرة جديدة إلى صديقتي الشبكة العالمية الإنترنت وقمت بعمل بحث أكثر تخصيصًا عن عائلة (راسل) باشا. عرفت أنه كان له ابنة كبرى اسمها (كاميلا جورجيانا) توفيت عام ١٩٨٣م بعد أن تزوجت (كريستوفر سايكس) المؤلف الإنجليزي من عائلة (سايكس) الشهيرة باتفاق (سايكس-بيكو)، وابن أصغر اسمه سير (جون راسل) توفى أيضًا عام

١٩٨٤م بعد حياة دبلوماسية حافلة. سير (جون راسل) هذا له هو أيضًا ابنة اسمها (جورجينا ألكسندر) وابن اسمه (ألكسندر شارلز راسل) ولا يزال حيًا ويعمل في لندن. إذا افترضت أن لراسل باشا مذكرات مكتوبة بخط يده، فسيورثها لابنه الذكر الذي يورثها هو أيضًا لابنه الذكر الآخر، وعلى هذا من الممكن أن يكون السيد (ألكسندر شارلز راسل) قد ورث هذه المذكرات وهي في حوزته الآن. يبدو هذا التفسير مقبولًا فالبريطانيون يعتزون بإرثهم مهما كان من تاج أو عرش أو مقاطعة أو لقب أو حتى كتاب. هل من الممكن أن تساعدني الظروف بسلسلة من المصادفات وأصل إلى السيد (ألكسندر راسل) الذي يصادف أيضًا أنه يمتلك في حوزته مذكرات جده؟ التي تصادف أيضًا أن تحتوي على مسودة بخط يد (راسل) باشا بنفسه؟ فأين يعمل السيد ألكسندر؟

الشبكة العالمية لا تستر أحدًا أبدًا. بالبحث عن اسمه عرفت أنه يعمل حاليًا كمدير تنفيذي بشركة Ros realisation limited) (-Chester Row London.. أين سمعت عن اسم هذه الشركة؟ أنا متأكد أنني سمعت عنها يومًا ما. ربما في الأخبار أو الصحف أو ...ثم تذكرته. صديقي الإنجليزي (دايفيد مكهيوجو) من كلية إدارة الأعمال بجامعة ليستر التي حصلت من خلالها على ماجيستير إدارة الأعمال بدوام جزئي. كنا نداوم على حضور محاضرات الدوام الجزئي سويًا

في حرم الجامعة بمدينة المعرفة بدبي حين كان كلينا يعيش ويعمل فيها، وعندما انتهت الدراسة منذ عامين تقريبًا سافرنا معًا وحضرنا مراسم حفل التخرج في جامعة ليستر العريقة، ثم قضيت في نفس الزيارة أسبوعًا في لندن استضافني فيه في منزل عائلته، وقام بمرافقتي في رحلتي السياحية في لندن لأنها أول زيارة لي فيها. أخبرني ساعتها أنه سيرجع إلى لندن بعد شهور بعد أن حصل على عرض جيد للعمل في شركة ما مقرها في Chester Row London. لقد كان شخصًا لطيفًا وصديقًا عزيزًا صقلت علاقتنا سنتان من المذاكرة والاختبارات سويًا، إضافة إلى أنه اكتسب العديد من العادات العربية والصفات العربية بحكم إقامته الطويلة في دول الخليج مما جعله مقربًا مني. صحيح أننا لم نتبادل الرسائل خلال آخر عام لكنه بالتأكيد سيساعدني إن استطاع.

***

رسالة إلكترونية (١) من: (عفت البدوي) إلى (دافيد مكهيوجو)

«صديقي العزيز (دافيد) كيف حالك؟ أعتذر لك عن انقطاعي طوال هذه الفترة عن التواصل معك منذ تخرجنا من كلية إدارة الأعمال منذ عامين. لكن عندما تعرف السبب ستعذرني. كما أخبرتك سابقًا فقد نفذت خطتي أخيرًا

وهاجرت إلى أستراليا وأخذت الخطوة التي ترددت كثيرًا فيها. أنت تعلم كم من الجهد والوقت والأموال التي تنفق في سبيل استقرار مهاجر جديد في وطن جديد يختلف بالكلية عن الوطن الأم في اللغة والثقافة والعادات والأنظمة. لكن الحمد لله استقرينا في أستراليا أخيرًا كأسرة وخطونا أكبر خطوة في ذلك الاتجاه. أخبرني عنك يا صديقي العزيز. كيف حالك وحال زوجتك؟ هل لا تزال تعمل في تلك الشركة في Chester Row London؟ أتمنى أن نبقى على اتصال فأنت صديق عزيز يهمني أمره.

صديقك

(عفت البدوي)»

***

«رسالة إلكترونية (٢) من: (دافيد مكهيوجو) إلى (عفت البدوي)

أهلا يا صديقي العزيز رفيق دبي. لقد أعادتني رسالتك اللطيفة إلى تلك الأيام التي قضيناها في مدينة المعرفة في دبي والاختبارات في المركز الثقافي الإنجليزي. كم أشتاق إلى تلك الأيام وإليك وإلى زملائنا في برنامج ماجستير إدارة الأعمال في دبي بل أشتاق إلى دبي نفسها.

تهانيّ الحارة لك ولأسرتك أنكم استطعتم أن تقوموا بهذه الخطوة المهمة في حياتكم. أتعلم؟ نحن الآن نتبع نفس العرش يا صديقي. نعم كما أخبرتك سابقًا فقد انتقلت للعمل في لندن في شركة **DKJ- in Chester Row London** وأنا الآن قائد فريق بإدارة التسويق أنفذ مبادئ التسويق التي تعلمناها سويًا في إدارة الأعمال. سعيد باتصالك.

المخلص

(دافيد مكهيوجو)»

***

رسالة إلكترونية (٣) من (عفت البدوي) إلى (ديفيد مكهيوجو)

«عزيزي (دافيد). سعدت كثيرًا برسالتك وأتمنى أن نجتمع مرة أخرى سواء تحت العرش البريطاني أو تحت السماء الزرقاء، فالعالم قد أصبح قريةً صغيرة، فها أنا وأنت على بعد آلاف الكيلومترات بينما نتبادل الرسائل بكبسة زر واحدة. سعيد بأنك تتقدم بطريقة جيدة في عملك. عندي سؤال لك أتمنى أن يتسنى لك الوقت لمساعدتي فيه. أعذرني في سؤالي الجاهل وأنا أعلم أن

Chester Row -London بها عشرات وربما مئات الشركات. هل صودف أنك تعرف شخصًا يعمل كمديرٍ تنفيذي في شركة **Ros Realisation** الموجودة أيضًا في **Chester Row-London** يسمى السيد (ألكساندر تشارلز توماس ريوتيسلي راسل)؟ هذا الشخص أريد أن أسأله عن شيء ما بخصوص جده (توماس راسل). ماذا تعتقد بشأن هذا؟ هل من الممكن أن تساعدني في هذا الأمر؟

صديقك (عفت)»

***

رسالة إلكترونية (٤) من (ديفيد مكهيوجو) إلى (عفت البدوي)

«عزيزي (عفت). شكرًا على خطابك اللطيف. بالطبع كل من يعمل في **Chester Row** يعلم السيد (ألكسندر تشارلز راسل). إنه شخص لطيف وودود نقابله دائمًا إما في فترة الصباح على مقهى ستاربكس عندما يطلب قهوة الصباح، أو في فترة الظهيرة في صالة المطاعم حين يتناول الغداء. وللغرابة فإنه برغم أصوله النبيلة الأرستقراطية فإنه شخص بسيط يحب الضحك والدعابات مع الجميع، ويتواجد في المطاعم والمقاهي

العادية ويختلط بنا جميعًا دون حرج أو تعالي. بعضنا يسميه دوق ألكسندر ولكنه يتقبل ذلك بالضحك. أنا متأكد أنه سيساعدك لو طلبت منه أي شيء.

صديقك (ديفيد).»

***

رسالة إلكترونية (٥) من (عفت البدوي) إلى (دافيد مكهيوجو)

«عزيزي (ديفيد). أشكرك جزيلًا على خطابك. كم أنا سعيد بما فيه. أتمنى أن يساعدني السيد (ألكسندر) بخصوص مذكرات جده توماس باشا راسل الذي كان حكمدار القاهرة حتى عام ١٩٤٦م. أقوم ببحث تاريخي عن حدث ما وقع خلال هذه الفترة من الزمن في القاهرة، ووجدت كتاب (راسل) باشا في الأسواق وقرأته، لكني لم أجد ما أبحث عنه فيه. لدي هاجس أن ما أبحث عنه ربما يكون موجودًا في مسودة المذكرات المكتوبة بخط يده، أو أن ما أريده ربما تم حذفه أثناء تحرير الكتاب ربما لعدم جدواه التسويقية وقت نشره عام ١٩٤٩م، لكنه بالنسبة لي مهم لأني أبحث عن معلومة معينة عن حدث معين وقع عام ١٩١٥م وراسل باشا أكيد كان شاهدًا عليه بحكم منصبه ذلك الوقت كنائب لحكمدار القاهرة. هل تعتقد أن السيد

(ألكسندر) يستطيع أن يساعدني في هذا الأمر.

صديقك (عفت)»

***

رسالة إلكترونية (٦) من (ديفيد مكهيوجو) إلى (عفت البدوي)

«عزيزي (عفت). لا أدري ماذا صنعتَ بهذا الرجل السيد (ألكساندر) عندما أخبرته بما ذكرته لي في رسالتك السابقة. لقد طار الرجل فرحًا عندما أخبرته باهتمامك بالبحث والتنقيب عن حدث تاريخي في مصر وأنك تثق في قيمة ومصداقية مذكرات جده (راسل) باشا، في الوقت الذي يوجد فيه العديد من المصريين الذين يقابلهم ويتعامل معهم لا يزالون يعتبرون جده مجرد أحد جنود الاحتلال البريطاني لمصر الذي امتص خيراتها وبدد ثرواتها، ويتنكرون لجهوده لإحلال الأمن والحفاظ على المجتمع المصري من الجريمة والمخدرات.

وهو يهنئك على فراستك مرتين، فمذكرات جده بخط يده موجودة كاملة كإرث للأحفاد ومحفوظة جيدًا لدى أخته الكبرى (جورجينا) التي تحتفظ بها لقيمتها العاطفية لها، فهي لا تزال تتذكر جدنا (راسل) باشا وقد مات وهي

في سن ٩ سنوات، فقد كان يخبرها عندما يأخذها في رحلات صيد السلمون عن حكاياته في مصر وشغفه بها وبأهلها ذلك الوقت. والمرة الثانية يهنئك فيها على ذكائك فهناك فعلًا أجزاء عديدة تم اقتطاعها من المذكرات لسبب أو لآخر.

ومن شدة سعادة الرجل بطلبك، فقد ذهب إلى أخته في الحال وأقنعها أن يقوم بعمل نسخة إلكترونية بالمسح الضوئي للمذكرات لأن الأحبار الأصلية بها تخفت ويبهت لونها مع الزمن وستختفي الكلمات مع مرور الوقت. وافقت أخته فأخذ المذكرات ثم أرسلها إلى مكتب للمسح والتصوير الضوئي الإلكتروني، ويقدمها إليك خدمةً للبحث والباحثين متمنيًا أن تجد فيها ما تبحث عنه من حقيقة.

صديقك (دايفيد)»

المرفقات: ملف (بي دي إف) باسم: مسودة مذكرات (راسل) باشا بخط يده...

***

بخط اليد. (عفت البدوي-سيدني-الحاضر)

لم أكن أتخيل أن تساعدني الظروف بهذه الطريقة لأحصل على هذا الملف المهم الذي قد يقودني إلى كشف الحقيقة.

لكن لألجم تطلعاتي فلا يزال الأمل ضعيفًا في أن أجد في هذه المذكرات معلومات دقيقة ومفصلة في موضوع (أنجيلا) أو (واين) أو (محمد خليل). فمن الجائز أن (راسل) باشا لم يجد في الموضوع ما يستحق الذكر فعلًا. على أي حال إن لم أجد ما يفيدني في هذا الأمر خلال تلك المذكرات، سأتركه برمته فلا أعتقد أن هناك ما يمكن فعله في هذا الشأن أكثر من ذلك.

فتحت الملف الإلكتروني على الحاسوب وأخذت أقرأ بصعوبة خط يد (راسل) باشا حكمدار القاهرة بنفسه. الخط جميل والأسلوب راقٍ لكن الحبر فعلًا بدأ بالتحلل والاختفاء على الورق المصفرّ فهناك كلمات كثيرة مختفية كليًا أو جزئيًا. بدأت أقارن بين مسودة خط اليد على شاشة الحاسب وبين الكتاب المطبوع في يدي «في الخدمة المصرية». يبدو أن هناك تطابقًا إلى حد كبير، لكن هناك على النسخة بخط اليد بعض التعديلات اليدوية والشطب على كلمات أو جمل وأحيانًا مقطع كامل، لكن لا يزال المعنى العام غير مختلف دون مفاجئات. يبدو أنها علامات من المحرر أو المدقق اللغوي. أخذت أقلب الصفحات بين يدي وبين شاشة الحاسوب أحاول ألا يتسلل اليأس إليّ وأن أبقى شعلة الأمل متقدة في أن أجد شيئًا ما قد يفيدني، لكن الصفحات والفصول أخذت تمرق أمامي وبين أصابعي كالرمال الناعمة،

ولا زلت لا أجد شيئًا مختلفًا أو مميزًا عن الكتاب المطبوع. وبعد أن انتهيت من الفصول الأخيرة المفصلة عن المخدرات واستعددت للنهاية ولخيبة الأمل، انتهى الكتاب في يدي مع آخر المرفقات والمصطلحات والخرائط والفهرس، لكن الملف الإلكتروني بخط اليد لم ينته بعد. وجدت بعض الصفحات البيضاء ثم صفحة مكتوب عليها بالخط العريض بنفس خط يد (راسل) باشا «**الفساد في مصر ...أحداث (الوسعة) الجمعة العظيمة ٢ إبريل ١٩١٥ م**».

لقد وجدت ما كنت أبحث عنه تمامًا كما كنت أنتظر. حوالي خمسة عشر صفحةً من الحجم الكبير تنتظرني لأعرف الحقيقة أو على الأقل جزءًا كبيرًا منها. لكن لماذا حذفت هذه الصفحات بالذات من مذكرات (راسل) باشا؟ أظن أنني لن أعرف الحقيقة حتى أقرأها. قلبت أول صفحة بنهم لأقرئها فصدمت في وجهي بإجابة السؤال الذي كنت أسأله منذ لحظات. كانت الصفحة التالية عليها كلمات بخط يد مختلف مكتوب عليها:

«**نصيحة ملزمة من مكتب رئيس الوزراء البريطاني كليمنت أتلي ومكتب وزير الخارجية إرنست بيفن بعدم نشر هذا الجزء من المذكرات للعامة سواء في بريطانيا أو مستعمراتها، نتيجة لما يحتويه من معلومات قد تضر**

بمصالح الإمبراطورية البريطانية مع كل من دولة أستراليا الحليفة ومع الأسرة الحاكمة في مصر حاليًا. ويجب على الكاتب أن يعلنها صراحة أن تلك المذكرات تعبر عن رأي صاحبها كحكمدار أمني فقط لا يأبه إلا إلى القضايا الأمنية وينئى بنفسه عما سواها. وعلى هذا فإن هذه النصيحة ملزمة لكل من الناشر والكاتب على أن تراجع هذه الأوامر بعد خمسة وعشرين عامًا من تاريخه»

ثم ذُيلت الورقة ببعض الإمضاءات ثم ختم من وزارة الخارجية وختم من مكتب رئيس الوزراء البريطاني مذيلٌ بتاريخ ٥ فبراير ١٩٤٩م!

إذا عرف السبب بطل العجب! ثم بدأت أقرأ الصفحات بتأنٍ.

الفصل السادس الفصل المحذوف

الفساد في مصر. أحداث (الوسعة) -الجمعة العظيمة ٢ أبريل ١٩١٥م بخط يد توماس راسل باشا حكمدار القاهرة (نائب حكمدار القاهرة أثناء الأحداث)

لا يمكن أن أنهي مذكراتي دون أن أشير إلى أحد الأمراض السرطانية المتفشية في مصر وهو الفساد. للفساد في مصر أشكال عديدة كالفساد الإداري والمالي والوظيفي وغيرها. وأنا كأحد قادة الشرطة المصرية وأحد المفتشين والمراجعين طوال أربعة وأربعين عامًا، لمست بنفسي حالاتٍ عديدة من الفساد في مصر على مختلف المستويات. ولأني من المحافظين على الأمن في هذا البلد فكان لا بد لي أن أحتك بعناصر هذا الفساد في أكثر من مناسبة وبأكثر من طريقة. كانت ذروة هذا الاحتكاك بالنسبة لي في أحداث (الوسعة) ٢ أبريل ١٩١٥م أو ما تسمى بمعركة الوزير، حيث لمست بنفسي كيف لأصابع هذا الفساد أن تتحكم في مصير وحيوات الناس الأبرياء فتقرر من يحيا ومن يموت ومن يُنسى أمره إلى الأبد. ولا أبرئ نفسي ووطني من المسؤولية عن ذلك الفساد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فكثير من الأحداث والمشاهدات والبراهين قد مرقت أمام أعيننا كإدارة بريطانية للمملكة المصرية، ولكننا غضضنا الطرف عنها أو على الأقل لم

نعطها قدرها الحقيقي، وفي النهاية قمنا بإسدال الستار عليها بأيدينا درءًا للمشاكل وتمييعًا للأمور، لكن للأسف بعد سقوط ضحايا أبرياء، فكانت تلك من المرات المؤلمة التي لم يكن بوسعي أن أقوم فيها بدوري على أكمل وجه، فأقصى ما بذلته من جهد كان كمواطن بريطاني أكثر منه كشرطي في الخدمة المصرية.

حتى تدركوا معي الصورة الكاملة، سوف أذكر لكم بعض تقارير المراقبة الهاتفية أو الميدانية التي جمعتها جنبًا إلى جنب بعد انتهاء الأحداث كقطع الأحجية المتناثرة حتى اكتملت الصورة أمامي كما سأرويها لكم. لكن لأبرئ زمتي أمام الرب، فالصورة لم تظهر مكتملة بالنسبة إليّ إلا بعد انتهاء هذه الأحداث وهذا ما زاد من ألمي وخجلي وشعوري بالإحباط والفشل. ولكي أبدأ البداية الصحيحة لا بد أن أعطيكم نبذة عن عناصر تلك المؤامرة.

***

(جورج فلبيدوس) مدير مكتب البوليس السياسي. (مسودة مذكرات راسل باشا)

حدثتكم في الفصل الثالث عشر من هذه المذكرات تحت اسم (القاهرة) عن مدير مكتب البوليس السياسي المدنيّ الشاميّ الأصل، وأخبرتكم عن ثقة (هارفي) باشا حكمدار

القاهرة المطلقة فيه. وكان (هارفي) باشا حكمدارًا للقاهرة حتى عام ١٩١٧م بينما كنت أنا نائبًا له في الفترة من ١٩١١م حتى ١٩١٧م . سأعطيكم المزيد من التفاصيل عن هذا الرجل (فلبيدوس) حيث أنه أحد أيادي الفساد في هذه القضية والمحرك الأساسي فيها. لقد جعلتني هذه القضية أستمر بعدها في ترصده ومراقبته بطريقة غير رسمية حتى استطعت أن أبرهن لـ(هارفي) باشا فساده عام ١٩١٦م في قضية رشوة مع وجود شاهدين، فوافق (هارفي) باشا أخيرًا على مراقبته الرسمية منذ ١٩١٦م حتى حصلت على الدلائل والبراهين اللازمة وأقمت دعوى ضده وحوكم أخيرًا وحكم عليه بالسجن خمسة أعوام.

أنشئ مكتب الخدمة السرية أو مكتب البوليس السياسي بعد اغتيال رئيس الوزراء المصري بطرس غالي ١٩١٠م بهدف حماية رجال الدولة والسرايا والمصالح البريطانية. كان (هارفي) باشا أول من تولى هذا المكتب، لكن بعد ترقيته وتوليه حكمدارية القاهرة قام بتعيين الشيطان نفسه كرئيس لمكتب الخدمة السرية وكان هذا الشيطان هو ذلك الرجل (جورج فلبيدوس). (جورج فلبيدوس) من أصل شامي مثقف ويتحدث لغات عديدة كالإنجليزية والفرنسية إلى جانب العربية بلهجات عديدة. عندما كنت أراه كنت أظنه صاحب محل حلويات شامية بجسده السمين ووجهه

العريض الوردي وشاربه اللامع الطويل معقوف الجانبين مع ابتسامة تظنها بلهاء لكنها غامضة شيطانية شريرة.

كان (فلبيدوس) طموحًا ميكيافيليًا منذ كان شابًا في دمشق. حاول سلوك طريق الشرطة كعمل لكنه طرد سريعًا هناك بسبب قضايا أخلاقية، لكنه انضم بعدها كمرشد سري للبريطانيين واستطاع من خلال هذا العمل أن يكسب ثقتهم بالتبليغ عن شباب المقاومة، فاستقدمته الإدارة البريطانية إلى مصر مع بداية توغلها فيها، وعمل معهم في الإسكندرية ثم في القاهرة بكفاءةٍ مرضية حيث كان يستخدم أبشع وأحقر الوسائل للاستجواب واستخراج المعلومات والإيقاع بين المتهمين. وعندما حدثت واقعة دنشواي ثم مقتل بطرس غالي على يد أحد أعضاء الحزب الوطني، قام البريطانيون بإنشاء مكتب الخدمة السرية فكان (فلبيدوس) أول من انضم إليه لتطابق مؤهلاته ومهاراته مع أسلوب البوليس السياسي. ثم كان من أوائل من أوفد إلى روسيا للتدريب على أساليب قمع الحركات الوطنية التي ابتدعها جهاز الأمن الروسي (التشيكا) فصار خبيرًا فيها بل ومعلمًا لها يتخرج من تحت يديه عشرات من ضباط الخدمة السرية حديثي التخرج أو حديثي الانضمام.

كان (فلبيدوس) هو المؤسس الفعلي لمكتب البوليس

السياسي بشكله الحالي، وأعطى المكتب صلاحياتٍ جعلت منه أقوى مكتب في الحكمدارية، بل إن الحكمدار نفسه أصبح يخشاه مع مرور الوقت. وكما ذكرت سالفًا أنني تلقيت العديد من التحذيرات من زملائي في الحكمدارية من محاولة الاحتكاك به خاصة مع ثقة (هارفي) باشا المطلقة فيه. وكما هو متوقع، صلاحيات زائدة مع عدم وجود الرقابة الكافية والتحكم الصارم يعني المزيد من فرص الفساد. كانت مطاردة أعضاء الحزب الوطني ونفيهم من مصر باستخدام وتفعيل قانون النفي الإداري والتخلص منهم خارج مصر بعد نفي زعيم الحزب الوطني (محمد فريد) ١٩١٢ م هي إحدى مهام المكتب التي برعوا في أدائها. وكان من صلاحيات (فلبيدوس) أن يكتب التقارير السرية في رجال الدولة وضباط الشرطة فيرفع من يشاء ويخسف الأرض بمن يشاء. يكفي أن يدعي أن شخصًا ما متعاطف مع الخديوي عباس حلمي الثاني أو الدولة العثمانية أو حتى يتفق في المبادئ مع الحزب الوطني المارق حتى يصادق على القضاء عليه بشتى الطرق التي تناسب كل ضحية. فأصبح الطريق إلى الترقيات أو الاستقرار الوظيفي يكون فقط عبر (فلبيدوس) طريقًا معبدًا بالرشاوي والهدايا العلنية والسرية.

مع بداية عام ١٩١٤م أصبح لا يوجد لدي مجال للشك في فساد (فلبيدوس) مدير مكتب البوليس السياسي، وأصبح

عندي قناعة أنها مسألة وقت قبل أن يحدث احتكاك بيني وبينه خاصةً وأنني لا أطيق الفساد والفاسدين وأتعقبهم وهذا ما تم بعد ذلك بسنين قليلة. فكرت أن أنسج شبكة من الجواسيس والمرشدين حوله لمراقبته وتبليغي بتقرير دوري عنه وعن أنشطته، لكن كان هذا شبه مستحيل لسببين: الأول أن (هارفي) باشا حكمدار القاهرة يثق في الرجل ثقة عمياء ولا يشك فيه قيد أنملة، وبالتالي لن يصرح أو يوافق على أي مراقبة رسمية للرجل، أما السبب الثاني أنه من المستحيل أن تراقب أقوى رجل في المملكة المصرية والذي يراقب نصف أهلها من كبيرهم إلى صغيرهم، ولديه ملفاتهم جميعًا ولديه جيش جرار من المرشدين والجواسيس والعيون في كل مكان. لهذا قررت أن آمر بهذه المراقبة بطريقة غير رسمية وأبقيها سرية قدر الإمكان. لم يتبق لي إلا شركة التليفونات لتساعدني في مراقبة الرجل، فأقمت اتفاقًا مع مدير شركة التليفونات بمراقبة هاتف (فلبيدوس) الشخصي في مكتبه وفي منزله، وكانت هذه أول مرة تحدث فيها مراقبة هاتف في مصر بل في المنطقة بأسرها لأنها تقنية حديثة لم يتوسع استخدامها في العالم ذلك الوقت وبالتالي ما كان (فلبيدوس) ليشك بالأمر. طبعًا كان من الصعب إقناع مدير شركة التليفونات بالأمر مع خوفه من أقوى رجل بمصر، لكني وعدته بحمايته هو وأسرته من (فلبيودس) لو اكتشف الأمر،

فوافق وأصبح يعد لي تقرير شبه يومي بالمكالمات الهاتفية الخاصة التي تستقبل أو ترسل من مكتب أو منزل (جورج فلبيدوس)، وكان هذا إنجازًا كبيرًا لي وبداية الخيط للإيقاع بالشيطان الأخطبوط بالرغم من خطورة الأمر، فلو علم (هارفي) باشا بالأمر لوضعت موضع تساؤل.

***

الباشا (جميل) شبح السرايا. (مسودة مذكرات راسل باشا)

اليد الأخرى للفساد في هذه القضية هي يد السرايا، عبر شخصية غامضة غير معروفة ويشار إليها دائمًا في تقارير المراقبة الهاتفية باسم الباشا (جميل). كانت السرايا تنتفع من تسهيل تجارات غير قانونية كالرقيق الأبيض والمخدرات والبغاء بطرق غير مباشرة. لكن السرايا لم تكن لتربط اسم رجالها بعمليات وأنشطة قذرة مثل تلك التجارات، ولهذا كان على السرايا وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. شخص يستطيع بعلاقاته وقوة سيطرته التنسيق والربط بين القوى والإدارات المختلفة مع الأيادي الخارجية لتحقيق مصالح السرايا من هذه المصادر الملوثة دون أن يتورط رجالها في شيء، وعلى هذا الشخص أن يبقى في الظل بعيدًا عن العيون المترصدة أو الأنوف المتطفلة. مجهول لا يعرفه

أحد لكن نفوذه أقوى من أن يهمله أيٌّ من مدراء الإدارات الحكومية والسرية، فيكفي ذكر اسمه لتذليل كل الصعاب وفتح كل الأبواب. كان هذا هو الباشا (جميل) شبح السرايا المطّلع على كل الأمور دون أن يدركه أحد.

نعم اسمه الباشا (جميل) وليس (جميل) باشا. أولًا لأن اسم عائلته غير معروف أو مذكور في أي أوراق رسمية إمعانًا في السرية، ثانيًا للتفريق بينه وبين أي باشا آخر يتبع اسمه بباشا وربما يكون اسمه (جميل) أيضًا. في الحقيقة لم يكن الباشا (جميل) في حاجة لذكر قربه من السرايا كباشا فاسمه وبطاقة تعريفه غنية عن أي تعريف. للأمانة فحتى ذلك الوقت لم أستطع أن أكشف غموض هذه الشخصية وعلى أغلب الظن أن هذه وظيفة وليست شخص. فربما تكون هيئة أو مجموعة من الأشخاص المتعاقبين أو المتعاونين وليس شخصًا بعينه. هناك دائمًا جانبٌ مظلم في السرايا لم أستطع أن أكتشفه يومًا ولكني كنت أشعر دائمًا بتأثيره القوي وقدرته المطلقة.

***

المقدم (سنتي) بك والمخنث الغربي. (مسودة مذكرات راسل باشا)

تذكرون أيضًا (إبراهيم الغربي) ملك بيوت البغاء في

الأزبكية الذي ذكرته في فصل (العالم السفلي). لقد كانت قدرات هذا المخنث غريبة وغير محدودة. لقد كان ملكًا في عالمه ويخشاه الجميع. ليس في عالمه فقط، ففي هذه القضية أدركتُ بالدليل أن له علاقات مباشرة وسرية مع السرايا والبوليس السياسي وبالطبع إدارة حماية الآداب، إضافة إلى علاقات دولية مع مكاتب وعملاء مشبوهين. تصنيف (إبراهيم الغربي) كشهبندر تجار البغاء كما أسلفت سابقًا تقليل من شأنه، فمع وجود شخصيات مثل (فلبيدوس) والباشا (جميل) تتواجد تربة خصبة ليصبح وجود (إبراهيم الغربي) ونموه وتوحشه ضرورةً لإكمال مثلث الفساد، خاصةً وأنني أيقنت بالدليل أنه يتحكم أيضًا في إدارة حماية الآداب بقيادة المقدم (سنتي) الذي يسهّل للغربي وتجارته الشهادات الصحية المزورة ويتيح له التحكم الكامل في مصير مئات العاملين والعاملات في مملكته في مشاكلهم وقضاياهم ومعاقبتهم. لهذا كان عليّ أن أراقب (الغربي) فوضعت أحد المرشدين كعاملٍ في أحد بيوت البغاء، أما (سنتي) فكان من السهل مراقبته فنائبه الرائد (فيليبس) كان متعاونًا معي طمعًا في موقعه.

والآن سأخبركم بسلسلة من التقارير التي وردتني لأضع أمام أعينكم الصورة كاملة التي كما أخبرتكم لم تكتمل أوتتضح لي إلا بعد انتهاء الأحداث وفوات الأوان وضياع

فرصة وأد الفساد في مهده.

***

تقرير ميداني (١) من الرائد (فيليبس) التاريخ ٢٧ يناير ١٩١٥م المكان فيلا مكتب حماية الآداب بالقرب من ميدان الإسماعيلية. (مسودة مذكرات راسل باشا)

هذا الصباح تلقى المقدم (سنتي) مكالمة هاتفية غاضبة من قيادة القوات الإنجليزية توبخه وتخبره فيها عن امتعاضها من أداء مكتب حماية الآداب، وعدم قدرته على ضبط تجارة البغاء وتنظيم أمورها بالشكل المطلوب، مما أدى إلى وجود العديد من العاملات في مهنة البغاء في (الوسعة) و(وش البركة) يمارسون المهنة بشهادات صحية مزورة أو بدون شهادات أو تراخيص مما أدى إلى انتشار الأمراض الجنسية بين زبائن المهنة وأكثرهم من جنود التحالف الأستراليين والنيوزيلنديين، حتى تفشت هذه الأمراض بينهم فزادت وتيرة الإصابة في معسكراتهم لتصل إلى عشرة في المائة. القيادة الأسترالية الحليفة عبرت عن استيائها من عدم قدرة الإدارة البريطانية على ضبط هذه الأمور، والاضطرار لوقف رواتب الجنود المصابين لحثهم على الامتناع عن زيارة هذه الأماكن الموبوءة. الإدارة البريطانية وجهت أصابع الاتهام إلى المقدم (سنتي) بك ورجال مكتبه بأنهم لا يقومون بواجبهم

على أكمل وجه، وأن هناك شبهة فساد في إدارة المكتب وطلبوا منه إجراءات حاسمة لمعالجة الموقف في أسرع وقت.

كان المقدم (سنتي) في أشد حالاته حنقًا، وأخذ يتمتم بعبارات السب واللعن قبل أن يطلب مني أن أستدعي (إبراهيم الغربي) مساء اليوم. فقمت ببعث مرسال بالدعوة.

مر اليوم سريعًا وبعد العصر وصل (إبراهيم الغربي) إلى فيلا الإدارة بعربته الحنطور الفارهة، وهو يرتدي ملبسه النسائي الرسمي المعتاد، الملاءة اللف المصنوعة من الكريشة الدمياطي والمشغولة بشغل الظرافة وهي عقد تشبه الأهرامات تتحلى به رأس الملاءة اللف والبرقع المطرز بقطع الذهب والفضة فوق جلابية وردية من الحرير يرقد عليها طن من قلائد الذهب، إضافة إلى مساحيق التجميل المبالغ فيها على وجهه التي لا تكاد تظهر وجهه الداكن الأسمر وشفاهه الغليظة.. نزل سائق العربة الحنطور وساعد (إبراهيم الغربي) على النزول منها فنزل برقة أنثوية وبخطواتٍ ناعمة ويده الأخرى تمسك بأطراف الملاءة السوداء الفاخرة. أدخله الحارس على الفور علينا أنا و(سنتي) بك فدخل بخطوات واثقة قائلًا بصوته الرخو:

-سالخير عليكو يا بشوات.

رد (سنتي) السلام باهتمام وذوق ثم أشار لـ(إبراهيم) بالجلوس أمام مكتبه، فتجاهل (إبراهيم) دعوته وذهب إلى مجلس كبار الزوار الفاخر المخملي في جانب الغرفة وجلس عليه دون دعوة. هكذا كان (إبراهيم الغربي) لا يحب أن يجالس أحدًا في مقعد يقلل من قيمته أو يضعه موضع استجواب، فإن لم يكن هو على رأس المجلس فلتتساوى الرؤوس. كما أن (إبراهيم الغربي) يعتقد أن مقامه مساوٍ لمقام الوزراء بينما (سنتي) بك مجرد مقدم في الشرطة. فهم (سنتي) بك الرسالة وكتمها في قلبه وقام وتوجه إلى المجلس وجلس في الكرسي المقابل لـ(إبراهيم) ووقفت أنا على جانبه، فقال (إبراهيم) بطريقته الأنثوية المعتادة:

-يا ختي مابحبش قعدة المكاتب... بتخلي عرق النسا ينقح عليا... كدة أريح يا بشوات مش كدة؟

قال (سنتي) بهدوء:

-ولا يهمك يا سيد (إبراهيم).. حبيت أتكلم معاك عن شوية مشاكل ظهرت من بيوتك وكنا عايزين نعالجها قبل ما تكبر وتضرنا.

خبط (إبراهيم) كف يده اليمنى على صدره مع شهقة مصطنعة وقال:

-مشاكل إيه كفى الله الشر يا بشوات .... مشاكل عندي في بيوتي؟! هوا المعلوم مابقاش بيكفيكوا ولا إيه يا بشوات؟

قالها (الغربي) بنظرة خبيثة يفهمها (سنتي) جيدًا فتنحنح وقال:

-حاجة صغيرة كدة محتاجة نظرة منك يا ملك الأزبكية...

نظر إليه (الغربي) بتثاقل الأميرات وتململ الجميلات منتظرًا لما سيقوله (سنتي) بك فقال (سنتي) :

-جاتلنا شكوى من قيادة القوات الأسترالية من معسكرهم في (مينا) إن نسوانك موبوئين بالأمراض الجنسية اللي بتتنقل بين الجنود الأستراليين بسرعة كبيرة مش عارفين يحتووها. ويبدو الموضوع فيه شهادات صحية مضروبة... وإتجار غير رسمي بالبغاء.

قاطعه (إبراهيم الغربي) مشوحًا بيديه كسيدة تستعد لشجار حواري فاضح:

-قطع لسانهم التيران الأستراليين.. هما اللي دنيين ما بيصبروش.. أجيبلهم منين نسوان يقضوهم كل جمعة.. الطور من دول يخش البيت عايز يقوم باللي فيه كلهم بلا ذوق ولا دم ولا ملاطفة.. النسوان مرضت من بلاويهم يا (سنتي) بك.. احنا طول عمرنا نضاف ونسوانا فخادهم أنضف من فخاد

العذارى. الولية اللي مابتستحماش في اليوم تلات مرات بالصابونة أم ريحة بطردها للكلاب ينهشوها في الشارع. وكل أسبوع أبعت النسوان الجديدة «الحوض المرصود» يترخصوا قبل ما بوسة واحدة تطرقع على خدودهم.

قال (سنتي) مبتسمًا محاولًا كسر حدة النقاش:

-مفهوم ...مفهوم. المطلوب يا سيد (إبراهيم) إننا نمنع الشهادات المضروبة ونمنع أي عاهرة من العمل بدون شهادة صحية سليمة فورًا. إنت عارف إننا بنقدم تسهيلات كتيرة لنسوانك وقوادينك وأحيانًا إصدار شهادات الصحة بيشوبها بعض التجاوزات في الحوض المرصود ده عشان خاطرك عندنا. لكن الموضوع كبير لدرجة إن تقريبًا ربع الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين في مصر اتصابوا، ودول طالعين على جبهة خلال أسابيع. لدرجة إن قيادة قوات التحالف وقفت مرتبات الجنود المصابين لحد ما يخفوا عشان يبطلوا عط. لو الموضوع تطور أكتر من كدة أنا وانت هنتسائل من الناس الكبار. احنا في وقت حرب والجنود دول جم من آخر الدنيا عشان هدف الحرب والانتصار على أعداء الإمبراطورية. وده طبعا مش هيتم بجنود نصهم عندهم زهري وسيلان!

مط (الغربي) شفتيه الغليظتين في امتعاض وأصدر صوت

مصمصة من شدقه وهو يقول:

-المهم تعملوا انتو اللي عليكوا يا (سنتي) بيك ولا حابب أزود المعلوم؟ قول مايهمكش ..

تنحنح مرة أخرى (سنتي) بيك وهو ينظر تجاهي بإحراج وشرع في البدء بموضوع آخر:

-موضوع تاني عايزين نلمه يا سيد (إبراهيم). فيه بنت صغيرة اسمها (فكرية) بتدعي بكلام فاضي.

تململ (الغربي) وقال:

-واحنا فاضين يا (سنتي) بيك لكل من هب ودب يقول ويذم في الناس الشرفا؟ خير إن شاء الله؟

قال (سنتي):

-بتقول إن فيه واحدة من نسوانك اسمها (فتكات) سحبتها وغررت بيها وخدرتها ولما فاقت لقت نفسها معتدى عليها من واحد من رجالتك اسمه (طاهر النجس) ...ويبدو إن فيه صحفي بينكش في الموضوع وبيشجع البنت على الشكوى.

قاطعه (سنتي):

-إيه الأشكال دي يا (سنتي) بيه ..إزاي تسمع للأشكال دي. أنا أبعت أجيب النجس هنا وهو يعترف قدامك... لو الوسخ

عملها أستر على البت على طول وأخدها تحت جناحي. أمّال ده احنا عندنا ولايا ولا نرضاش بالظلم!

كنا أنا و(سنتي) نعرف هذه الحيلة المعتادة من فريق عمل (الغربي). تقوم سيدة يسمونها السّحّابة بإغراء إحدى الفتيات الصغيرات والتغرير بها بعد وعود بحياة رغيدة، ثم تخدرها ويعتدي عليها أحد رجاله وعندما تفيق تجد نفسها بين أحضانِ رجل ما، فإما أن ترضى بالحياة والعمل في بيوت الدعارة بإرادتها، أو تطلب الستر فيتزوجها ذلك الرجل ويطلقها في اليوم التالي لتعمل أيضًا في النهاية في بيوت البغاء التي تتطلب كل يوم دماءً جديدة مع زيادة الطلب على تجارة البغاء وازدهارها مع وجود قوات التحالف. فقال (سنتي) متممًا:

-بالضبط يا سيد (إبراهيم) . هات النجس يكتب على البت ونقفل المحضر وبعدين ياخدها وهو حر في مراته.

لم يمهله (الغربي) المزيد من الوقت وقام من مجلسه معلنًا انتهاء الاجتماع واكتفاءه من هذه الترهات التي تشتته عن إدارة تجارته المربحة. ودّعه المقدم (سنتي) بك فتوجه (الغربي) إلى عربته أمام بوابة الفيلا ورحل عنها.

نهاية التقرير.

الرائد فيليبس

***

تقرير (٢) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم السبت ٢٠ مارس ١٩١٥م الساعة ٧:١٥ مساء مع شخص يدعى الباشا (جميل). (مسودة مذكرات راسل باشا)

فلبيدوس بصوت صارم:

-مساء الخير ...ممكن أكلم سعادة الباشا (جميل)؟

صوت خادم:

-نقوله مين يا سعادة البيه؟

(فلبيدوس):

-(فلبيدوس) بك

فترة صمت لمدة ٤ دقائق ثم يأتي صوت رخيم هادئ:

-أهلًا يا (فلبيدوس)

تتحول لهجة (فلبيدوس) للحماس والاهتمام قائلًا:

-أهلًا يا رفعة الباشا.الباشا (جميل) نسينا ولا إيه؟ ما اتقابلناش من ساعة تنصيب صاحب العظمة وتلقينك لينا

لأوامر عظمته.

تنهد الباشا (جميل) وأتى صوت نفث دخان سيجارته قائلًا:

-مشاغل والله يا (جورج). السلطان ما بيعتمدش إلا على الباشا (جميل) في قضاء الحوائج. وانت عارف الحوائج دي مابتخلصش، وماحدش تاني يقدر يعملها غيري. انت فاهم طبعًا.

ورمى بنبرة خبيثة لفلبيدوس الذي فهمها فقال:

-الله يكون في عون سيادتك يا باشا واحنا كلنا تحت أمر عظمته وأمرك في أي شيء.

قال الباشا في امتنان:

-وإيه اللي فكرك بينا دلوقتي يا (جورج) بك؟

تحولت لهجة (فلبيدوس) إلى الجدية وقال:

-فيه موضوع قديم للسرايا يبدو إنه ما اتدفنش كويس وريحته بدأت تطلع. وبما إني ماكنتش طرف فيه من البداية فحبيت أنبه سعادتك عشان تتخذ اللازم. وانت عارف إن حماية رجالة السرايا من مهامنا هنا في المكتب، بس فيه مواضيع لازم تبدأ من ناحيتكم الأول.

اتضح الضيق على صوت الباشا فقال:

-تقصد أي موضوع يا (جورج)؟ انت عارف إني مابحبش المواضيع غير المنتهية.

فقال (فلبيدوس) بخبث:

-يبدو إن كان فيه فرسة إنجليزية كانت في قصر السلطان للركوبة الملكي، وبعدين انتوا اتخلصتوا منها ورجعتوها للعربجي اللي ورّدها من البداية عشان يوديها السلخانة. بس العربجي بدل ما يوديها السلخانة بقى بيستخدمها في مشاويره. وإنت عارف إن الفرسة دي لو اتعرف سرها صحابها مش هيسكتوا ولا ايه؟

فترة صمت مرت سريعًا ثم قال الباشا برتابة :

-يبقى تدفن الموضوع من غير دوشة يا (جورج) بيك.

قال (فلبيدوس) مبتسمًا:

-طبعًا طبعًا يا سعادة الباشا، بس الموضوع اتعقد حبتين ومحتاج شوية صلاحيات من سيادتك.

قال الباشا مستفسرًا:

-اتعقد ازاي؟

قال (فلبيدوس):

-للأسف فيه واحد من العيال بتوع الحزب المارق، وبيدعي

إنه صحفي بيفتش في الموضوع ده، وتوصل لمعلومات خطيرة ولو واصل الحفر من غير مانوقفه ممكن يغرق السفينة.

قاطعة الباشا بحدة:

-جرى إيه يا سعادة البيك؟ حتة عيل في الحزب الوطني ومش عارف تتخلص منه! إنت مش عارف تقوم بشغلك ولا إيه؟! انفيه ولا اخلص منه بمعرفتك. هيا جديدة عليك ولا ايه؟!

فرد (فلبيدوس) مسرعًا:

-يا باشا الولد ده أضعف حلقة في الموضوع. احنا مراقبينه ونعرف عنه كله حاجة وحاطينه في جيبنا، ونقدر نفركه بين صوابعنا زي الناموسة في الوقت المناسب. المشكلة اللي عندي في ثلاث جهات للأسف. مش بقولك متعقدة شوية؟

-إيه الثلاث جهات..

-العربجي إنت عارف إنه مش سهل وواصل. (الغربي) انت عارفه وعارف انه لو انقلب علينا ممكن يسبب مشاكل لينا أو على أقل تقدير دوشة مزعجة. ده حتى حاطط (سنتي) بك في جيبه ابن الجنيّة؟ الثاني جندي استرالي اتصاحب على الولد ويبدو إنه أخبره بقصة الفرسة الإنجليزية، وانت عارف

التيران دول مالناش عليهم سلطان. والثالث وده الأهم (توماس بك راسل).

سكت وتنهد تنهيدة ضيق وقال:

-ماله (راسل) بك؟

فرد (فلبيدوس) بامتعاض:

-البيك بيراقبني وحاططني في دماغه يا سعادة الباشا وده مقيدني حبتين.

ضحك الباشا (جميل) ضحكة مكتومة وقال معاندًا:

-مانت كمان بتراقبه و ريحتك فايحة في كل مكان يا (جورج). ده مفيش ظابط ولا موظف كبير بيترقى ولا بيتعين في وزارة ولا حكومة من غير تقرير منك بتكتبه للي يدفع أكتر.

كتم (فلبيدوس) غيظه وقال بخبث:

-كلٌ يغني على ليلاه يا سعادة الباشا. ومصر مش هتنضف لما (جورج فلبيدوس) يقعد في البيت مش كده ولا إيه؟! خاصة وإن كل الأسرار معاه.

فهم الباشا تلميحات (فلبيدوس) اللئيم. ففكر لثواني قبل أن يقول:

-أنا ليا سكة مع الحكمدارية. ممكن أعطله شوية لغاية ما تنهي الموضوع. وهسيبلك موضوع الواد الصحفي وصاحبه الأسترالي. أتفقنا؟

رد (فلبيدوس) مسرعًا:

-والغربي يا باشا؟

فكر قليلًا وحك ذقنه ثم قال الباشا:

-أنا هكلمه على التليفون أخوفه الأول عشان يتعاون في موضوع الفرسه وبعدين... تكلمه ونبقى نشوف. حاجة تانية يا (فلبيدوس) بك؟

يبدو أن الباشا يهم بإنهاء المكالمة فلحقه (فلبيدوس) متسائلًا:

-معلش سعادة الباشا سؤال أخير طالما حطينا إيدينا في إيد بعض من تاني. مين من السرايا اللي بالأهمية دي عشان نعمل كل ده عشان نغطي وراه.

توقف الباشا ثم قال بحزم:

-هتفرق معاك لو كان خليل أغا أو السلطان ذات نفسه؟

-لأ سعادتك.

فقال الباشا بكل غموض وعمق:

-إذن اعتبره أهم واحد في الدولة.. يمكن هو أهم واحد فعلًا!

انتهت المكالمة.

***

تقرير (٣) تسجيل مكالمة هاتفية واردة إلى (إبراهيم الغربي) في مقهى (نزهة النفوس) من الباشا (جميل) يوم السبت ٢٠ مارس ١٩١٥م الساعة ٨ مساء. (مسودة مذكرات راسل باشا)

الباشا بحزم:

-اديني (إبراهيم الغربي)..

-نقوله مين يا سيدنا؟

-قوله الباشا الكبير

فترة صمت. يأتي صوت (إبراهيم الغربي) الرخو:

-أهلا سعادة الباشا ...عاش من سمع صوت سعادتك ...

رد الباشا بصوت مقتضب:

-ايه يا (إبراهيم) مشاكلك كترت ليه؟

إبراهيم:

-خير اللهم اجعله خير... ايه الموضوع يا باشا؟ اه تقصد سعادتك (سنتي) بك...دي حاجات صغيرة بنخلصها مع حماية الآداب، مانت عارف (سنتي) بيك محبكها حبتين.

فرد الباشا بصوت أكثر غضبًا:

-انت هاتستعبط عليا يا (إبراهيم)؟! مشاكلك مع حماية الآداب تخصك انت، وانت عارف قد إيه بنساعدك فيها. أنا بتكلم عن المشكلة الإنجليزية.

صمت (إبراهيم) ثم رد بصوت مرتعد:

-أنهي مشكلة انجليز...

قاطعه الباشا بصرامة:

-مش عايز لف ودوران يا (إبراهيم). انت عارف أنا أقصد إيه. المشكلة الإنجليزية حصل فيها تطورات وانت نايم على ودانك والمشاكل بتطلع من جوة عِبّك.

قطّب (إبراهيم) حاجبيه وسأل:

- تطورات إيه يا سعادة الباشا. أنت طلبت أتخلص من المشكلة الإنجليزية وأنا خلصتك منها.

قاطعه الباشا بصرامة:

-ازاي يا (إبراهيم). خلصت منها ازاي؟

ابتلع (إبراهيم) ريقه وقال:

-خلصت منها يعني مش هتسمع حاجة عن المشكلة دي مرة تانية يا باشا أبدًا. أنا محيت المشكلة بطريقتي، ودلوقتي مفيش حد يقدر يتعرف عليها. إيه اللي جد؟

فرد الباشا بصوت هادئ عميق:

-اللي جد إن البوليس السياسي كان بيراقب عيل من أحزاب المعارضة وعرف إنه على علم بتفاصيل المشكلة الإنجليزية، وبيحاول كمان يستخدمها ضد السرايا. ودلوقتي (فلبيدوس) بك تدخل ومتابع الموضوع بنفسه.

صمت (الغربي) يحاول أن يستوعب. تدخل (فلبيدوس) في الموضوع ليس أمرًا هينًا. فأكمل الباشا (جميل):

-إنت عارف الإنجليز لو عرفوا بالمشكلة دي ممكن يحصل إيه؟ أظن مش محتاج أقولك. أنا أقدر أقوم الشرطة كلها على الأزبكية وأخلي عاليها واطيها وتنتهي انت وتجارتك ونسوانك من مصر تمامًا، وأخليك تقضي بقية حياتك تمسح حمامات سجن القلعة لغاية ما تموت. إنما احنا لسة باقيين عليك يا (إبراهيم).

لم يتمالك (الغربي) نفسه فصاح:

-جرى إيه يا باشا؟ مين اللي تنهيه من مصر. أنا محاشم مصر، ويوم ما انتهي هجرجركوا ورايا كلكم. المشكلة الإنجليزية دي مشكلتكم أنتم وأنا بداريلكم عليها بدل ما ريحتها المعفنة يشمها حد. صحيح أنا اللي جبتهالكم من بلادها من وسط أهلها وعملت المستحيل لغاية ما حطيتهالكوا على سراير السرايا على طبق من فضة، لكن بعد ما قزقزتوها وخلتوها لا تنفع طبلة ولا تار عايزيني بعد كدة أنضف زبالتكم وأفضل ملطوط فيها قدام الإنجليز طول العمر ودلوقتي تقولي هنهيك؟!

صمت الباشا طويلًا وكأنه لم يستوعب ما قيل له منذ لحظات، لا يجرؤ أحد على الحديث معه بهذه الطريقة أبدًا، ثم تمالك نفسه وقال بهدوء:

-أنا هديك فرصة أخيرة. الموضوع لسه ممكن يتلم بدون مشاكل. قدامك مدة أسبوع تتخلص فيها من المشكلة الإنجليزية تمامًا و(فلبيدوس) بك هيكلمك وتسمع كلامه بالحرف الواحد. المشكلة الإنجليزية لازم مايكونش ليها أصل ولا فصل. واحنا من ناحيتنا (فلبيدوس) هيتخلص من الولد اللي بينبش في الموضوع وننهي الموضوع تماما. معنديش كلام تاني!

انتهت المكالمة

***

تقرير (٤) تسجيل مكالمة هاتفية واردة إلى مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم السبت ٢٠ مارس ١٩١٥م الساعة ٨:٣٠ مساء مع شخص يدعى الباشا (جميل). (مسودة مذكرات راسل باشا)

-بعد ما ننتهي من المشكلة الإنجليزية لازم نخلص من العربجي ده إلى الأبد يا (فلبيدوس). بقى خطر على الجميع.

-أمر سعادتك يا باشا.

نهاية المكالمة

***

تقرير (٥) تسجيل مكالمة هاتفية واردة إلى (فلبيدوس) بك بمنزله يوم الجمعة ٢٦ مارس ١٩١٥م الساعة ٥:٤٥ مساء مع شخص يدعى (متولي العجان). (مسودة مذكرات راسل باشا)

-مساء الخير يا باشا.. أنا (متولي العجان)

فلبيدوس:

-خير يا (متولي) عندك بلاغ مهم؟

قال (متولي) بمنتهى الجدية واللهفة:

-موضوع لا يحتمل تأجيل يا باشا. الموضوع اللي سيادتك طلبت مني مراقبته في قهوة (نزهة النفوس). حصل تطور خطير. فيه جندي بريطاني اتخانق مع فتوات الصالة وبيدعي إنه أخو الفرسة الإنجليزية. فتوات القهوة ضربوه وراح مستشفى حلمية الزيتون.

صوت خبطات على سطح خشبي ثم صاح (فلبيدوس) يصيح حانقًا:

-الله يلعنك يا (غربي)... روح انت دلوقتي يا (متولي) وبلغني بالتطورات أول بأول.

-تحت أمر سعادتك.

نهاية المكالمة.

***

تقرير (٦) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم السبت ٢٦ مارس ١٩١٥م الساعة ٧,١٥ مساء مع الباشا جميل. (مسودة مذكرات راسل باشا)

فلبيدوس:

-مساء الخير سعادتك

-أهلا يا (فلبيدوس). إيه طمني... خلاص تم حل المشكلة الإنجليزية؟

تنحنح (فلبيدوس) ثم قال:

-للأسف لسه، وحصل تطورات أخطر وأسرع مما كنا نتوقع.

صمت الباشا لثواني يحاول أن يفهم الأمر ثم قال محاولًا الهدوء:

-ممكن تفهمني بهدوء وبالتفصيل يا (فلبيدوس) بك؟

-الفرسة الإنجليزية طلع ليها أخ في الفوج الإنجليزي الجديد في معسكر حلمية الزيتون. وللأسف اتعرف عليها اليوم في قهوة (نزهة النفوس) وحاول ياخدها بس فتوات الصالة ضربوه وطردوه وهو راقد دلوقتي في المستشفى في حلمية الزيتون.

صمت مرة أخرى وأتى صوت نفثه دخان سيجاره بعصبية. ثم قال وهو يضغط على كل حرف:

-الحيوان المخنث ابن الزانية ....

فأكمل (فلبيدوس):

-اسمحلي يا باشا أنا أتواصل مع (إبراهيم الغربي) وأضبط

له المسائل على طريقتي. المشكلة دي مش هتخلص إلا على طريقتي أنا يا سعادة الباشا.

تمم الباشا على كلامه فقال:

-ليكن ...(فلبيدوس) عايزك تحذر البأف ده وتوجهه خطوة بخطوة لحد ما يخلص الموضوع. وبعد ما يخلص أنا عايز أخلص منه شخصيًا في أسرع وقت.

فلبيدوس:

-أوامر سعادتك ...

نهاية المكالمة

***

تقرير (٧) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم السبت ٢٦ مارس ١٩١٥م الساعة ٩ مساء مع (إبراهيم الغربي). (مسودة مذكرات راسل باشا)

(فلبيدوس):

-ألو...اديني (إبراهيم الغربي) قوله البيك الكبير

أتى صوت (إبراهيم الغربي) المخنث قائلًا:

-سالخير يا بيه.

-مش عايز تقول حاجة عن المشكلة الإنجليزية يا سيد (غربي)؟

مصمص (الغربي) شفتيه كالنساء وقال:

-مانت عارف كل شيء يا باشا.

صمت (فلبيدوس) فأعطى رسالة بنفاذ صبره فشعر (الغربي) أنه لا بد أن يدلي بدلوه فقال مكملًا:

-أنا كنت مرقد للموضوع يومين كدة ونخلص منه ...بس اللي حصل حصل. وأنا أعرف منين إن ليها أخ في مصر.

قاطعه (فلبيدوس) صائحًا بصوت غاضب وعين مشتعلة يكاد نارها يخرج خارج السماعة:

-وليه ما اتصرفتش ساعتها على طول يا بأف؟ بدل ما الموضوع نلمه بيوسع مننا عشان اعتمدنا على خـ.... زيك.

استعد (الغربي) لشجار الحواري كعادة النساء وقال بعد أن أصدر صوتًا من حلقه:

-انتوا هتاخدوني بالصوت منك ليه... لأ ده انا....

قاطعه (فلبيدوس) بحزم محذرًا حتى لا يخوض في الغلط أكثر من ذلك وقال:

-أسكت يا غربي عشان ما تندمش على كلامك... أنا (فلبيدوس)! الموضوع يتلم الأول وبعدين نتعاتب. تأخيرك في حل المشكلة بيسبب لينا مشكلة ورا التانية واحنا كلنا في مركب واحدة.

كظم (الغربي) غيظه وسكت بعد أن أيقن أنه يتحدث مع أقوى رجل في مصر وليس فتوة في حارة، فأكمل (فلبيدوس) الداهية بهدوء الثعابين:

-لازم نخلص من المشكلة قبل ما توصل المعلومات للحكمدارية أو المندوب السامي، وييجي واحد زي (راسل) بيك يسأل ويفتش ويخرّج الموضوع خارج السيطرة. الواد أخوها مرمي في مستشفى حلمية الزيتون بعد ما رجالتك ضربوه، وقدامه أسبوع على الأقل على ما يقدر يتحرك ويخرج ولازم نخلص قبل كدة.

قال (الغربي) بتعقل بعد أن كظم غيظه:

-البت هخفيها مؤقتًا في بيت ما يعرفوش الجن الأزرق لغاية ما الأمور تهدا واخلص منها تمامًا...وهنزّل بدالها واحدة تانية تقريبًا شبهها بنفس اسم شهرتها عشان يبقى الواد يتقال عليه إنه كان سكران عينيه كانت منغششة وكان غلطان في البت.

ظل (فلبيدوس) مستمعًا للحديث دون أن يتكلم وهو يفكر بعمق في الخطة ثم قال:

-كويس بس مش كفاية. من المحتمل الولد ده يجيب كام جندي من صحابه يتحامى فيهم ويهجم على القهوة.

قال الغربي:

-ماتقلقش عندي رجالة تبلع الزلط.

رد (فلبيدوس) بامتعاض:

-لأ ..بالعكس يا حمار. الولد هييجي القهوة ومعاه كام واحد ممكن... عشرة أو عشرين وهيكونوا مستعدين للخناقة. سيبوهم يكسروا في القهوة زي ماهما عايزين . سيب رجالتك تتضرب وما يردوش، أو يمثلوا إنهم بيردوا حماية للقهوة وسيبوهم يكسروا منها كام كرسي على كام شباك، ومش هيلاقوا البنت في النهاية وهيمشوا. مش مشكلة لما نغرم كام جنيه بس هيبقى لينا حق عند الحكمدارية الإنجليزية وقادة الجيش الإنجليزي، ومش هيقدروا يفتشوا ولا يسألوا على بنت إنجليزية مخطوفة ولا غيرها. وتُقيد القضية زي أي شغب عادي لجنود إنجليز سكرانين، وتنتهي مع حرص الإدارة البريطانية على التعتيم عليها وعدم فتحها تجنبًا للإحراج. وبعدين نخلص من البت براحتنا وينتهي الموضوع.

قال (الغربي) مسرعًا:

-مين هيدفع فلوس التكسير والإصلاح يا باشا؟ أنا لسة مجدد القهوة وعاملها خمس نجوم أحسن قهوة في الأزبكية كلها ولا باريز.

تجاهله (فلبيدوس) وأكمل:

-الجمعة الجاية ٢ أبريل هو الوقت المناسب لإنها أجازة الجمعة العظيمة، والجنود هيكونوا من الصبح في بيوتك وقهاويك. عايزك اليومين دول تزود العيار حبتين يا غربي. عايزين الخدمة تكون أسوأ ما يمكن عشان يبقى الشغب مبرراته موجودة ونغلوش على موضوع البت تمامًا. انت مش كنت عايز تغلي الأسعار؟ ليه ما ترفعهاش للضعف؟

-ايه؟ انتوا عايزين تخسروني سمعتي وتبوّرولي تجارتي؟ ده مفيش جندي من جنود الحلفا عدى على مصر إلا وداق شهد نسوان (الغربي) ونبيت (الغربي)...

-ومرض الزهري من نسوان (الغربي)؟! ... والخمرة المغشوشةماية من قهاوي (الغربي)؟! ... بطل غلبة واسمع الكلام ونفذه ونهدي الأمور وبعدين نتحاسب.

صمت (الغربي) فأكمل (فلبيدوس):

-فهمت يا (غربي)؟ لازم تنفذ اللي قولتهولك بالحرف

الواحد. يوم الجمعة الجاية لازم الموضوع يتم بالشكل ده بالظبط.

رد (الغربي) بثقة:

-بعون المولى يا (فلبيدوس) باشا. كل شيء هيتم على مايرام بس يا ريت تحنن قلب الباشا (جميل) علينا.

-هكلمك يوم الجمعة بالليل، بس خلي بالك عيوني هتكون في المكان من أول النهار.

انتهت المكالمة.

***

تقرير (٨) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم السبت ٢٦ مارس ١٩١٥م الساعة ١٠ مساء مع الباشا جميل. (مسودة مذكرات راسل باشا)

-مساء الخير يا سعادة الباشا

-أهلا يا (جورج) طمني إيه الأخبار؟ فهمت الخـ.... ده؟

-فهمته على خطة مترتبة تمام يا باشا. (الغربي) هيزود الأسعار ويستفز الزباين من جنود التحالف فيتشاغبوا وتنشغل الحكمدارية في موضوع شغب عشرة عشرين جندي

سكرانين وتتوه الحقيقة لما ييجي الولد يبحث عن أخته. هيسيبهم يكسروا في القهوة وهيستبدل البنت الإنجليزية ببنت شبهها عشان يتقال إن الولد كان سكران عينيه منغششة. وبكده الموضوع يتقفل والحكمدارية والإدارة البريطانية يطرمخوا على شغب جنودهم واحنا نخلص من المشكلة دي.

فترة صمت مرت مع دخان سيجارة بهدوء يوحي برضا تام عن الخطة فأكمل (فلبيدوس):

-وقدامي دلوقتي إشعار للحكمدارية عن الولد بتاع الحزب الوطني بيقول إنه ثبت بالتحقيقات والمراقبة إنه مشترك مع كام عضو في الحزب الوطني المارق في التخطيط لعملية اغتيال شخصيات مهمة زي المندوب السامي البريطاني مثلًا. الورقة دي كفيلة إن كل شرطة القاهرة والجيش البريطاني يبحثوا عنه ويخلصوا منه قبل ما يفتح بقه خلال يوم أو يومين بالكتير.

تنفس الباشا الصعداء وقد شعر بأن (فلبيدوس) الداهية قد وضع يده على الخطة المحكمة للخلاص من هذه المشكلة وقال:

-والطور الأسترالي؟!

تنهد (فلبيدوس) وقال:

-ده محتاج ترتيب تاني يا باشا بس محلولة.

سكت الباشا قليلًا يفكر ولم يرد (فلبيدوس) أن يقطع حبل أفكاره حتى تكلم الباشا أخيرًا:

-فيه تعديل بسيط يا (جورج) على خطتك نضرب بيه عصفورين بحجر واحد.

ابدى (فلبيدوس) اهتمامه الكامل للباشا وبدى كله آذان صاغية فقال الباشا:

-عايزين نخلص من المخنث ده يوم الجمعة برضه.

-إزاي يا باشا؟

قال الباشا:

-الخــ... ده مشاكله كترت ولازم نخلص منه خصوصًا وهو يعرف كتير عننا. لأ وكمان اتجرأ وبقى بيهددنا وانت عارف السرايا محدش يهددها. ليه مانكبرش موضوع الشغب ده وبدل ما يكونوا عشرة عشرين جندي مشاغب نخليهم ألف ألفين؟

سكت (فلبيدوس) يتخيل الأمر ثم قال مشدوهًا:

-دي تبقى حرب يا سعادة الباشا؟ معركة في قلب القاهرة؟!

والموضوع ممكن يكبر ومانقدرش نلمه. وإزاي؟

ضحك ضحكة مكتومة وقال بخبث ثعلب داهية:

-يوم الجمعة أجازة والأستراليين والنيوزيلنديين عددهم في اللمون، مش كده وبس دول كمان بيستعدوا للسفر وهيسيبوا القاهرة خلال أيام يعني دي آخر إجازة ليهم في القاهرة. يعني هيكونوا في أقصى درجات الإثارة والحاجة والطلب والاستعجال. فيه أحسن من كدة ظروف يا (جورج)؟

فكر (جورج) وأخذ يحسب الحسابات ويعيد ضبط خطته وقال وهو شاردٌ في الخطة:

-ونتخلص برضو من الطور الأسترالي وسط الزحمة ونلبسها في (الغربي) ورجالته. ولو اتقتل كام واحد منهم معاه كمان يبقى كله بيصب في ميزان حسنات (الغربي).

أكمل الباشا:

-والبوليس الحربي الإنجليزي هيكون شاهد بل ومشارك في الأحداث كمان.

-ونشعلل الدنيا على (الغربي) نولع في بيوته وتخرب تجارته وممكن نكشف عن مخازن الحشيش والأفيون بتاعته للحكمدارية كمان ويتحبس هو ورجالته بتهمة التحريض على

قتل قوات حليفة.

قالها (فلبيدوس) وابتسامته تزغرد في صوته على الهاتف من فرط الإثارة والانبهار بالتخطيط المتقن. فقال الباشا:

-بس عايزين كام شرارة نولعها هنا وهناك، والنار هتمسك في (الوسعة) كلها باللي فيها.

ضحك (فلبيدوس) ضحكته البلهاء الشيطانية وقال:

-دي لعبتي أنا يا سعادة الباشا سيبهالي.

-خطط وتمم لي يوم الخميس على خطتك.

-أمر سعادتك

نهاية المكالمة.

***

تقرير (٩) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم الأحد ٢٧ مارس ١٩١٥م الساعة ٩ صباحًا مع الخط العمومي لمعسكر مينا. (مسودة مذكرات راسل باشا)

صوت سكرتير (فلبيدوس) يتحدث الإنجليزية:

-من فضلك أريد التحدث مع التمرجي (جمال الطوبجي)

في أمر عاجل.

صوت جندي أسترالي متبرم:

-من فضلك هذا هاتف المعسكر الوحيد لا تشغله بالحوارات الشخصية.

-من فضلك هنا مدير الصحة بالقاهرة الكبرى يريد أن يبلغه عن تجهيزات نظارة الصحة لمواجهة الأمراض الجنسية المتفشية في معسكركم.

-حسنًا حسنًا ...سأستدعيه.

فترة صمت طويلة وصلت إلى خمسة عشر دقيقة ثم يأتي صوت رجل:

-أفندم . أنا (جمال الطوبجي)

يأتي صوت (فلبيدوس) هادئًا:

جمال أنا (فلبيدوس) بك. ماتكررش كلامي واسمع اللي هقولهولك بالظبط. احفظ الاسم ده سيرجنت (واين وارين) من الكتيبة التاسعة عندكم في معسكر (مينا) .عايز أعرف كل المعلومات عن زملاءه في خيمته الليلة دي عندي في المكتب ضروري.

-حاضر يا دكتور.

-مع السلامة.

نهاية المكالمة.

***

تقرير (١٠) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم الخميس ١ أبريل ١٩١٥م الساعة ١٠ مساء مع (إبراهيم الغربي). (مسودة مذكرات راسل باشا)

-إيه يا (إبراهيم) الأخبار

-كله تمام يا باشا ماتقلقش. بقالنا أسبوع مزودين الأسعار، ومطفشين النسوان القشطة المطلوبة، ومابنقبلش أي طور هايج، وغاشين في الخمور، ومفطن الرجالة على اللي هيعملوه بكرة في العركة. كله تمام.

جاء صوت تنهيدة ارتياح من (فلبيدوس) عبر سماعة الهاتف ثم قال:

-تمام... مش هوصيك، كل حاجة زي ما قولت بالظبط وما تجوّدش من عندك عشان نسبكها صح.

-ماتقلقش يا بيه (الغربي) ماتهموش فلوس المهم رضاك انت والباشا.

-تمام ...هكلمك بكرة بالليل نشوف الأخبار.

نهاية المكالمة.

***

تقرير (١١) بلاغ من مكتب (هارفي) باشا حكمدار القاهرة وإسناد إلى نائب حكمدار القاهرة (راسل) بك الخميس ١ أبريل ١٩١٥م الساعة ١١ ص. (مسودة مذكرات راسل باشا)

أفادت المعلومات عن عملية تهريب لكميات كبيرة من الحشيش من الصحراء الليبية، والتسليم على الحدود الغربية للفيوم مساء الغد. برجاء اتخاذ اللازم لضبط المواد الممنوعة والقبض على المهربين.

إمضاء (هارفي) باشا حكمدار القاهرة

***

تقرير(١٢) تقرير راسل بك نائب حكمدار القاهرة عن اعتراض شخص مجهول الهوية لحملة (راسل) بك المتجهة إلى الفيوم الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م الساعة ٧:١٥ص. (مسودة مذكرات راسل باشا)

اليوم ٢ أبريل ١٩١٥م الساعة ٧:١٥صباحًا وأثناء توجهي لركوب العربة للاستعداد للسفر إلى الفيوم لاعتراض شحنة

الممنوعات القادمة إلى صحراء الفيوم الغربية. وبعد ركوبي العربة، فوجئت بسائقها مختلفًا عن سائقي المعتاد فسألته من هو وقد شعرت بالحذر. التفت السائق لي وبسرعة رفع مسدسًا في وجهي ومنعني من استلال سلاحي الميري، كل هذا دون أن يرانا أحد وقد كان استقل كل واحد من فرقة حراستي عربته. سألته بحزم:

-من أنت؟ وماذا تريد؟

رد عليّ بإنجليزية سليمة بلهجة مصرية ويبدو أنه شاب جامعي متعلم أو موظف مثقف نحيف أسمر الوجه، وقال وهو يتلفت حوله في خوف:

-لا تخف يا (راسل) بك. لست هنا لقتلك. هناك أمر لا بد أن تعرفه وتتصرف فيه بحكمة، وأنا أعلم أنك الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ الأمر.

رددت بحزم:

-أي أمر ...ما الذي تفعله هنا بحق السماء؟ سلم نفسك وارمي سلاحك على الفور. ألا تعرف مع من تتكلم؟

-أعلم جيدًا يا سيدي من أنت وصدقني لهذا جئت إليك. اسمعني جيدًا يا سيد (توماس). هناك مؤامرة تتم لإشعال القاهرة اليوم بالأزبكية من أجل إخفاء فضيحة للسرايا وهناك

ضحايا إنجليز وحلفائهم وربما آخرين سيسقطون. أرجو منك أن تتدخل بسرعة و ....

وقبل أن يكمل الشاب كلامه جاء (جون) مساعدي من بعيد وقد انتبه لتأخر تحرك عربتي فصاح في السائق أن يتوقف، لكن الشاب انطلق كالريح خارجًا من العربة مختفيًا وسط الشوارع في منطقة المعادي، وحاول بعض الحراس إخافته بإطلاق النار عليه لكنه استطاع الهروب والاختفاء ولم أره بعد هذا الوقت. بدأ كل شيء وانتهى خلال أقل من دقيقة. جاء (جون) وسألني إن كنت بخير فأجبته بنعم لكنني عنفته ووبخت طاقم الحراسة كله فكيف يتم اختراقه بهذا الشكل الفج. ولولا أني متجه إلى مهمة رسمية لكنت أقمت محاكمة لكل فريق حراستي.

***

تقرير (١٣) تسجيل مكالمة هاتفية صادرة من مكتب (فلبيدوس) بك بمكتب البوليس السياسي بجاردن سيتي يوم الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م الساعة ١٠ مساء مع الباشا جميل. (مسودة مذكرات راسل باشا)

فلبيدوس:

- مساء الخير يا باشا.

جاء صوت الباشا (جميل) به أنغام السرور قائلًا:

-يخرب عقلك يا (جورج) ... انت عملت ايه في البلد؟ انت وقفتها على رجل يا قارح. طمني كله تم؟ المشكلة والطور والعربجي؟

رد (فلبيدوس) بقلق وتردد رغم إعجابه بالثناء:

-كلنا تلاميذ سعادتك. الخطة تمت زي ما احنا عاوزين. بس النتيجة ما تطمنش قوي.

انتقل القلق إلى صوت الباشا وهو يقول:

-تقصد إيه يا (جورج)؟

تنحنح (فلبيدوس) ثم قال:

-يعني العركة تمت زي ما سعادتك سمعت والأزبكية كلها ولعت. الأستراليين والنيوزيلنديين وشوية إنجليز هاجوا وهجموا على ممتلكات (الغربي) في (الوسعة) وحارة الوزير وولعوا فيها. الولد الإنجليزي مالقاش أخته في القهوة بس يبدو إنه كان مستعد وعنده معلومات عن مكانها الحقيقي وراح بالفعل هو وزملاءه وقدروا يحرروها وياخدوها. بس خلصنا من الطور الأسترالي والولد بتاع الحزب الوطني لسه هاربان.

قاطعه الباشا صائحًا بحنق:

-وإيه الفايدة يا بني آدم طالما المشكلة نفسها اتحررت. أنا معتمد على شوية هواة ... أنا هتصرف بنفسي.

نهاية المكالمة.

***

تقرير (١٤) عن معلومات مضللة عن عملية تهريب ممنوعات غرب الفيوم ٢ أبريل ١٩١٥م تقرير نائب حكمدار القاهرة (راسل) بك إلى مكتب (هارفي) باشا حكمدار القاهرة. (مسودة مذكرات راسل باشا)

إيماءً إلى الإسناد الصادر من سعادة (هارفي) باشا حكمدار القاهرة يوم الخميس ١ أبريل ١٩١٥م الصادر بخصوص معلومات مؤكدة عن وجود عملية تهريب ممنوعات من المخدرات بكميات كبيرة عبر الصحراء الليبية إلى الحدود الغربية لمدينة الفيوم، فإن فريق العمليات توجه بقيادتي أنا (توماس بك راسل) نائب حكمدار القاهرة منذ صباح يوم الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م حيث تم تمشيط الحدود الغربية والجنوبية والشمالية لمدينة الفيوم عدة مرات، ولم يتم العثور على أي شكل من أشكال التهريب أو أي عمليات ذات مغزى إجرامي في المنطقة، ثم تم عودة القوات إلى القاهرة

في نفس اليوم ليلًا بعد التأكد من أن المعلومات التي قامت عليها العملية معلومات مضللة أو غير صحيحة.

توماس بك راسل.

نائب حكمدار القاهرة الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م الساعة ١١:٣٠م

***

تقرير(١٥) إصدار أمر توقيف وتسريح الجندي (أندرو دراور) من الخدمة الإنجليزية بالقاهرة وترحيله فورًا إلى بريطانيا خلال ٢٤ ساعة الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م الساعة ١١:٤٥ مساء. (مسودة مذكرات راسل باشا)

أمر مباشر عاجل من (هارفي) باشا حكمدار القاهرة بتوقيف الجندي (أندرو دراور) في الحال وتسريحه من خدمة قوات الإمبراطورية البريطانية بالمملكة المصرية، وترحيله فورًا ومن معه إلى بريطانيا خلال ٢٤ ساعة لثبوت دوره في أحداث الشغب بالأزبكية اليوم. ويقوم البوليس الحربي بتنفيذ هذا الأمر في الحال.

حكمدار القاهرة (هارفي) باشا.

الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م

***

تقرير(١٦) طلب اعتماد رسمي عاجل السبت ٣ أبريل ١٩١٥م ٩:٣٠ص. (مسودة مذكرات راسل باشا)

يتقدم (توماس بك راسل) نائب حكمدار القاهرة بطلب عاجل للاعتماد الرسمي من حكمدار القاهرة لمجموعة من تقارير المكالمات الهاتفية المهمة المسجلة أثناء مراقبة عدد من الشخصيات يشتبه في ضلوعهم بالتخطيط والتنفيذ لما يسمى بأحداث حارة الوزير أمس ٢ أبريل ١٩١٥م في (الوسعة) بالأزبكية بالقاهرة، التي أدت لحدوث وفيات بين جنود التحالف والمواطنين المصريين بالإضافة إلى إصابات عديدة وخسائر مادية فادحة. الاعتماد مطلوب على وجه السرعة لإدراج هذه المكالمات المسجلة كدليل دامغ في المحاكمة التي ستقام اليوم السبت ٣ أبريل ١٩١٥م للبحث والتدقيق في أسباب اندلاع أحداث الشغب.

مقدمه توماس بك راسل نائب حكمدار القاهرة.

***

تقرير(١٧) رفض طلب الاعتماد الرسمي الأحد ٤ أبريل ١٩١٥م. (مسودة مذكرات راسل باشا)

الطلب مرفوض لأن المراقبة الهاتفية لعدة شخصيات مهمة

وذات حيوية في المملكة المصرية تمت دون موافقة أو إذن رسمي من حكمدار القاهرة وبالتالي ينقصها المصداقية والشفافية ويغلب عليها العاطفة الشخصية. كما أن المحاكمة التي تمت أمس السبت ٣ أبريل ١٩١٥م بقيادة الكولونيل (فريدريك هيجينز) قد فضت بالفعل بدفع١٧٠٠ جنيه استرليني كتعويضات للحكومة المصرية عن الأضرار وترحيل مئات من الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين وإغلاق القضية للتركيز على المعارك الفاصلة القادمة للقوات البريطانية وحلفائها.

إمضاء حكمدار القاهرة (هارفي) باشا

***

المحاكمة والتعتيم المتعمد. (مسودة مذكرات راسل باشا)

الآن تستطيعون أن تدركوا ما حدث، وما لم أكن أنتظره أو أتصوره، وما زاد من خيبة أملي وإحساسي بالعجز والفشل في إنقاذ الموقف، هو إبعادي المتعمد عن القاهرة في هذا اليوم بالذات. لقد تم تجاهل الدليل المادي الذي أمتلكه من مكالمات هاتفية مسجلة، بل وتم توبيخي لاستخدام هذه التقنية المتطورة دون إذن. وتم أمري بصرامة بإغلاق هذه الصفحة تمامًا وعدم التفتيش فيها مرة أخرى لأسباب

سيادية. وكانت نتيجة هذه الأحداث وفاة ثلاثة من الجنود الأستراليين، واختفاء الجندي (واين وارين) المذكور في المكالمة المسجلة لـ(جورج فلبيدوس)، وتم اعتباره متهربًا من الجندية بصفة رسمية. تم توقيف الجندي الإنجليزي (أندرو دراور) في نفس ليلة الأحداث وكانت معه فتاة إنجليزية أخرى فتم ترحيلهما إلى بريطانيا على الفور قبل أن أصل إليهما أو أتحدث إليهما.

على جانب القوات الأسترالية الإمبراطورية فقد تم تسريح ٣٢٢ جندي أسترالي ونيوزيلندي من الخدمة في مصر، وترحيلهم عنها فورًا بحجة الاشتراك في الشغب والتسبب في خسائر وسوء السلوك. كما علمت أنه تم الاتفاق سرًا بين القيادة العسكرية البريطانية والقيادة العسكرية الأسترالية على التغاضي عن هذه الأحداث للتركيز على المعارك تجنبًا للحرج مع الحكومة المصرية المتضررة بأكثر من مائة ألف جنيه خسائر مادية. طبعًا لم يكن القائد الأسترالي سعيدًا بهذه المحاكمة ولا بنتائجها ولا بحالات القتل أو الاستبعاد بين جنوده، لكنه يبدو أنه تلقى أوامر صارمة من القائد العسكري البريطاني العام بقبول الأمر دون نقاش.

حتى تقارير المكالمات المسجلة، لسبب ما تأخرت في الوصول إلى مكتبي خلال الأسبوع السابق مباشرة للأحداث

والذي تسارعت فيه الأحداث والمكالمات والمؤامرات، ولو كانت وصلتني في الوقت المناسب لربما استطعت أن أطفئ من سعير هذا الشغب قبل حدوثه. لم تصل إليّ كافة تقارير المكالمات المسجلة ولم تكتمل الصورة بالنسبة إلي بهذا الشكل حتى انتهت المحاكمة يوم السبت ٣ أبريل ١٩١٥م. كان من الواضح جدًا أنها محاكمة صورية موجهة، الهدف منها إظهار قانون الانضباط العسكري دون النظر إلى أسباب هذه الأحداث والتحقيق في نتائجها وأسباب موت الضحايا. أعلنت المحاكمة أن أعمال الشغب ولدت من حادثة نشأت عن اثنين أو ثلاثة أستراليين ساخطين حاولوا ابتزاز المال من بعض البغايا الذين قالوا إنهم قد أصابوهم بالأمراض الجنسية.

على جانب آخر استطاع (إبراهيم الغربي) النجاة بنفسه من هذه الأحداث، ورغم أن عدة بيوت بغاء من التي يمتلكها قد احترقت عن آخرها كذلك مقاهيه وحوانيته وبعض من مخازنه، إلا أنه كان أذكى من أن توجه إليه أصابع الاتهام، على العكس ظهر أمام الرأي العام كضحية لبلطجة وشغب جنود التحالف. حتى مخازن المخدرات التي يمتلكها تمت مداهمتها لكن لم يتم تحريز أي مخدر فيها. لكنني عزمت منذ تلك اللحظة أن أتعقب ذلك الملك المخنث حتى أقبض عليه وأتخلص منه بنفسي وهذا ما تم بالفعل بعد هذه الأحداث

بأقل من عام.

أستطيع وأنا كلي ألم أن أعترف أن ما تم من تجاهل للدلائل التي جمعتها، وما تم من إبعادي المتعمد عن القاهرة يوم الأحداث، وما تم من محاكمة عاجلة صورية، كلها دلائل واضحة على أن هناك قوى فاسدة في مصر تستطيع أن تشعل الأمور وتتحكم في حيوات الأبرياء ثم تهيل عليهم التراب حتى لا تُعرف أسباب موتهم. لقد كنت أحارب وحدي فسادًا مستشريًا في مصر في كل قطاعاتها حتى وصل للأسف إلى قلب الحكمدارية نفسها . ولا أملك إلا أن أعتذر لهؤلاء الضحايا أنني لم أستطع أن أمنع ما ألم بهم.

الجندي (واين وارين) اختفى بعد هذا اليوم دون سبب، ولا أدري إن كان من المتآمِرين وبالتالي هرب من الجندية ويعيش متخفيًا في مكان ما منذ ذلك الوقت، أم أنه من المتآمَر عليهم وتم إخفاءه لما يعرفه من أسرار.

الموضوع المحير الأخير هو ذلك الشاب الذي هددني بسلاحه في عربتي وتنبأ بوقوع الشغب واندلاع الحرائق وسقوط ضحايا. من هو ذلك الشاب الجريء؟ وكيف عرف بكل هذه المعلومات التي عجزت أنا بكل إمكانياتي أن أتنبأ بحدوثها؟ وكيف يرمي بنفسه إلى التهلكة فقط لمحاولة مقابلتي لإخباري بهذه المعلومات لإيقاف هذا الشغب؟ وإن

كان من الفدائيين الثوار أعداء الإنجليز فلماذا لم يحاول أن يقتلني وأنا أحد البريطانيين الأعلام في مصر ومقتلي سيزلزل الإدارة البريطانية؟ ترى من كان ذلك الشاب يحاول أن يحمي بكل هذه التضحيات والمخاطرات؟ لا يزال لغزًا محيرًا لا أعرف له جواب. وحتى اليوم لم أقابل هذا الشاب مرة أخرى في حياتي حتى يجيب على هذه الأسئلة. لكن يبدو أن ذلك الشاب هو الآخر سينضم إلى صندوق أسرار معركة الوزير وألغازها التي لن تحل.

***

تقرير(١٨) محاولة اغتيال فاشلة للسلطان حسين كامل ٨ إبريل ١٩١٥م. (مسودة مذكرات راسل باشا)

نتيجة للسخط العام المتصاعد من جمهور الشعب المصري ضد تنصيب البريطانيين السلطان حسين كامل بعد خلع الخديوي المحبوب للمصريين عباس حلمي الثاني، وصلت ذروة هذا السخط عندما حدثت محاولة فاشلة لاغتيال السلطان حسين كامل يوم ٨ أبريل ١٩١٥ م -بعد أحداث (الوسعة) بستة أيام فقط- بواسطة شاب ينتمي للحزب الوطني المارق. تقدم شاب متنكر يحمل باقة من الورد الأحمر نحو العربة السلطانية التي تقل السلطان حسين كامل، كانت العربة تمر في شارع عابدين بالقاهرة الساعة الثالثة والثلث

من يوم ٨ إبريل عام ١٩١٥م، وكان فى داخل الباقة مسدس، كان كبير الأمناء سعيد ذو الفقار باشا الذي كان يجلس بجانب السلطان قد شك فى الشاب فنبه ضابط الحرس لمنعه من الاقتراب، ولم يكد ينهى عبارته حتى أشهر الشاب مسدسه، وأطلق رصاصة تجاه السلطان حسين كامل، غير أنها أخطأته.

و قبل أن يتمكن الشاب من إطلاق الرصاصة الثانية، استطاع ضابط الحرس أن يسدد ضربة بالسيف إلى أعلاه، فشق طربوشه وأصيب رأسه إصابة خفيفة، وصاح السلطان للإمساك به، مطالبًا في الوقت نفسه بعدم قتله، حيث أراد أن يتعرف على شركائه الذين هدفهم الانتقام منه، وسرعان ما قبض عليه واقتيد إلى سجن البوليس السياسي وهو يصيح بسقوط الاحتلال والسلطان الخائن « المختل»، بينما استكمل السلطان طريقه لقضاء أغراضه التي كان قد خرج من أجلها.

حاولت أن أقابل الشاب لكني فشلت لعزم البوليس السياسي فرض السرية على المعلومات. وتم إغلاق القضية بواسطة البوليس السياسي المعني بالأمر واختفاء المتهمين فيها.

لسبب ما عندي هاجس قوي أن هذه المحاولة الفاشلة لاغتيال السلطان حسين كامل لها علاقة بأحداث حارة الوزير التي حدثت قبل ستة أيام فقط منها. لكن بإغلاق البوليس

السياسي القضية واختفاء المتهمين أعتقد أنه من المستحيل فهم هذه العلاقة. كل ما عرفته عن المتهمين أن اسم أحدهم (محمد خليل) وشريكه (محمد الكرداني) وكلاهما من الحزب الوطني المارق وأن هناك مذكرة توقيف لهما صدرت منذ عشرة أيام فقط من البوليس السياسي.

الفصل السابع الخطاب الأخير

السيدة (آن أليسون). (عفت البدوي-سيدني- الحاضر)

لم تستطع عيني أن تصدق ما قرأته للتو في النسخة الإلكترونية لمسودة مذكرات (راسل) باشا الأصلية بخط يده. الآن اكتمل جزء كبير من الصورة وأصبحت أرى الأمور بوضوح أكثر. الفساد والمؤامرة في مصر متأصلين في تاريخها منذ القدم، وكل كلمة في مذكرات (راسل) باشا صحيحة لا مبالغة فيها. البوليس السياسي بكل أشكاله منذ كان مكتب الخدمة السرية وحتى صار إدارة أمن الدولة، وأساليبهم ومؤامراتهم السرية تكون سلاحًا للسلطة الحاكمة موجهة دائمًا لمصلحتها ضد الأبرياء والوطنيين بحجة حماية الدولة من أعداء الداخل. السرايا مثلها كمثل أي حاكم فاسد دكتاتور مستعد للاتحاد مع الشيطان في سبيل مصالح شخصية له ولأسرته. الشرطة الفاسدة موجودة مهما كانت نزاهة بعض العاملين فيها. إن كل ما قاله (راسل) باشا هو صورة طبق الأصل لما هو موجود اليوم فقط بوجوه مختلفة ومسميات مستحدثة وأساليب جديدة.

لكن هل أجابت مذكرات (راسل) باشا على الأسئلة المطلوبة وحلت الألغاز الغامضة؟ ودون أن أدري وبعادتي أمسكت بورقة بيضاء وقلم وأخذت أدون بالرسم والأسهم

والمستطيلات ما علمته حتى الآن وما يزال غامضًا. يأتيني هاتف في عقلي يطن في رأسي ويقول لي:

- لماذا تتعب نفسك بكل هذا الجهد وأحد لا يهتم لما ستتوصل إليه؟

أتجاهله وأستكمل رسمي التوضيحي للمعلومات التي عرفتها حتى الآن:

-مذكرات (راسل) باشا أكدت على اختفاء (واين وارين) بعد أحداث الشغب يوم ٢ أبريل ١٩١٥م، وتم اعتباره متهربًا من الجندية أو متغيبًا عن المعركة. حقيقة.

-(محمد خليل) مذكور في مذكرات (راسل) باشا بنفس أوصاف (محمد خليل) في يوميات (واين) الثانية. شاب يتكلم الإنجليزية منضم للحزب الوطني وتنبأ بأحداث الشغب ثم قيامه بعملية الاغتيال الفاشلة للسلطان حسين كامل. إذًا فهذا هو الأمر الأخير الذي كان ينوي (محمد) فعله. اليوميات الثانية هي الأصدق.

-القرار بتوقيف وتسريح الجندي الإنجليزي (أندرو دراور) ووجود فتاة إنجليزية معه يثبت أيضًا صدق يوميات (واين) الثانية وقصة (أنجيلا) وأخيها (أندرو).

-لماذا كان (فلبيدوس) يسأل عن (واين وارين) قبل

الأحداث ببضعة أيام؟ ويسأل عن زملائه في الخيمة أيضًا؟ هل ممكن...؟

الإجابة عند شخص واحد فقط (جوشوا أليسون). كل الأسهم تشير إلى أن (جوشوا أليسون) على علم بكل شيء. هو مذكور في مذكرات (واين) الثانية بطريقة تدعو للشك. هو الذي أرسل اليوميات الثانية لـ(واين) بعد موته بأكثر من ستين عامًا دون إيضاح السبب لذلك. هل يعقل هذا؟ (جوشوا) هو المفتاح الأخير للغز ولابد أن أصل إليه بأي ثمن. لكن (جوشوا) لا بد وأنه قد مات منذ سنين طويلة. البحث لن يضير شيئًا.

قمت بالبحث مرة أخرى على صديقتي الشبكة العالمية عن (جوشوا أليسون) مع إضافة بعض المعلومات عن كونه جنديًا في AIF١ فتوصلت بسهولة إلى عنوانه ورقم هاتفه. ولم أدرِ بنفسي حتى رفعت هاتفي المحمول وطلبت الرقم. هل من الممكن أن تحدث معجزة ما وأجد (جوشوا) يرد على الهاتف وعمره أكثر من مائة وعشرين عامًا؟ أي تخريف أفكر! قطع حبل أفكاري صوت امرأة عجوز فقلت:

-مساء الخير يا سيدتي

-مساء النور ..من على الهاتف؟

-أنا ...أنا ...

ثم فكرت قليلًا ماذا عساي أن أقول للمرأة؟ أنا من اشترى بيتًا من ابن زميل السيد (جوشوا) في الجيش والمختفي في القاهرة منذ قرن من الزمان؟ فقلت:

- هل هذا منزل السيد (جوشوا أليسون)؟

تململت المرأة وقالت:

- أنا (آن أليسون) ابنته. والدي توفي منذ عشرين عامًا. من أنت؟ وكيف يمكن أن أساعدك؟

ترددت قليلًا ثم قلت:

-حقيقة أريد أن أتحدث معك بأمر شيء ما يخص والدك السيد (جوشوا أليسون).

سكتَت قليلًا فخشيت أن تغلق في وجهي الهاتف لكنها قالت:

-هل يدين أبي بمال لعائلتك أنت أيضًا؟

-لا ..لا ..لكن أعذريني في سؤالي ...

لا أدري ماذا أقول صراحة. ولا أدري عن ماذا أسأل. يبدو أنني تسرعت بالاتصال وأنا غير مستعد بالأسئلة:

-ما هو سؤالك يا سيد...أنا لم أتعرف عليك بعد.

-أنا (عفت البدوي)

-حسنًا ماذا تريد أن تعرف؟ ولماذا تسأل عن والدي المتوفي منذ عشرين عامًا؟

-حسنًا سيدتي. لا أدري ما هو السؤال الذي ينبغي أن أسأله. ولكن هل صودف أنه تحدث معك أو تعلمين أي شيء له علاقة بزميل قديم له مات في الحرب العالمية الأولى في مصر أو (جاليبولي) اسمه (واين وارين)؟

شهقت السيدة بصوت مسموع في سماعة الهاتف ثم صمتت للحظة قائلة:

-سيرجنت (واين وارين)؟! نعم أعرف هذا الاسم جيدًا ...

توقفت أنفاسي مصدومًا مما سمعت. المرأة تعرف (واين وارين) بالفعل! لماذا؟ وكيف؟ و...ظللت متسمرًا والهاتف على أذني كأنه ملتصق بغراء. وحين أدركت طول فترة صمتي وانتظار السيدة قلت:

-هذا غريب، أنت حقًا تعرفينه يا سيدتي!

ظهرت من السيدة تنهيدة ارتياح وكأنني قد جئت بعد طول انتظار ثم قالت:

-ليس عندك أدنى فكرة...هل أنت قريب له؟

-لا ..لا طبعًا ...لكني يهمني أمره وأمر ولده (كيث وارين)، وقد ساقتني الظروف بخصوصهما لسبب ما إلى أبيك.

-إذا كان يهمك أمره وتعرف (كيث وارين) بنفسه، فينبغي عليك أن تزورني في بيتي، فلدي أمر ما يهمك ويهمه.

لم أصدق نفسي وما أسمعه. فقلت مسرعًا:

-حسنًا أعطيني العنوان.

أعطتني العنوان واتفقنا على أن أزورها في البيت في الغد صباحًا. ظللت طوال اليوم وحتى ميعادي مع السيدة (آن أليسون) كالمشلول وعقلي عاجز عن تخيل ما سيحدث وعاجزٌ حتى عن التفكير فيما ينتظرني وما قد أعرفه. ما هذا اللغز يا (واين)؟ كلما ظننت أنني فشلت في حله، تخرج من جديد إشارة غريبة على غير المتوقع لتحثني على المضي قدمًا لحل اللغز وتأخذني في اتجاه آخر جديد. ياللك من جندي مثابر!

ذهبت في ميعادي إلى السيدة (أليسون) في بيتها المنظم النظيف ولاحظت أنها وحدها في المنزل. أحضرت لي بعض رقائق البسكوت مع الشاي الساخن ثم بدأنا نتحدث فقلت لها:

-كيف تعرفين بأمر (واين وارين) يا سيدتي؟ هل حدثك أبوك عنه؟ ماذا قال لك عنه؟

قالت:

- على رسلك يا سيد (عفت). لا أعلم الكثير عن (واين وارين)، لكن ما حدث جعلني أحفظ اسمه عن ظهر قلب. فأبي قضى آخر عشرة أعوام من عمره مريضًا متألمًا وكان السرطان يفتك بأعضائه عضوًا عضوًا. ظل طوال هذه المدة الطويلة يتعذب ألمًا بين الأطباء والدواء والمخدرات. المخدرات كانت الوحيدة التي تنسيه ألمه الدائم، فكان يتناول ويحقن جرعات كبيرة منها ليستريح من آلامه لكنه يعيش كالشبح الهائم بعض الوقت ولا يفيق منها إلا وتعاوده الآلام. خلال آخر عام في حياته، كان المرض قد نال منه مبلغه وفعلت المخدرات به الأفاعيل، فصار يهلوس ويحادث أشباح وهو بين الحياة والموت، والشبح الوحيد الذي كان ينغص عليه تلك السويعات التي يفيق فيها هو شبح (واين وارين). كان يقضي الساعات على سريره يتمرغ في القيء والبول والبراز وهو يناشده أن يسامحه ويظل يناديه: سيرجنت (واين وارين) سامحني.. هذا ذنب (واين وارين) ... اتركني يا (واين وارين)... أقتلني يا (واين وارين) لكن أوقف هذه الآلام.... لهذا فقد ظللت أنا طوال هذه السنة الأخيرة لا أسمع في البيت إلا اسم (واين وارين).

يبدو أن (جوشوا) يعيش في عقدة ذنب تجاه ذكرى (واين

وارين). بدأت الصورة تتضح أكثر، فقلت:

-هل هذا كل شيء تعرفينه عن (واين وارين) يا سيدتي؟

-لا... هناك شيء أخير.

ثم قامت وأحضرت خطابًا مغلقًا كانت قد أعدته سابقًا ليكون في متناول يديها على المنضدة وقالت:

-في آخر أيامه طلب أن يختلي بقس الكنيسة للاعتراف، وهو لم يرتدها يومًا من الأيام في حياته. أملى هذا الخطاب للقس أثناء الاعتراف وقام بغلقه بإحكام، وقبل أن يموت طلب مني ألا أفتحه أو أقرأه، وأن أعطيه لـ(كيث وارين) ابن (واين وارين) إن جاء هو أو أحد من طرفه يسألني يومًا عن أبيه. وحلفني بكل الأيمان وقال إن هذا هو خلاصه الأخير من الجحيم. ثم مات بعدها بأيام.

لم تنزل عيني عن الخطاب المغلق في يد السيدة (آن)، وشعرت بذراعي ثقيلة لا تريد أن تتناول الخطاب من يديها خوفًا مما قد يحتويه، لكني استحييت من ذراعها الممدود فأخذته منها وأنا أتطلع إلى المكتوب عليه من الخلف: إلى عائلة سيرجنت (واين وارين). ابتلعت لعابي وقلت للسيدة بهدوء:

- هل هذا كل شيء يا سيدتي؟

شعرت بالسيدة (آن) والدموع تنحبس على جفنيها وهي تهز رأسها إيجابًا وتقول:

-أتوقع أن ما بهذا الخطاب لن يكون مشرفًا لأبي بطريقة أو بأخرى. لكني أتمنى أن يهب ذلك الخطاب الطمأنينة لأهل (واين وارين) ويهب إلى روح والدي السلام الذي أراده. هذا كل شيء يا ولدي.

شكرتها وودعتها ورحلت من عندها وأنا أضع الخطاب مغلقًا بجانبي على كرسي المسافر بجوار كرسي سائق السيارة، ظللت أتطلع إليه من آن لآخر أثناء قيادتي وقد ازداد شعوري العميق أن هذا الخطاب هو نهاية الرحلة بالنسبة لي مع الجندي (واين وارين). هذا أكيد هو المفتاح الأخير للغز الذي لا يريد أحد غيري أن يحله. هذا هو الخريطة الوحيدة للكنز الذي لا يريد أحد أن يبحث عنه .

وسط غابة تفكيري المتشابكة لا أدري كيف وجدت نفسي فجأة في غرفة نومي على سريري أتطلع إلى الخطاب المغلق دون أن أفتحه. هل أنا خائف أن أفتحه؟ أم خائف من نهاية الرحلة؟ أم مما سأكتشفه؟

فتحت الخطاب وبدأت أقرؤه بهدوء ببطء وتمعن:

خطاب (جوشوا)

«هذا خطاب اعترافي الأخير أنا (جوشوا أليسون) أكتبه بخط يد وشهادة القس (كاميرون هينلي) اليوم ١٣ يونيو ١٩٨٢م وأنا في كامل قواي العقلية.

هذا الخطاب موجه إلى عائلة الجندي (واين وارين) المختفي في القاهرة في ٢ أبريل ١٩١٥م وخصوصًا إلى ولده (كيث وارين).

عزيزي (كيث) لا أدري إن كان هذا أنت الذي يقرأ الخطاب أم لا. هل حقًا جئت تبحث عن حقيقة اختفاء والدك (واين وارين) أم أنك استسلمت للأيام ورميت بكل شيء وراء ظهرك لتتقدم إلى الأمام. إنه من الجيد أن تفعل ذلك، لكن هناك أرواحًا أخرى معلقة بأحبال الحقيقة التي لا بد أن تظهر يومًا ما. روحي أنا وروح أبيك نناديك أن تبحث جاهدًا عن الحقيقة وتعرفها. حقيقة أبيك وحقيقة اختفائه. أنا لا أعلم الحقيقة كاملة ولكني أدرك سنامها تمام الإدراك، لأنها هي التي رسمتها بيدي ونفذتها بأصابعي. نعم يا ولدي ما يدور بخلدك هو الحقيقة التي تنشدها، أبوك (واين وارين) لم يتهرب من الجندية أو يجبن خوفًا من المعركة أو يختفي.

إن شبح أبيك ظل يتعقبني ويطاردني في كل مكان حتى وأنا على أعتاب الموت، ولن يكف حتى تظهر الحقيقة للجميع. عندما تقرأ هذا الخطاب فهذا معناه أنني في الجحيم أتعذب

الآن مع القتلة والسفاحين، ولن أنشدك الغفران على ما اقترفت فقد اقترفت الكثير من الآثام. لكن ربما معرفتك بالحقيقة تكون كافية لتقليل عذابي ولو بقدر ضئيل.

نعم يا (كيث) إن كل ما فعلته من موبقات وآثام في حياتي لا يساوي أبدًا ما فعلته في القاهرة منذ أن وطأت قدمي الإسكندرية وحتى رجعت من الإسكندرية إلى سيدني مرة أخرى حاملًا إكليل الأبطال دون أن أشارك في حرب (جاليبولي) البطولية أو أطلق رصاصة واحدة تجاه الأتراك، ولكني كنت بطلًا لحرب الوزير المشينة المخجلة ضد قوادي وعاهرات القاهرة. خرجت من قريتي هربًا من الديون والمشاكل والشرطة التي تلاحقني، وانضممت إلى القوات الإمبراطورية الأسترالية التي توجهت إلى مصر استعدادًا للحرب ضد تركيا مساندة للبريطانيين. منذ اليوم الأول الذي شاهدت (واين وارين) وقد كان على النقيض مني في كل شيء. كنت شابًا يافعًا مشاغبًا لعوبًا جاهلًا، وكان رجلًا ناضجًا رزينًا طيبًا مثقفًا. لم أكن أهتم في ذلك الوقت إلا إلى شهواتي وغرائزي، كما أنني لم أترك أي شيء ورائي في أستراليا لينتظرني أو أقلق عليه. المال والنساء كانا هما أهدافي من هذه الرحلة، ولم أكن أتخيل أنني سأحارب أو أطلق رصاصة من بندقيتي.

تشاء الأقدار أن يكون (واين) أحد زملائي في الخيمة في معسكر مينا، وتشاء الأقدار أن يكون هو شاهدًا على كل أفعالي الصبيانية والجنونية الماجنة على البارجة وفي القاهرة وفي المعسكر وفي شوارع الأزبكية ومقاهيها سيئة السمعة وبيوت البغاء في (الوسعة). كلما هممت بفعل شيء جنوني أو ماجن وجدته يرمقني بعين ناقدة مستنكرة، ولا أجد نفسي أمامه إلا صبيًا صغيرًا لاهيًا فلا أستطيع أن أرد له نظرةً لائمة أو حتى إيماءة اعتراض.

في القاهرة فعلت كل الموبقات، فكنت زبونًا دائمًا في بيوت البغاء، وكنت أقيم المسابقات في وطئ العاهرات مع أصحابي، وكنت أتهرب من دفع الأجرة للقوادين والعاهرات بل كنت أضربهم مع أصدقائي، وكنت ألعب القمار براتبي فأكسب مرة وأخسر مرات، وكنت مقيمًا في صالات الرقص الخلاعي أداعب النهود وأتحسس الأفخاذ. بل إنني كنت أتشاجر مع الفتوات والحراس المصريين وحتى مع الصبية المصريين الشحاذين أو ماسحي الأحذية ولا أدفع لهم. كنت أعامل المصريين بكل طوائفهم كالحشرات لا قيمة لهم، حتى إنني اغتصبت فتاة مراهقة مسكينة على قارعة الطريق من أجل اللهو، وطعنت أحدهم بمديتي في إحدى الليالي حين لعبنا القمار وخسرت ولم يكن معي مالٌ كافي، ثم هربت في المرتين ولا أدري كيف حتى الآن لم يبلغ عني ونجوت من

الأمر برمته. كل هذا ساعدني أن أتجرأ أكثر على المصريين وأعاملهم كحثالة البشر لا يستحقون مني غير ذلك. لم أكن أهتم لأي شيء سوى أن آخذ راتبي اليومي لأصرفه في الأزبكية بأي وسيلة، فلم أحتفظ بأي مال في جيبي لماذا ولأي غرض أحتفظ به؟ مرضت بالزهري والسيلان نتيجة لترددي الدائم على عاهرات (الوسعة) و(وش البركة) وازداد حنقي على بيوت البغاء والعاهرات الغير مصرحات. ظللت أعالج معزولًا لأكثر من شهر في العيادة في معسكر (مينا) وتوقف راتبي مما زاد من حنقي على المصريين الذين تسببوا في انقطاع رزقي.

حين شفيت من مرضي وخرجت من العيادة مفلسًا منهكًا، كان المعسكر كله يستعد للرحيل إلى الإسكندرية للاشتراك في الحرب في الأسبوع الأخير من شهر مارس ١٩١٥م. شعرت بالخوف لذلك. هل حقًا سنحارب ونطلق الرصاص ونتلقاه في صدورنا. كنت جبانًا رعديدًا وكانت شجاعتي فقط على المصريين المستضعفين المستذلين في القاهرة محميًا ببزّتي العسكرية. أما في المعركة فأنا أجبن من أن أقف وجهًا لوجه أمام رجل آخر يدافع عن أرضه في الجهة المقابلة لنتعارك بالأيدي والرصاص والحراب والبارود. كان لا بد أن أبحث عن شيء يعفيني من هذه الحرب، ويبدو أن هناك أحدًا في الجهة الأخرى كان يبحث عني لأساعده ويساعدني، فقد أتاني

تمرجي العيادة وهمس في أذني إن كنت أريد أن أقوم بمهمة سرية خدمة لأحد الأشخاص المهمين مقابل مبلغ كبير من المال وإعفاء من العمل في القوات الأسترالية وترحيل فوري إلى أستراليا. كان طوق النجاة بالنسبة لي. سألته من يكون فأخذني في إحدى الليالي إلى فيلا في جاردن سيتي وهناك قابلت ذلك الرجل البدين (جورج فلبيدوس). يبدو أنه مدير في إحدى الإدارات السرية للبوليس المصري. لم أهتم كثيرًا لعمله فجنود التحالف لا يطالهم البوليس المصري على أية حال. قال الرجل لي:

-سمعت أنك مفلس، وعرفت أن لك بعض المشاكل في بيوت البغاء، وعليك ديون لصالات القمار وعرفت أيضًا أنك اشتركت في أكثر من شجار، بل طعنت أحد الأشخاص. هل هذا صحيح؟ تبدو مشاغبًا يا سيد (جوشوا) مقارنة بالفترة الزمنية القصيرة التي قضيتها في القاهرة.

شعرت بالرعشة تسري في أوصالي، فهأنا ذا في مكان سري مع شرطي مصري ويعرف كل مشاكلي. استجمعت بعضًا من شجاعتي وقلت:

-إذا كان لديك مشكلة معي وتريد التحقيق معي يا سيد (جورج) فأنصحك أن تتكلم مع قائدي أو المندوب البريطاني لكن لا يحق لك أن تحقق معي هكذا.

قال الرجل بهدوء الثعابين:

-من قال إنني أحقق معك يا سيد (جوشوا)؟ لقد أتيتَ إليّ بمحض إرادتك وتستطيع أن ترحل وقتما تريد. أنا فقط أعرض عليك عرضًا ذهبيًا ينجيك من مشاكلك. أستطيع أن أجزم أنك تريد التهرب من السفر للمعركة أيضًا أليس كذلك؟

اللعنة الرجل يعرف كل شيء عني المعلن منه والسري! سكتُّ منتظرًا مزيدًا من الإيضاح، فقال الرجل وقد اقترب مني حتى شممت أنفاسه المعبقة بالنيكوتين، ووضع يده على كتفي وقال هامسًا وعيناه تنفذان إلى روحي:

-أستطيع أن أجنبك الذهاب إلى الحرب، وأستطيع أن أمحو كل مشاكلك هنا في القاهرة، وفوق كل ذلك سأعطيك ثلاثمائة جنيه إسترليني.

صعقت من هول الرقم. هذا أضعاف أضعاف ما يمكن أن أدخره في كل فترة الحرب لو أنني أدخر. اللعنة هذا الرجل يعرف نقطة ضعفي. لاحظ انبهاري بالرقم فأكمل بكل ثقة:

-لا نريد منك إلا أشياء بسيطة فقط، تفعلها وتأخذ المال وترحل لوطنك لتصير من الأثرياء هناك.

قلت مسرعًا:

-ما هو؟

قال:

-أولًا ينبغي أن أقول لك أن ما سأقوله الآن لك يندرج تحت أسرار الدولة المصرية عالية السرية. وإذا تسربت هذه المعلومات فستكون أنت في خطر شديد أينما تذهب مفهوم؟

هززت رأسي موجبًا فأكمل:

-من المؤكد أنك وزملائك من الناقمين على بيوت البغاء وحانات الرقص الخلاعي في (الوسعة) و(وش البركة) أليس كذلك؟

قلت:

-طبعًا ...أولاد الزناة هؤلاء أصابونا بالأمراض، وسرقوا أموالنا، ويغشون في الخمور، والآن رفعوا الأسعار إلى الضعف، ومنعوا العاهرات الجميلات من العمل، ويرفضن الوطء إلا بشروط وليس مع الجميع. لو امتلك الأمر لأشعلت فيهم النيران جميعًا.

قال الرجل مسرعًا لكن بهدوء:

-حسنًا ... هذا أول شيء.

لم أفهم فسألته بعيني مستفسرًا فأوضح:

-نعم. هذا أول شيء أريده منك. أريدك يوم الجمعة القادمة

أن تقوم بحرق بيوت البغاء والمقاهي في (الوسعة) و(وش البركة) قدر استطاعتك. لقد أساء هؤلاء الزناة للوطن مصر، ولم يقدموا خدمة جيدة لجنود التحالف الذين يحموننا وبدلًا من ذلك يسببون لنا الأزمات، لذلك نريد أن نعاقبهم بحرق دورهم وحاناتهم، ولكي تنجح في ذلك أريد منك أولًا أن تشعل صدور زملائك في المعسكر تجاه أولاد الزناة هؤلاء. من اليوم أريدك وأصدقائك أن تحرضوا الجنود وتستنفروهم لأننا نريد حريقًا وتدميرًا كبيرًا بأيدي آلاف من الجنود وليس عشرات منهم، وفي ذلك حماية لك. فلو قمتم بالأمر بعدد محدود من الجنود سيسهل للبوليس الحربي أو الشرطة المصرية تتبعكم وإيقافكم والقبض عليكم ومعاقبتكم، أما لو كنتم عدة آلاف لن يستطيع أحد إيقافكم أو معرفة المحرض بينكم. سأعطيك بعض المال لتوزعه على زملائك المحرضين لتنتشروا في معسكراتكم في (مينا) والمعادي وحلمية الزيتون ما رأيك؟ وأنا من جانبي سأعطل المطافئ والبوليس حتى تعيثوا فيهم فسادًا وتدميرًا كما تشاؤون.

ابتسمت بثقة وقلت مستثارًا:

-لقد جئت للشخص المنشود يا سيد (جورج)، فأنا وحدي أستطيع أن أحرض الآلاف وأجيش الجنود وأقودهم ضد أولاد الزناة هؤلاء. لا تخف شيئًا واعتمد عليّ في هذا الأمر.

متى ستعطيني النقود الآن أم بعد إتمام الأمر؟

ابتسم (جورج) وهو يداعب بضع وريقات على مكتبه دون أن ينظر إليّ وقال بنفس هدوء الثعابين:

-كنت أعلم أنك الشخص المنشود يا (جوشوا) لكن ليس هذا فقط ما أطلبه منك.

قلت بثقة ماطًا شفتي:

-أطلب أي شيء يا رجل. كل هذه الأشياء بسيطة كقطعة من الكيك.

نظر إليّ بجدية وقال:

-نريدك أن تقتل (واين وارين).

أصبت بصاعقة من السماء شلتني عن الكلام. ألهذا يدفع لي كل هذا المبلغ؟! من أجل أن أقتل جندي أسترالي بيدي؟! جمعت شتات نفسي وقلت مترددًا:

-ولماذا تريد أن تقتل (واين)؟ ولماذا لا تقتله أنت بنفسك وبرجالك؟ ولماذا أنا أقتله بيدي؟

اقترب مني مرة أخرى وقال:

-أنت تعرف أن (واين وارين) يختلط كثيرًا بالمصريين منذ قدم إلى مصر. للأسف اختلط (واين) وتصاحب مع أحد

المجرمين السياسيين المطلوبين للعدالة. هذا المجرم أخبره بأحد أسرار الدولة العليا. لو أذيع هذا السر في أي وقت من الزمان ستحدث مشكلة كبيرة بين المملكة المصرية والإمبراطورية البريطانية. لذلك نريد أن نطمئن ألا يذاع هذا السر ويدفن إلى الأبد. أما لماذا يجب عليك أن تقتله بنفسك وليس بأيدينا لأن قتله بأيادٍ مصرية من الممكن أن يسبب مشكلة دبلوماسية بين مصر وبريطانيا وحلفائها لو عُرف الأمر. أما لو قمت أنت بالأمر وسط زحام الشغب والحرائق والمعارك لن يشك أحد فيك وأنت زميله في الخيمة.

ثم مد يده في جيبه وقدم إليّ مسدسًا إنجليزي الصنع وقال:

-وهذا مسدس من النوع الذي يستخدمه البوليس الحربي أو من تسمونهم ذوي القبعات الحمراء. استخدمه في قتل (واين) أثناء الشغب، ثم تخلص منه حتى تبعد الشبهة عنك تمامًا. سيقوم رجالي على الفور بإخفاء جثته ليقال إنه متهرب من الجندية وتغلق قضيته على ذلك. أما إن وجدت جثته سيدركون أنه قتل برصاص طائش من البوليس الحربي الذي لا بد أن يُغِير على المكان لاستعادة النظام. في كلتا الحالتين لا شبهة عليك تمامًا.

أخذت أفكر فأكمل الرجل:

-ثم تأخذ مالك وسنعمل على إعادتك إلى أستراليا ونضمن عدم ذهابك إلى الحرب. لكنك تحتاج أن تكمل المهمة بأن تذهب إلى أسرة (واين)، وتعمل على ألا يفتشوا في الأمر أو يبحثوا فيه لينسوا الأمر تمامًا. هل أدركت الآن أن المهمة لا بد أن تقوم بها بنفسك؟

أدركت الخطة الجهنمية التي وضعها ذلك الرجل الشرير (جورج). ماذا عساي كنت أفعل؟! مالٌ وفير وتجنب للقتال وعودة للوطن للتمتع بالمال مقابل إشعال نيران الشغب وطلقة رصاص واحدة. فكرت أن أختبر جدية الرجل فقلت:

-هل لك أن تعطيني بعض المال مقدمًا ولو خمسين جنيها إسترليني؟

أخرج الرجل مائة جنيه إسترليني ووضعها في يدي بسهولة ودون أن يتردد كما لو أنه يخرج علبة سجائره، وذهب ليجلس على كرسيه وكأن الاتفاق قد تم بالفعل وقال آمرًا:

-من الجمعة صباحًا أريدكم أن تعيثوا في حارة الوزير حرقًا وتدميرًا فيأتي الليل وقد أبيدت عن بكرة أبيها مفهوم. ثم بعد الانتهاء سأعرف الأخبار وسأعرف بأمر (واين وارين) أيضًا. إن تم الأمر، سأوصل إليك بقية المال وسأقوم بعمل الترتيبات اللازمة لعودتك إلى أستراليا في الحال.

اللعنة... لقد تم الاتفاق بالفعل وها هو الرجل يملي عليّ أوامري. وضعت المال والمسدس في جيبي وخرجت من مكتبه ومن الفيلا متجهًا إلى (مينا)، وهناك قابلت (واين) في الخيمة فأخذت أطيل النظر إليه وأفكر فيه وفيما يمكن أن يحدث خلال الثماني وأربعين ساعة التالية، وظللت أفكر في الأمر قبل أن أنام وأقضي أسوأ كابوس في حياتي. ظلت الأفكار والأوهام تراودني في الأمر وأنا لا أدري ماذا عساي أفعل. (واين) لم يضرني في شيء ولم يعاملني بأي طريقة جافة أو جارحة حتى حين كان يتجنب مزاحي السمج. لكن إن لم أفعل أنا ذلك الأمر، أكيد سيجد السيد (جورج) غيري ليفعله وينال المال وينجو من الحرب. حتى وإن نجا (واين) فربما كان سيموت في الحرب لكن بعد أن أخسر أنا كل شيء. صار الأمر محسومًا إذن.

في الصباح استيقظت وقمت بالاجتماع مع أصدقائي المقربين كـ(هوارد) و(جيسون) وغيرهم، وقمت بإخبارهم بما أنوي فعله من تحريض آلاف الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين في معسكري (مينا) والمعادي، لندمر ونحرق (الوسعة) و(وش البركة) ببيوت البغاء والمقاهي، وأعطيتهم مالًا مقابل مساعدتي في هذه المهمة. لم يكن الأمر صعبًا فقد كانت صدور الجميع مغلولة منهم وتريد الانتقام إما لمرض ألم بهم أو سرقة تمت لهم أو خمر مغشوش شربوه. اتفقنا جميعًا

على يوم الجمعة العظيمة آخر إجازة لنا قبل الرحيل من (مينا) لننفذ الأمر.

فعلًا تم الأمر كما خطط له. تقابلنا أكثر من ألفين وخمسمائة جندي نعيث فسادًا في بيوت البغاء والمقاهي. نستعجلهم ونلعنهم ونسبهم ونستفزهم، وللغرابة كان كل شيء يمضي كما نخطط. حتى دخلت أنا واثنين من أصدقائي على أحد البيوت وادّعيت أنهم سرقوني، فأغلقوا في وجهي الباب فقمت أنا وأصدقائي بتهشيم الباب ودخلنا عليهم نضربهم ونحرق البيت ونرمي القوادين والعاهرات من النوافذ، كانت هذه هي شرارة البداية لبقية الجنود. انطلق أكثر من أربعةِ آلافِ جندي أسترالي ونيوزيلندي وبريطاني يدمرون ويحرقون بيوت البغاء والمقاهي بلا رادع. في الساعة الخامسة أتت عربات المطافئ فأمرتُ الرجال بمنعها من الدخول ووضعنا المتاريس من الأثاث المهشم وعربات الباعة الجائلين، بل إننا قطعنا خراطيم سيارات الإطفاء لضمان عدم إطفاء النيران واستمرارها أطول وقت ممكن. فاستعرت النيران أكثر وأكثر وحاولت الشرطة المصرية أن تتدخل، لكن عددنا كان كبيرًا عليهم ليحتووه فرحلوا يستدعون ويستنجدون بالبوليس الحربي.

بدأت أبحث وسط الشغب والحرائق والدخان والصياح

والصراخ عن (واين) وأنا متأكد أنه موجود. أخذت أسير بين الأزقة والحواري المزدحمة بحثًا عنه حتى وجدته مع مجموعة من الجنود البريطانيين. في نفس الوقت أتى صوت جلبة من بعيد لجنود يصيحون ويحذرون الجميع بقدوم ذوي القبعات الحمراء البوليس الحربي. استعد الجنود ونظموا صفوفهم لمواجهة مئات من جنود البوليس الحربي مدججين بالأسلحة الخفيفة، وكنا حتى ذلك الوقت لم نطلق طلقة رصاصٍ واحدة من أي جهة بالرغم من توافر مئات الأسلحة الخفيفة لدينا في المكان. انتظمت الصفوف وتواجه الفريقان وجهًا لوجه في حارة الوزير وكانت الأمور تنذر باندلاع المعركة، وقد وقف الفريقان يشهران أسلحتهما الخفيفة في مواجهة بعضهما البعض. جاء صياح قائد فرقة البوليس الحربي الإنجليزي يدعو الجنود الأستراليين للهدوء والعودة إلى معسكرهم، لكن كان رد الجنود الأستراليين بصيحات الاستهجان والشتائم. كان عددنا الكبير يجرِّؤنا على ما لم نكن نستطيع فعله سابقًا. هنا جاء دوري لإشعال الموقف.

اختبأت في مكان لا يراني فيه أحد، وبينما كان الفريقان يتصايحان ويتبادلان الشتائم والتلويح بالأيدي وقذف الأشياء، والأمور تستعر تصاعديًا على صفيحٍ ساخن، أطلقت رصاصة في الهواء من المسدس الذي أعطاني إياه السيد (جورج). هنا اشتعل الموقف فورًا وتبادل الطرفان إطلاق

الرصاص وكل جهة تظن الأخرى من بدئت إطلاق الرصاص الحي من جانبهم.

وجاءت اللحظة المناسبة لي، فتوغلت بين الأجساد المتحفزة والراكضة حتى لمحت (واين) يحتمي وحده بأحد مداخل البيوت. اقتربت من مدخل هذا البيت بهدوء حتى لا يدركني (واين)، وتوقفت على بعد أمتار قليلة من مدخل المنزل، وتحسست المسدس في جيب معطفي الداخلي. لمحني (واين) واقفًا فأشار لي أن أدخل إلى المنزل وأحتمي من الرصاص. يا للسخرية... كان يدعوني للنجاة من الرصاص! لكنني ظللت متجمدًا محملقًا فيه وأنا أتحسس المسدس. لاحظ (واين) ترددي فمرت على عينيه نظرة استفسار مع شك، حينها أدركت أنه لا تراجع وأنها لحظة التنفيذ. رفعت المسدس وأنا أخبئه بين طرفي معطفي حتى لا يراني أحد غيره. لحظتها رأى (واين) المسدس وفوّهته مصوبة إليه وأدرك نيتي. فاعتدل واقفًا بكل شجاعة، ثم نظر إليّ وفي عينيه نظرة متسائلة تصرخ في أعماقي لماذا؟ لم أعطِ نفسي الفرصة للتراجع وأطلقت رصاصةً واحدةً بسرعة فجرت صدره بالدماء وارتمى على إثرها إلى الخلف. انطلقت إليه وانحنيت عليه أفحصه وأدركت أنه ينازع الرمق الأخير، لكن نظرته الأخيرة طبعت في ذاكرتي حتى الآن عبر شبحه الذي يطاردني في كل مكان، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة

فوجئت برجُلي إسعاف دخلا علينا بسرعة شديدة وكأنهما كانا بالجوار منتظرين، ثم وضعوا (واين) على المحفة وغطوا وجهه بشرشف أبيض ليخفوه، ثم غمز لي أحدهما بطرف عينه فعرفت أنه من طرف السيد (جورج)، ثم أخذاه عبر الزحام دون أن ينتبه إليهما أحد وسط الهرج والتدافع والرصاص المتطاير، وكانت هذه آخر مرة أرى فيها الجندي (واين وارين) حيًا، وبدلًا من ذلك بدأت منذ تلك الليلة أرى شبحه يطاردني في كل مكان.

انتهت الأحداث بعد تدخل الخيالة الخفيفة للجيش الإنجليزي وكان الجميع يكن الاحترام لهم والخوف منهم، وهدأت الأمور قبل الساعةِ العاشرةِ مساءً، وانسحبنا كلنا متجهين إلى معسكراتنا، وأتت عربات الإسعاف تحمل المصابين والقتلى الآخرين. عدنا إلى المعسكر وأخذ كل واحدٍ منا يحكي ويثرثر عن الأحداث ودوره فيها. بعضهم يتفاخرون بما فعلوا، وآخرون يتندرون ويتهكمون بأكثر يوم ممتع لهم، وآخرون قلقون متحيرون عن مدى صواب ما أقدمنا عليه. أما أنا فظللت متجمدًا في خيمتي أرتعد كالممسوس حتى الصباح، على العكس مما كنت عليه بالأمس من شجاعة وإقدام وثورية حتى غلبني التعب ونمت بعض الوقت. استيقظت في اليوم التالي يوم السبت ٣ إبريل على أحاديث الجنود عن محاكمة تحدث بالفعل ذلك اليوم للبحث

في أسباب اندلاع الشغب. وبينما كنت ألبس معطفي وجدت ظرفًا في جيبي ففتحته ووجدت فيه مائتي جنيه إسترليني وقرارًا مختومًا من وزارة الدفاع البريطاني بتسريحي من الخدمة وترحيلي في بارجة تنطلق في اليوم التالي من الإسكندرية. يبدو أن السيد (جورج) قد نفذ وعده كما أخبر.

أخذت ألملم حاجياتي من الخيمة، حتى وجدت حقيبة (واين) مغلقة ومجهزة للسفر. فتحتها ورأيت محتوياتها ورأيت على سطح الحاجيات تلك الذبابة الميتة كأنها تذكرني بجرمي وذنبي أو كأنها ميدالية انتصاري في معركة الوزير، لكن الشيء الذي شد انتباهي أكثر هي يوميات (واين). فتحتها وأخذت أقرأ ما بها، فأدركت خطورتها لما تحتويه من معلومات قد تكشف عن المؤامرة. لذلك قررت أن أحمل حقيبة (واين) معي لأعطيها إلى أهله في (باترست) كجزء من خطة الخداع، لكن اليوميات لا بد أن أتخلص منها. وطوال رحلتي على البارجة لمدة أربعة أسابيع وأنا أفكر في هذه اليوميات والسبيل الأفضل لاستخدامها لتحقيق مأربي، فقارعتني فكرة أن أستبدل اليوميات الحقيقية بيوميات أخرى تخفي معالم ما حدث في القاهرة، وبالفعل أحضرت دفتر يوميات مشابهًا وأخذت أفكر فيما سأدونه فيه، فأدركت أن أفضل ما أدونه فيه هو يومياتي أنا شخصيًا وما كنت أداوم على فعله في القاهرة من شغب وشذوذ وانحراف

وعراك وتحريض. هذا سيكون خداعًا كافيًا لنبذ أي فكرة اغتيال أو مؤامرة أيًا كان قارئ هذه اليوميات. ماذا يضر (واين) الآن إن حمّلته بعض آثامي وتهمي!

وفعلًا وصلت إلى سيدني ثم (باثرست) وكان أول مكان أذهب إليه هو منزل (واين وارين) بعد أن شجعت نفسي ببعض النبيذ الغير مغشوش. قابلت زوجته وابنه (كيث) ذو التسعة أعوام وأخبرتهم أن (واين) مات مقتولًا في أحداث (الوسعة) عندما أشعل أحداث الشغب بنية التهرب من المعركة، لكنه قتل على يد فتوات وقوادي (الوسعة) حين كان مع آلاف من الجنود الذين أحدثوا شغبًا مثارين ومستائين من سوء الخدمة في بيوت البغاء وحانات الرقص الخلاعي التي كان (واين) زبونًا دائمًا بها. لم تصدق زوجته وانهارت باكية غير مصدقة أنني أحدثها عن (واين وارين) زوجها وحبيبها ابن القس الذي كان يستعد لقيادة الكنيسة. احتضنتها وهدأتها وأقنعتها أن أفضل تصرف في هذا الأمر هو إخفاء أنباء تهرب (واين) من الجندية ومقتله على أيدي القوادين في حي تجارة البغاء، والإعلان بدلًا من ذلك عن موته في حرب الأتراك حفظًا لذكراه وتفاديًا للعار الذي يمكن أن يلحق بالأسرة، ثم ودعتها واحتضنت (كيث) ورحلت.

أما أنا فقد ظننت أنني سوف أعيد بناء حياتي من جديد

بالأموال الوفيرة التي جنيتها من جريمتي في القاهرة، وسأنسى كل مشاكلي وسأنسى (واين) ودمه الذي يلوث يدي، لكن ما حدث كان غير ذلك بالمرة. خلال شهور قليلة فقدت كل هذه الأموال في القمار ومشاريع فاشلة وقد ظننت أنني سأضاعفها، وعدت سيرتي الأولى مع العديد من المشاكل المالية والأخلاقية والديون وملاحقة الشرطة. عاد كل شيء سيرته الأولى قبل أن أذهب إلى مصر لكن بعد أن أضيف إليه كابوس يومي عن (واين وارين) وهو يطاردني بنظرته الأخيرة والدماء تلطخ صدره. ظل هذا الكابوس يكبر ويقتلني في الليلة آلاف المرات.

ومرت السنين وتزوجت وأنجبت ابنتي (آن) وكبرت (آن). كل هذا لم يستطع أن يمحو هذا الكابوس وآثاره علي وقيوده لروحي وجثومه على صدري. حتى حين كنت أدعى إلى مراسم تأبين شهداء (جاليبولي) بيوم الأنزاك من كل عام، فيلتف حولي الجميع بعيون الفخر والإعجاب كوني أحد أبطال (جاليبولي) الذين نجوا من الموت، وكنت كلما أشعر بشيء من الفخر والسعادة، يأتيني شبح (واين) لينغص عليّ سعادتي المنقوصة، ويذكرني أنني أنا من قتلته وهربت من الحرب كأي جبان خسيس وألصقت كل التهم به، وتعودني صورة الذبابة الميتة كميدالية معلقة على صدري كبطل لمعركة الوزير.

حدوتة الكتب جرامية

وبعد عشرات السنين تملكتني الأمراض واحدًا تلو الآخر وكأنني أعاقب على ذنب مقتل (واين) دونًا عن كل الذنوب الأخرى، قضيت سنينَ طويلةً بين المستشفيات والدواء. لوهلة ظننت أنني إذا تخلصت من ذنب (واين) ربما أجد الخلاص لروحي وجسدي من هذه الآلام، فأخرجت يوميات (واين) الأصلية من أدراجي وأرسلتها إلى (كيث) على العنوان الذي أمتلكه لـ(واين) وليكن ما يكون. ليستنتج بعقله ما يريد، وليعلم ما يريد، وليسأل عما يريد. كنت قد فقدت الأمل في الحياة وأملي الوحيد فقط أن أحصل على سلام روحي بأي وسيلة. لكن لم أسمع من عائلة (وارين) أي شيء وكأن شيئًا لم يحدث وكأنني لم أرسل شيئًا البتة.

واستمرت الآلام تتضاعف حتى تم تشخيص مرضي بالسرطان، وأنه يستشري في جسدي وأنني سأموت خلال عام أو أقل. ووصلت الآلام إلى الحد الذي لا يتحمله بشر، فكان دوائي الوحيد وخلاصي من الآلام هي المخدرات التي كانت ترسل روحي إلى عالم شفاف بين الموت والحياة حيث لا آلام للجسد. نجحت المخدرات بعلاج آلام جسدي لكنها لم تنجح في صرف شبح (واين). كلما تناولت المخدر أرتاح من آلام جسدي لكن يأتني (واين) ويعذبني بنظرته وبكلامه وتقريعه، فصرت بين خيارين أحلاهما أمر من الآخر. إما أن

أتحمل آلام جسدي أو أتحمل آلام روحي. وحين أدركت أن النهاية قادمة لا محالة وتقترب بسرعة شديدة قررت أن أعترف. أعترف بذنوبي للرب وهي كثيرة لا تحصى. أعترف بقتلي لرجلٍ لا ذنب له إلا أنه كان زميل خيمتي في وطن فاسد كمصر. وهأنا ذا أعترف للقس (هينلي) لعله يشفع لي وليغفر لي الرب.

أما أنت يا (كيث) فلا أزال أذكر نظرتك لي عندما ضممتك إلى صدري يوم أخبرتكم بموت أبيك. لم تكن نظرة طفل ذو تسعة أعوام. بل كانت نظرة ملاك يعرف أنني شيطان كاذب ملوَّث بدماء أبيه. نظرة الشك في عينيك لا تقل ألمًا عن نظرة الموت لأبيك. سامحني يا ولدي أنني حرمتك من أبٍ طيب وتركتك تعيش يتيمًا في عالم مليء بأمثالي ويندر فيه أشباه أبيك. فات أوان الغفران... أتي يوم الحقيقة.»

إمضاء (جوشوا أليسون بخط يده)

إمضاء وشهادة القس (كاميرون هينلي) قس الكنيسة - باثرست

الفصل الثامن يوم الأبطال

صدام الحضارات. (عفت البدوي- سيدني-الحاضر)

أخذت أكرر الجملة الأخيرة لـ(جوشوا) في خطابه «فات أوان الغفران وأتى يوم الحقيقة». ظهرت الحقيقة التي ظلت لقرنٍ من الزمان مستترة لا يريد أن يبحث عنها أحد. ظهرت الحقيقة جلية واضحة لكن لا أحد يريد أن ينظر إليها. لا يريد (كيث) أن ينبش في أوراق الماضي وقد استسلم لحقيقة موت أبيه الهارب، حقيقةٌ كافيةٌ ليستمر في حياته دون أن ينظر إلى الوراء. مات (جوشوا) ولا يعرف أحدٌ عما اقترفه وعن ماذا كان يُعذب في آخر سنين حياته ويكفّر عنه. اختفى (محمد خليل) بعد أن قبض عليه البوليس السياسي ولا يعرف مصيره، واختفت معه حقيقة (أنجيلا). حتى (أنجيلا) وأخوها (أندرو) رُحّلوا من مصر فورًا واختفت أخبارهما فلا أحد أدرك ما اقتُرف في حق المسكينة التي فقدت إنسانيتها وأنوثتها ولم يعاقب أحد على ذلك، وربما عاشت بقية حياتها وحيدة حزينة ضائعة. وُضِع (راسل) باشا على رف التاريخ المصري مع المئات من رجال الاحتلال البريطاني، ووضعت مذكراته المنقوصة على أرفف المكتبات لا يشتريها إلا النذر اليسير. لا يبقى إلا أنا (عفت البدوي) بروح متطيرة متألمة على إنسانيةٍ معذبة ووطنٍ ممزقٍ بالفساد عبر العصور، فهل

نلت أنا ما أريد؟ لا أظن!

لكن مهلًا لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية. لا بد أن هناك شيئًا ما يمكن فعله وسط كل هذه الأرواح الهائمة المعذبة. ربما هناك روحٌ أخيرة يمكن أن أهبها السلام مرةً أخرى، روح العجوز (كيث وارين). هو الوحيد الباقي حيًا كشاهدٍ على جزء من أحداث هذه الحكاية، ومن الممكن أن أنجيه من عذاب روحه حتى وإن تعمد إخفاءه وتنكر لوجوده. قررت أن أفعل شيئًا ما. الحقيقة التي عرفت أبعادها لا يمكن أن تموت في أدراج مكتبي كما كادت أن تموت في حقيبة قديمة وأدراج متربة. الجريمة التي عرفتُ ضحاياها والمؤامرة التي عرفت مخططيها ومنفذيها لا بد أن يكون لها مردود ولو على نفسٍ واحدة شريدة.

أمسكت هاتفي المحمول بلا تردد وطلبت هاتف السيد (كيث وارين) دون أي ترتيب. ظل الهاتف يرن دون إجابة حتى أتت الرسالة المسجلة بترك رسالة فأغلقت المكالمة. ثم كررت الاتصال بإلحاح حتى ردت عليّ أخيرًا (روز) زوجته فقالت بصوت ضعيف متهدج:

-ألو

-سيدة (روز) كيف حالك أنا (عفت البدوي).

صمتت قليلًا ثم قالت بصوت خامل:

-أهلا سيد (عفت) كيف يمكن أن أساعدك؟

تجاهلت أسلوبها الجاف وقلت بحماسة:

-هل من الممكن أن أتحدث مع السيد (كيث). أعلم أنه قد يعارض ذلك ولكن لدي له أمر مهم سيفرح له كثيرًا.

أتى صوت زمجرة السيدة (روز) وهي تقول:

-أرجوك يا سيد (عفت) هذا وقت غير مناسب. (كيث) يقضي الآن أيامه الأخيرة وربما تكون ساعات قليلة متبقية في حياته. مهما كان ما لديك فلا قيمة له.

سكتُّ مصدومًا فالرجل كان في ذروة صحته منذ أسابيع. ألححت عليها:

-هذا أدعى أن أقابله يا سيدتي. هذا أمر مهم له ولعائلتك كلها.

مرت ثواني لم تردّ السيدة وحدث نوع من الصياح بصوت ذكوري حولها سمعته ثم جاء صوت رجل على الهاتف صائحًا فيّ بفظاظة:

-يا سيد ...أرجوك لا نريد منك أي شيء...مع السلامة.

ثم أغلق الهاتف في وجهي. هل أكلمه مرة أخرى؟ ماذا

روضة الكتب حرامية

عساي أن أفعل؟ سأذهب بنفسي في الصباح إلى بيتهم وليكن ما يكون. أمضيت المساء وأنا أرتب لنفسي ما سأقوله وأحاول أن أتوقع ما سيحدث. وفي الصباح أعددت عدتي وأحضرت الحقيبة ودفتريّ اليوميات وخطاب (جوشوا) وطبعت مسودة كتاب (راسل) باشا، وتوجهت إلى منزل (كيث وارين) بقرية التقاعد وكلي عزم وتصميم أن أعلن الحقيقة مهما كلفني الأمر. وصلت إلى المنزل وطرقت الباب فخرجت (روز). أحرجت عندما شاهدتني أقف على عتبة بيتها ومعي الحقيبة الصفراء مرة أخرى فقلت لها:

-سيدة (روز) صباح الخير. أعلم أنني جئت دون سابق ميعاد، وأعلم أنك تظنين أن الوقت غير مناسب، لكن لدي شيء جد مهم لا بد أن أخبر(كيث) به.

ظلت المرأة تنظر إليّ محرجة ثم دخلت المنزل دون أن تحاول أن ترد عليّ. غابت بعض الوقت ثم جاء رجل في الستين من عمره يشبه (كيث) كثيرًا يبدو أنه ابنه وهو متحفز مستنفر وقال بفظاظة:

-ماذا تريد يا سيد؟ أرجوك اعلم أنك شخص غير مرغوب فيه هنا الآن.

وشرع في إغلاق باب المنزل في وجهي لكنني استوقفته ورددت عليه بكل عزم:

-لست هنا للجدال أو النقاش. أنا هنا لأخبر (كيث) بحقيقة مهمة عن موت أبيه ستفرحه كثيرًا.

استشاط الرجل غضبًا من منعي غلق الباب فانطلق خارجًا من المنزل في اتجاهي، ودفعني دفعة عنيفة في صدري كادت أن توقعني صائحًا:

-لا نريد أي شيء منك يا رجل... يكفيك هذا... لماذا تصر أن تفتح خزانة من الأسرار أغلقها أبي منذ مئات السنين لسبب هو وحده يعلمه؟! هو لا يريد منها أي شيء ونحن نحترم رغبته فلماذا لا تحترمها أنت وأنت لا ناقة لك ولا جمل؟!

شعرت بالألم في صدري من دفعة الرجل الغير مهذبة واستفزازه لي بطريقته الفظة، فانطلقت ناحيته متحديًا إياه، فظن الرجل أنني سأهجم عليه فلكمني لكمة قوية على خدي ترنحت لها وسقطت متأوهًا على الأرض فلم أكن مستعدًا لها على الإطلاق. خرجت (روز) مسرعة من الباب ثم دفعَت الرجل بعيدًا عني وانطلقَت منحنية عليّ تفحصني في حنان ورعاية، وساعدتني على النهوض قائلة:

-لقد طلبت منك أن ترحل يا (عفت) لماذا لم تسمع نصيحتي؟ تعالَ معي إلى الداخل لأضع بعضًا من الثلج على وجهك.

لم يستطع الرجل أن يمنعني من دخول المنزل وأمه تساعدني على النهوض وتقتادني إلى داخل المنزل وإلى المطبخ، حيث أجلستني على كرسي خشبي وأخرجت من الثلاجة كيسًا من الثلج، ووضعته على خدي الذي ازداد احمراره من أثر اللكمة، وأنا أرمق الرجل الذي وقف متحفزًا على باب المطبخ يتطلع إليّ بحنق أو ربما ليمنعني من الدخول إلى والده. ثم وضعت (روز) لي كوبًا من الشاي الأخضر وجلست أمامي قائلة:

-ما سر إصرارك هذا يا (عفت) على كشف أسرارٍ فعل (كيث) كل ما يمكنه من أجل إخفائها؟

تحسست وجنتي المبللة بالثلج ثم قلت:

-صدقيني يا سيدة (روز). إن ما لدي من معلومات مغاير تمامًا لما تعتقدون. لست هنا لتقليب الذكريات المؤلمة أو كشف إرث مخجل لـ(كيث)، بل على العكس لقد عرفت أمورًا ستزيد من راحته وسلام روحه وسعادته وفخركم.

قال الرجل حانقًا:

-عن أي شيء تتحدث يا رجل؟ أنتم العرب والمصريون لا يأتي من ورائكم إلا المشاكل والآفات. أنتم لا تستحقون إلا أن تساقوا كالأنعام في بلادكم بأيدي محتل غازٍ أو دكتاتور دموي

عميل.

هذا الرجل يستفزني مرة أخرى للشجار:

-وماذا تعرف أنت عن المصريين يا رجل؟ هل سافرت وعشت بين المصريين؟ هل تعاملت معهم؟ هل ذكر التاريخ يومًا أن المصريين غزوا دوركم وأرضكم واستعمروا بلادكم؟ نحن لم نفعل مثلكم ولم نبحر آلاف الأميال ونترك أهلنا، لنحارب شعوبًا لا نعرفها وليس بيننا وبينهم أي عداء بالمرة فقط سعيًا للمال أو لإرضاء مستعمر آخر لا يزال يحتل وطنك حتى اليوم بشكل أو بآخر.

شعر الرجل بالإهانة واستعد أن يكيل إليّ اللكمات لولا وجود أمه. فقال محذرًا:

-أنت تهيننا في وطننا! وأنت مجرد لاجئ جئتَ هربًا من وطنك الفاسد بحثًا عن الحرية والأمان في وطننا؟! وأنت في وطنك عبدٌ لا حقوق لك! هل تهيننا وأنت قادم بمشاكلك النفسية والدينية لتخرج لنا جيلًا من الإرهابيين والمجرمين على أرضنا؟!

عرفت ما يعنيه فقلت:

-لا أنكر أنني جئت أستراليا بحثًا عن مستقبل آمن لأولادي، وحياة إنسانية مبنية على الحد الأدنى لحياة كريمة وحرية

أنشدها لي ولهم، ولا أنكر أننا في وطننا الأم نفتقد إلى هذه المبادئ. لا يعيبني شيء في أن أسعى من أجل ذلك. لكن أنت يعيبك ترديدك لكلام الجهلة والعامة وأنت لا تعرف شيئًا عن مصر وشعبها وتاريخها. ولو أنك زرتها يومًا من الأيام لعرفت عن ماذا تتحدث كما علم جدك (واين). لقد جئت أستراليا بمالي ومهاراتي وخبراتي التي تحتاجونها في أرضكم. لقد جئت أستراليا باختياري ولم يجبرني أحد على ذلك. على الأقل أنا لم آت إلى هذه الأرض مغلولًا بالأصفاد منفيًا كأجدادك المذنبين؟

استعد الرجل فعلًا لضربي ويبدو أنني قد أصبت منه شيئًا حساسًا لكن صاحت (روز) :

-من فضلكما توقفا. توقف يا (ليام). توقف يا (عفت). يا (عفت) ليس لديك شيء تقوله لـ(كيث) تنجيه من موته الحتمي. إنه يريد أن يعيش الساعات القليلة الباقية له بين أبنائِه وأحفاده في سلام. هل من الممكن أن ترحل الآن؟

هززت رأسي معاندًا وقلت:

-لا أستطيع يا سيدة (روز). يمكنك أن تدخليني على (كيث) بضع دقائق أو يمكنك استدعاء الشرطة.

صدمت المرأة لإصراري واستعد (ليام) لضربي قائلًا بإصرار:

-أو يمكن أنا أن أبرحك ضربًا وأرميك في الخارج ...

استعددت لتلقي اللكمات حتى جاء صوت امرأة خمسينية من خلف (ليام) قائلة:

-(ليام)... أبي يسمح للسيد (عفت) أن يدخل عليه.

زفر(ليام) زفرة غاضبة مهزومة، بينما وضعت (روز) يدها على جبهتها شعورًا بخيبة الأمل. أما أنا فقمت من مجلسي ورفعت أشيائي وتوجهت مع المرأة إلى غرفة (كيث) وأنا أرمق (ليام) بنظرة تشفٍّ.

***

الحقيقة العارية أجمل. (عفت البدوي-سيدني-الحاضر)

أخذتني المرأة واسمها (بيتا) ابنة (كيث) الصغرى، وأدخلتني إلى غرفته حيث كان يرقد متعبًا وخراطيم الهواء والدواء متصلة بجسده في كل مكان وهو يتنفس بصعوبةٍ بالغة، بينما كانت الغرفة ذات ضوءٍ خفيض مكيفة الهواء، هذا لم يمنع وجود رائحة الدواء المعبقة في كل مكان بالغرفة مع العديد من علب الدواء مرصوصة على جانبي المخدع بانتظام. نظرت إلى وجه (كيث) فوجدته مرهقًا مغلق العين رطب الجفون الملتهبة وقد ظهر نحول شعره الرمادي. أجلستني السيدة (بيتا) على كرسي بجوار مخدعه، ثم

جلست هي على كرسي في آخر الغرفة، ودخل (ليام) و(روز) فجلسا هما الآخران على كرسيين في الجانب الآخر من المخدع ربما ليتأكدا أنني لن أنال من سلام الرجل وروحه.

جلست وانتظرت قليلًا محاولًا استنباط كيف أبدأ الحوار والرجل غارق في نومه أو غيبوبته، حتى أتي صوت الرجل متحشرجًا بالرغم من عدم فتحه عينيه وقال:

-ماذا تريد يا سيد (عفت)؟ ماذا لديك يجعلك مصرًا أن تقلق روح رجلٍ يودع الحياة بين ساعة وأخرى؟

نظرت إليه وفهمت ما يقصده فقلت:

-يا سيد (كيث). إن ما أحمله إليك هو على العكس سيفرحك ويرضيك. إن ما عرفته عن أبيك...

قاطعني (كيث) وهو يسعل:

-ألا تزال تتكلم عن ذلك الرجل مرة أخرى؟ ألا تعي أنني لا أريد أن أعرف شيئًا عنه أكثر مما أعرف؟

تحفز (ليام) وقال:

-دعني أخرج الرجل يا أبي.

فسارعت بالقول:

-أعلم ما تفكر فيه وأقدر مشاعرك ولكنك لا تعلم حقيقة

الأمر. اسمح لي ببضع دقائق قليلة سأخبرك بما عرفته وسعيت وراءه حتى أدركته بالدليل.

تجاهلني (كيث) وقال وهو لا يزال مغمض العين وكأنه يتكلم أثناء نومه:

-كل هذه السنوات تناسيت ذلك الرجل، وقررت أن أسير قدمًا في حياتي دون الرجوع إليه وإلى سيرته متمنيًا أن تموت حقيقته مع موتي. هل تعلمون أمرًا؟ أعتقد أن الوقت قد حان لأخبركم عن حقيقة جدكم. حسنًا يا سيد (عفت)، تكلم وأخبر أسرتي عن جدهم الهارب الفاسق اللعوب. لم يعد يهمني الأمر بعد الآن...تكلم...

مهما تكن مشاعر ذلك الرجل، لا يمكنني أن أرفض هذه الفرصة الآن وأستطيع أن أخبرهم بكل شيء. بدأت أحكي لهم كل شيء والرجل (كيث) مغمض العينين لا أدري إن كان نائمًا أو ميتًا لكني أدرك أنه يسمعني بين الحين والآخر حين يبتلع لعابه بصعوبة.

أخبرتهم بالحقيبة التي وجدتها وبلقائي العنيف مع (كيث) حين أخبرته بالحقيبة، ورجوعي إلى البيت وبداية تفحصي لمحتويات الحقيبة وما وجدته بها، ثم أخبرتهم وأريتهم اليوميات التي وجدتها بالحقيبة وقراءتي لها وما وجدته فيها من يوميات تافهة لشخص لعوب فاسق عاش فسادًا في

شوارع القاهرة حتى أشعل الأزبكية بيديه، ثم أخبرتهم بمعركة الوزير أو أحداث (الوسعة) التي شارك فيها أو ربما قادها بنفسه كما يخبر في اليوميات، ثم اختفاءه هربًا واحتمالية قتله المرجح أثناء تلك الأحداث. لم تتبدل ملامح وجه (كيث) وقد كانَ يعرف كل ذلك.

أخبرتهم عن مفاجأة اليوميات الأخرى التي وجدتها في الخطابات القديمة وأظهرتها لهم، ثم أخبرتهم بما قرأته فيها عن أخبار (واين وارين) التي تبدو حقيقية صادقة، وما بها من قصة (أنجيلا) و(محمد خليل). أخذ (ليام) يقلب حائرًا بين دفتري اليوميات الأولى والثانية محاولًا أن يتفهم الأمر. ثم أكملت لهم شعوري بالحيرة وبحثي عن الحقيقة حتى وجدت كتاب (راسل) باشا وأحضرته وقرأته، وخيبة أملي حين لم أجد فيه شيئًا حتى توصلت إلى النسخة الأصلية للمذكرات بخط يد (راسل) باشا من بريطانيا عبر صديقي دايفيد، ثم أخبرتهم بما وجدته في المذكرات من فصل محذوف يخبر عن قضية فساد كبيرة في مصر أدت إلى أحداث حارة الوزير واختفاء (واين وارين) فيها. حاولت أن استنبط شيئًا من ملامح وجه (كيث) لكني وجدته جامدًا كالأموات، فأكملت وأخبرتهم عن خطاب اعتراف (جوشوا). وهنا تبدلت ملامح (كيث) وانعقد حاجباه وتسارعت أنفاسه وأنا أحكي له عما بالخطاب وأسلمت الخطاب لـ(ليام) الذي

أخذه مشدوهًا وهو يقرأ اعتراف (جوشوا) بقتل جده (واين وارين).

بعد أن أفرغت ما لدي من دلائل وبراهين، نظرت إلى (كيث) وخشيت أن يكون الرجل قد فارق الحياة بالفعل قبل أن يستمع لحقيقة مقتل أبيه. فقلت موجهًا كلامي إلى (كيث):

-أبوك لم يتهرب من الجندية أو يُقتل فاسقًا في بيوت البغاء ومقاهي الرقص الخلاعي على يد القوادين والفتوات في القاهرة يا سيد (كيث). أبوك مات مدافعًا عن شخص مظلوم محاولًا تحريره من الرق والعبودية والمهانة. أبوك رفض أن يتخلى عن صديقه المصري (محمد خليل) الذي كان يحارب الفساد ليكشف عن المتورطين في هذه القضية. أبوك قتله زميله في الخيمة (جوشوا) بعد أن أغروا (جوشوا) بالمال واستغلوا نقاط ضعفه وجبنه. أبوك وقع ضحية للفساد في مصر ولم يكن باغيًا ولا فاسقًا يوما ما. لأنك لم تفتش عن الحقيقة ظننت في أبيك السوء، ولكن الأقدار ساقتني عبر آلاف الأميال إلى هنا لأحل لغزًا عمره أكثر من مائة عام وأعرف الحقيقة وأنقذ ذكرى رجلٍ من تدنيسها وأنقذ روحك من آلام الأسرار المخزية وأهبك سلام الحقيقة.

لم يرد (كيث) وكدت أظنه مات إلا أنني وجدت صدره يرتفع بأنفاسه. انتظرت أن أسمع ردًا منه لكن لم يحدث.

الرجل صامت كالتماثيل المستلقية وكأنني لم أقل شيئًا. نظرت حولي إلى (روز) و(بيتا) و(ليام) فأشاروا لي يدعونني إلى الخروج من الغرفة، ولكن هذه المرة تبدلت نظراتهم إليّ فأصبحت مزيجًا من العرفان والشكر. هممت فعلًا بالخروج من الغرفة وأنا كلي رضا عما أقدمت عليه. لقد أديت رسالتي مهما كانت النتيجة حتى لو تجاهلها (كيث). وقبل أن أصل إلى باب الغرفة جاء صوت (كيث) يتكلم بصعوبة وبصوت متهدج باكي:

-كنت صغيرًا ذو تسعة أعوام أنتظر عودة أبي الحبيب الذي غمرني بحب ورحمة لا تقارن ولا تتكرر، ولا أزال أذكر وجهه الحبيب وهو يودعني قائلًا «تذكر يا (كيث) أبوك يحبك وسيظل مخلصًا لأسرته ولوطنه، وسيعود إليكما بالمال والأحضان والقبلات». حتى جاء ذلك الرجل (جوشوا) يحمل حقيبة أبي ويخبرني وأمي بمقتله في القاهرة في حربه ضد القوادين والعاهرات في حارة الوزير أثناء تخطيطه للتهرب من المعركة. أخذت أمي تبكي غير مصدقة لما تسمع فقد كان أبي رجلًا تقيًا يستعد لقيادة الكنيسة، وكان جدي قس الكنيسة رباه على التقوى والإيمان والخير ومساعدة الآخرين. لم تصدق أمي شيئًا مما قاله (جوشوا) وأخذت تبكي وتنتحب بينما ظل (جوشوا) يتفنن ويفصّل في إخبار أمي بأمور أبي المشينة وأخباره المخجلة في القاهرة وتفاصيل

فسوقه وعهره وتحريضه وعربدته وخطته للهروب من المعركة بإشعال الشغب حتى قتل على أيدي القوادين والفتوات. لا أزال أتذكر ذلك الرجل (جوشوا) بوجهه القميء وهو يحتضن أمي ويهدئ من روعها وينصحها ألا تتحدث عن هذه الأشياء لأي أحد حفظًا لماء وجه أبي قائلًا: (ما حدث في القاهرة لا بد أن يبقى في القاهرة). وبينما كنت أرمقه بنظرة شك وكره، جاء الرجل واحتضنني، فشممت رائحة الخمر من فيه وهو يقول لي غامزًا بعينيه (كيث...لابد أن تتذكر... ما حدث في القاهرة... يبقى في القاهرة). ظللت أتذكر هذا الرجل واسمه بكل كره واشمئزاز منذ ذلك الوقت.

ابتلع (كيث) لعابه وأكمل وقد نزلت الدموع من عينيه المغلقتين فأخذت (بيتا) تمسحها وقال:

-تركت أمي تنتحب في غرفتها وأخذت حقيبة والدي إلى غرفتي لأفتحها وأعرف ما بها. وجدت على سطح ملابسه ذبابة ميتة ملتصقة بقميصه الأبيض. ظل منظر هذه الذبابة ملتصقًا في ذاكرتي أبد الآبدين. برغم صغر سني في ذلك الوقت، قرأت اليوميات التي بالحقيبة وشعرت بالعار والخجل مما قرأت، فلم أستطع أن أكمل البحث في أشياءه بالحقيبة. أغلقت الحقيبة بكل ما فيها وأبعدتها عن متناول الجميع، فكلما رأيتها تذكرت الذبابة الميتة فازداد اشمئزازي الذي

التصق في ذهني مع سيرة أبي المخجلة.

سكت قليلًا ثم أكمل:

-عندما حاولت أمي محاولةً أخيرة في البحث عن أبي عبر وزارة الدفاع، أتاها الرد أن (واين وارين) متغيب منذ يوم ٢ أبريل ١٩١٥م في القاهرة، وأنه تم اعتباره متهربًا من الجندية والمعركة. لم يعد من بد أن تصدق أمي كل ما قاله (جوشوا). وجدت أمي وقد كبرت عشرات الأعوام خلال أشهر قليلة بعد اختفاء أبي. وبالرغم من عدم إبلاغنا لأحد عن طريقة مقتله إلا أن جدي أصر أن يعرف كيف مات ابنه، فاضطرت أمي أن تخبره بما عرفت فكانت صدمةً شديدةً على الرجل في ابنه الوحيد فمات خلال شهور. أما أمي فانتابتها حالة من الوحدة والوجوم والصمت لمدة سنتين، ومرضت بأمراض نفسية جعلتها غير متزنة حتى ظنناها ممسوسة بالشيطان. لم تكن تصدق أنها كانت مخدوعة في زوجها الحبيب كل هذا الوقت وقد تربيا سويًا وعاشا قصة حب قبل زواجهما، ومشاركته لها الحياة والفراش وهي مخدوعة فيه، وها هو يتحول إلى شيطان معربد عندما أتيحت له الفرصة المناسبة والأرض الخصبة لذلك. في أحد الأيام استيقظنا لنجدها وقد قطعت شرايين يديها وماتت منتحرة.

زاد نحيب (بيتا) وهي تسمع أباها يحكي مأساته، بينما

اكتفت (روز) بمسح عينيها الدامعتين وبقي (ليام) صامتًا شاردًا فيما يسمع، وقد ازدادت حرارة الغرفة من قدسية الأخبار وقساوة الحكاية. فأكمل (كيث):

-ماذا تعتقدون في طفل لم يكمل أعوامه العشرة وقد فقد أباه أحب الناس إلى قلبه، ثم صدم فيه حين تهرب من واجب وطنه وعائلته، ثم مات مقتولًا فاسقًا في أرض غريبة، وأمه ماتت منتحرة إثر صدمتها في زوجها الذي اكتشفت أنها لم تكن تعرفه، وجده القس مات بنوبة قلبية بعد شهور من موت ابنه المخجل وقد هجر قداس الكنيسة شاعرًا بعدم أهليته لقيادته مرةً أخرى. لقد وجدت نفسي يتيمًا بلا شيء يدعمني، ولا يتبقى من ذكرياتي سوى حقيبة سفر بها ذبابة مصرية ميتة عبرت آلاف الأميال لتذكرني دائمًا كيف مات ذاك الرجل وكيف تسبب في مأساتي.

سكت قليلًا ثم تكلم:

-انتقلت إلى دار أيتام وقررت أن أنسى كل شيء ورائي لكن الشيء الوحيد الذي تبقى تلك الحقيبة التي احتفظ بها لي أحد جيراننا من قريتنا ظانًا أنه يسديني معروفًا!. وكان في كل عام تصل دعوات من وزارة الدفاع إلى أبناء شهداء الأنزاك بدار الأيتام لحضور مراسم تأبين شهداء الأنزاك يوم ٢٥ أبريل من كل عام. فكنت أشعر بالغيرة متمنيًا لو كان والدي قد مات

في المعركة البطولية، وترك لي ذكرى خالدة وفخرًا يكفيني طوال العمر. أصبح احتفال يوم الأنزاك يوم عارٍ بالنسبة إليّ، يذكرني بالعار الذي سيلحقني إلى الأبد بموتة مخزية وهروب من الجندية وبطولة مزيفة في حربه الفاسقة ضد القوادين والعاهرات! أصبح احتفال يوم الأنزاك السنوي كتلك الذبابة المصرية في حقيبة السفر تذكرني بما أحاول أن أنساه من عار وخجل. لطخة سوداء في حياتي كالوباء الأسود. نجحت في تناسي الأمر وتقدمت في حياتي وأنشأت أسرتي، وكان كل همي أن أنظر إلى المستقبل الواعد وأمحو الماضي المخجل. وتمر السنين وأنا أتناسى الأمر حتى أرسل جارنا الحقيبة إلى منزلي وكأنها قدر يتبعني أينما أذهب. أخذتها ووضعتها بعيدًا عن متناول الجميع، فلا أريد من أحد أن يذكرني بذلك الرجل سبب مأساتي في الحياة.

صمت مرة أخرى يحاول أن يلتقط أنفاسه، ولم يحاول أحدنا اعتراضه أو استعجاله مقدرين للمجهود الشاق الذي يبذله ليتكلم ثم قال:

-اعتقدت أن كل شيء صار على ما يرام، والسنين تمرق أمام عيني وعائلتي تكبر معي. لكني احتفظت داخلي بكره للمصريين بل وكل العرب الذين قابلتهم في حياتي. هم أيضًا مشاركين في الإثم والجريمة وهم أحد أسباب نكبتي.

انطبعت على ذاكرتي صورة المصريين الموجودة في يوميات الحقيبة مجموعة من الحشرات قوادين وعاهرات منتفعين يبيعون أي شيء من أجل المال. وطوال حياتي قابلت العديد منهم فكنت أنهرهم وأسبهم ولا أتعاون معهم مهما كانت الدواعي. لقد صار الأمر داخلي عقيدة وليس وليد موقف أو حدث.

ابتلع لعابه وسقته ابنته بعض الماء ثم أكمل:

-في يوم من الأيام أتاني ذلك الطرد الصغير من (جوشوا). لم أنس اسم (جوشوا أليسون) مدى حياتي منذ كنت في التاسعة، وكان مجرد ذكر اسمه كافٍ أن يعيدني إلى عالمٍ قمئ من الذكريات، عالمٌ بوابته ذبابة مصرية ميتة في حقيبة سفر. تذكرت نظراته الدونية وغمزته وهو يحدثني ورائحة أنفاسه الكريهة وذقنه الخشنة، والأدهى من كل ذلك ما حدّثه عن أبي وحكاه عن مغامراته الفاسقة، فسرت القشعريرة في بدني والاشمئزاز في روحي. مجرد أن شاهدت الطرد وهممت بفتحه وجدت اسم المرسل (جوشوا أليسون) مدونًا عليه، فسألت نفسي عما يمكن لـ(جوشوا) أن يرسله لي؟ وفي لحظة واحدة وجدت أن كل ما بنيته من حياة جديدة بعيدًا عن تلك الذكريات المخزية ربما يتم هدمه بمجرد أن أفتح الطرد، فماذا يمكن أن يكون فيه؟ رميته في صندوق الأظرف

الغير مهمة وتراكمت عليه السنوات والأشياء حتى نسيته كما تناسيت الحقيبة.

ثم سكت وتنهد تنهيدة عميقة وقال:

-والآن أتى مصري ليخبرني أنني كنت مخطئًا بشأن أبي طوال قرن من الزمن. وأنني كنت مخدوعًا ووقعت ضحية حيلة مخادعة لذلك الرجل (جوشوا)، وأن أبي مات ضحية شهامته ورجولته في أرض تعبق بالفساد والمؤامرات. هل تعتقد يا (عفت) أنك قد جلبت لي السلام الدائم، أم أضفت لي عقدة جديدة من الشعور بالذنب تجاه والدي الذي ظلمه الجميع حتى ابنه الوحيد؟

لم أستطع أن أرد على (كيث). فسكتُّ لثوانٍ طويلة ثم استجمعت أفكاري وقلت:

-الحقيقة يا (كيث) قد تكون مؤلمة حين تكون عارية من ثياب الزيف والخداع، لكنها مريحة للأنفس الحائرة. لا ينبغي عليك أن تشعر بالذنب تجاه أبيك، فلو كان حيًا لسامحك على ظنك فيه وقد وقعت أنت وأسرتك ضحايا لخدعة محكمة نفذتها أيادٍ خبيرة بالمؤامرات والخداع. لكن اليوم ينبغي عليك أن ترفع رأسك أمام الجميع، فأبوك مات بطلًا يدافع عن الإنسانية وهذا أشرف ألف مرة ممن ماتوا في (جاليبولي) من أجل المال أو أهداف سياسية. إن كان يوم الأنزاك بالنسبة

للأستراليين يوم تذكر لشهداء (جاليبولي) الذين عملوا من أجل مصلحة الإمبراطورية البريطانية، فسيكون بالنسبة إليك يوم ذكرى لشهيد (الوسعة) الذي مات دفاعًا عن الإنسانية كلها. مات دفاعًا عن حق (أنجيلا) في الحرية ودعمًا لصديقه المصري (محمد خليل) في حربه ضد الفساد المستشري في مصر. فيجب على كل الإنسانية أن تقف لذكراه احترامًا وتبجيلا.

هز رأسه ببطء متممًا على كلامي ثم قال:

-هل تعلمون يا أولادي...لقد ظللت طوال كل هذه السنين متمنيًا أن أحضر مراسم تأبين شهداء الأنزاك في خدمة الفجر ولو مرةً واحدةً في حياتي. وأجلس مع أسر شهداء (جاليبولي) جنبًا إلى جنب نتذكر آبائنا الشجعان.

فقال (ليام) مسرعًا:

-يوم السبت القادم هو يوم الأنزاك يا والدي أستطيع أن آخذك إلى هناك.

قال (كيث):

-حسنًا ...أحب أن أذهب هذه المرة، لكني أريد (عفت) أن يصطحبني هو إلى المراسم يا (ليام).

نظر (ليام) إليّ يحاول ألا يغتاظ مما سرقته من حقٍ

وشرف، ثم هز رأسه راضخًا باستسلام معترفًا بأحقيتي بذلك. وافقت طبعًا على هذا الطلب، ثم شعرت أن الرجل (كيث) قد أنهكته هذه الليلة الطويلة من الكلام الكثير والمشاعر المتدافعة، فشرعت أرحل، لكن قبل كل شيء قدمت الحقيبة بما تحتويه من أغراض ويوميات وكتاب (راسل) باشا وخطاب (جوشوا) ناحية (ليام) وقلت:

-أعتقد أن هذه الأشياء عادت إلى ملكيتكم الآن.

تفهم (ليام) الأمر ووضع الأشياء جانبًا، ثم استأذنتهم وأنا كلي رضا، ورميت سلامًا إلى (كيث) الراقد مرهقًا وهممت بالرحيل. لكن (كيث) رفع يده بصعوبة وهي متصلة بأنابيب الدواء يطلب سلامي يدًا بيد. نظر جميعهم إليّ بعيون متسائلة، فتقدمت بالطبع ووضعت كفي بكف الرجل المرتعش فأطبق بكفيه الاثنين عليه فشعرت بحرارتهما وكأنه يؤكد عليّ امتنانه على ما فعلته له. ظل ممسكًا بكفي فترة أطول من المعتاد حتى تركها أخيرًا فاستأذنت ورحلت عن الغرفة، وعند باب المنزل اصطحبني (ليام) إلى سيارتي ثم سلم عليّ باليد وقال بحرارة:

-أعتذرعن لكمي لك يا سيد (عفت). لم أكن أتخيل أن تكون بهذا النبل والإصرار. أشكرك بكل ما يستطيع ابنٌ يكاد يفقد أباه على انقاذك لروح أبي وذكرى جدي.

شكرته وتقبلت اعتذاره ولكني قلت له مقترحًا:

-لم تنته المهمة بعد يا سيد (ليام) ولا يزال لك دورٌ فيها. أعتقد أننا في حاجة لإبلاغ وزارة الدفاع بنتيجة ما توصلت إليه حتى يدرجوا جدك بين أسماء شهداء الأنزاك بطريقة رسمية لأنه حتى اليوم مقيد كمتهرب من الجندية. بعد ذلك سيتمكن (كيث) من الحضور للمراسم بطريقة رسمية.

فكر (ليام) قليلًا ثم قال:

-يمكننا أن نحاول رغم ضيق الوقت.

فقلت له:

-لنذهب في الصباح أنا وأنت بما لدينا من براهين وإثباتات إلى وزارة الدفاع ونحكي لهم ما لدينا ونرى ما سيكون ردهم.

وافق (ليام) ثم سلمت عليه واتفقنا أن نتقابل في اليوم التالي عند مبنى وزارة الدفاع.

***

إنقاذ الجندي (واين وارين). (عفت البدوي-سيدني-الحاضر)

في اليوم التالي قابلت (ليام) عند مدخل مبنى وزارة الدفاع الأسترالي، حيث كانت هناك العديد من اللافتات التي

تذكِّر بقرب قدوم يوم الأنزاك والاحتفالات به. دخلنا إلى موظفي الاستقبال عند المدخل فقابلونا بترحاب بعد أن تأكدوا من هويتنا، وعبرنا بوابة كشف المعادن وأخبرناهم بمقصدنا من المجيء. بعد عدة مكالماتٍ هاتفية داخلية قامت موظفة باصطحابنا داخل المبنى الكبير للوزارة حتى وجدنا أنفسنا أمام مكتب وزير الدفاع. اعتقدت أننا سنقابل سكرتيرًا أو مدير مكتب الوزير لكنني فوجئت بالموظفة الحسناء تطلب منا الجلوس في قاعة الانتظار بضع دقائق حتى يسمح لنا الوزير بمقابلته. الوزير؟! وزير الدفاع الأسترالي بنفسه سيقابلنا؟! أنا لم أحلق ذقني اليوم! على العموم ربما نقضي نصف النهار في انتظار الوزير ليسمح لنا بمقابلته، وستنمو ذقني خلالها على أية حال.

-تفضلوا سعادة الوزير في انتظاركم.

نظرت إلى (ليام) الذي لم يبدُ متعجبًا على عكسي أنا، فلم تمض دقيقتان على انتظارنا. اقتادتنا الموظفة إلى داخل مكتب الوزير فلم نجده على مكتبه المليء بالنياشين والكؤوس والصور، لكن الموظفة كانت تقتادنا إلى غرفة الاجتماع الخاصة به. دخلت الغرفة مع (ليام) لنفاجأ بثمانية من مديري إدارات وزارة الدفاع الأسترالية بين مدنيين وعسكريين، إضافة إلى الوزير الذي يجلس على رأس

المنضدة. وقف الوزير وسلم علينا بنفسه ثم أخذ يعرفنا على مديري الإدارات الذين سلموا علينا بدورهم. ثم أجلسنا بجواره وبدأ التحدث إلى الجميع وأنا مذهول مما يحدث:

-السيد (ليام وارين) والسيد (عفت البدوي) لديهم معلوماتٌ بخصوص أحد جنودنا المختفين في القاهرة عام ١٩١٥م قبل حملة (جاليبولي) السيرجنت (واين وارين) رقم تعريفي ١٠٧١ من الفرقة التاسعة ١ AIF. الجندي (واين وارين) تم تقييده في السجلات كهارب من الجندية بعد اختفائه في القاهرة منذ الثاني من أبريل ١٩١٥م، ولم يُفتح ملفه طوال هذه الفترة. اليوم يبدو أن هناك جديدًا لدى هؤلاء السادة الأفاضل. ولأن إرثنا الحضاري والعسكري خط أحمر لا يمكن أن نتغاضى عنه، فقد قمت سريعًا بتشكيل هذه اللجنة للتأكد من المعلومات التي لديكما، حتى نقوم باتخاذ اللازم خاصةً ونحن على بعد أيامٍ قليلة من احتفال الأنزاك لهذا العام. تفضلا بعرض ما لديكما.

لم أزل مبهوتًا مما أسمع. متى تم عقد هذه اللجنة وتجميعها؟ لقد كنا عند المدخل الرئيسي لمبنى الوزارة منذ نصف ساعة فقط! نظر إليّ (ليام) قبل أن يقول:

-شكرا سعادة الوزير. حقيقة قبل أمس لم أكن أعرف شيئًا البتة عن جدي الجندي (واين وارين) إلا أن أبي يتجنب

الحديث عنه لسبب ما، فاحترمنا رغبته جميعًا وتجاهلنا سيرته وذكراه. حتى جاء هذا الرجل النبيل فبحث في الأمر بكل جدية ونشاط وإصرار، ليخبرنا بسرٍ لم نكن نبحث عنه ولكنه يلقي علينا عبأ أن نظهر الحقيقة التي ظلم جدنا وتأذت عائلتنا عندما تجاهلناها. فلو سمحتم سيقوم السيد (عفت) بالتحدث عن تفاصيل بحثه والنتائج التي توصل إليها، وما أرجوه منكم هو العدل لا غير.

تطلعت كل العيون إليّ ما بين مدنيين وعسكريين، فشعرت بالرهبة للحظات قبل أن استجمع شجاعتي وقمت بسرد رحلتي مع الحقيقة وأنا أناولهم الدليل تلو الآخر وهم يتفحصونه بجدية حتى انتهيت فقال الوزير:

-حسنا... يبدو أن لدينا عملًا عاجلًا يا رفاق. نظرًا لاقتراب احتفال يوم الأنزاك خلال أربعة أيام لا بد أن نكون سريعين وفعالين. شكرا يا سيد (عفت) على مجهودك أيا كانت النتيجة. نعدكم بفعل أقصى ما نستطيع لكشف الحقيقة وإرجاع الحق إلى أهله. نريد أن نجتمع بكم غدًا في الصباح في نفس الوقت لنخبركم بنتيجة تحرياتنا. اتركوا لنا الأمر واتركوا هذه الدلائل المهمة الآن ونراكم غدًا.

قام الوزير فقمنا وسلم علينا ثم رحلنا في هدوء. أيا كانت النتيجة فقد وصلت إلى أقصى ما يمكن أن أصله في هذا

الموضوع. ضميري الآن مستريح مهما كانت النتيجة.

وفي اليوم التالي ذهبنا لمقابلة الوزير مرة أخرى في نفس قاعة الاجتماعات مع نفس المجموعة من المدنيين والعسكريين حتى بدأ الوزير بنفسه يتحدث بكل حماس وأمامه ملف جلدي مدون عليه «قضية الجندي ١٠٧١ AIF١» ثم بدأ يتحدث وهو يفتح ويقلب في الملف المليء بالأوراق وقال:

-خلال الأربعة والعشرين ساعة الماضية، تم عمل عدة لجان لبحث المعلومات التي زودتمونا بها. قامت لجنة فنية بفحص دفاتر اليوميات والتأكد أن كليهما صحيحين وتمت كتابتهما عام ١٩١٥م. تم التأكد من صحة الخطاب بعد التأكد من توقيع (جوشوا أليسون) على الخطاب وتوقيع القس (كاميرون هينلي) وشهادة السيدة (آن أليسون). قامت سفارتنا في لندن بالتحقق من مسودة مذكرات (راسل) باشا الأصلية بخط اليد وتم تزويدنا بنسخة معتمدة منها، والمحصلة النهائية أنه تم التأكد من صحة المعلومات وصواب النتيجة النهائية التي توصلت لها يا سيد (عفت).

شعرنا بدفقة من السعادة أنا و(ليام) فأكمل الوزير:

-وبناءً على تلك التحريات، فقد تم اعتماد حالة الجندي (واين وارين) غير متهرب من الجندية أو من معركة

(جاليبولي) وأنه قد قتل في القاهرة في الثاني من أبريل ١٩١٥م قبل المعركة في أحداث الشغب أثناء تعرضه لمؤامرة داخلية في القاهرة أدت إلى مقتله. وبناءً على هذا القرار فقد تم استبدال اللوحة الرخامية للجندي المجهول بـ(مارتن بلاس) لإضافة اسم الجندي (واين وارين) إلى قائمة شهداء الأنزاك، كما تم إضافة اسمه في قائمة شهداء AIF١ في كل المواقع الإلكترونية للوزارة والهيئات الحكومية، وتم وضع نسخة من مذكراته الصحيحة على موقع الأرشيف الحربي الأسترالي، وسيتم اليوم تقليد السيد (كيث وارين) في منزله بكل الميداليات الشرفية والتذكارية التي قلدت منذ عام ١٩١٦م وحتى اليوم. وستُمنح لكم ولعائلتكم كل المزايا والهدايا والمنح التي قدمت لشهداء الأنزاك. كما سيكون السيد (كيث وارين) ضيفنا في خدمة الفجر صباح السبت القادم ٢٥ أبريل.

لا أعلم ما انتابني من شعورٍ وأنا أسمع سلسلة القرارات المختلفة وأكاد أرى الدموع في عيون (ليام). رحلنا منتشين وقضينا اليوم في منزل (كيث) الذي كاد يطير فرحًا بما أخبرناه، وفي المساء استعددنا جميعًا وقد وجدنا وزير الدفاع ومعه سيارتين من سيارات الحراسة قدموا إلى المنزل، دخل هو برفقة أحد مساعديه، وسلموا على (كيث) الراقد على مخدعه، وقام مساعد الوزير بفتح حقيبة جلدية يدوية فظهر

داخلها أكثر من ثلاثين نيشانًا تذكاريًا للأنزاك مرصوصين ولامعين بشكل أخّاذ ثم قال الوزير:

-وهناك من يريد أن يكلمك يا سيد (كيث).. هل أنت مستعد؟

لم يدر (كيث) ما يفعل فهو غير مصدق لكل هذه الأخبار السعيدة المتتابعة فتابع بعينه مساعد الوزير وهو يقوم بأمر ما على هاتفه الذكي، ثم قام بتشغيل التلفاز المقابل لمخدع (كيث) وقام بنقل الصورة من على هاتفه إلى شاشة التلفاز فظهرت صورة متحركة لرجل. صورة رئيس الوزراء الأسترالي بنفسه قائلا:

-أهلا بكم جميعًا.. كيف حالك يا (كيث).

لم يصدق (كيث) نفسه ونحن نخبره أن هذا هو رئيس الوزراء الأسترالي عبر تطبيق الاجتماع المرئي، فأشار بيديه يرد التحية مندهشًا فابتسم رئيس الوزراء ثم بدأ يتكلم بثقة وتلقائية وعفوية:

-حسنا يا رفاق.. أنا لست هنا لإلقاء خطبة ولم أحضّر شيئًا لأقرأه. ولكني جئت اليوم لأقدم اعتذارًا رسميًا من الدولة الأسترالية بكافة حكوماتها على مر السنوات منذ مائة عام، على الخطأ الفادح الذي وقعنا كلنا فيه باعتبار الجندي (واين

وارين) متهربًا من الخدمة العسكرية منذ ٢ أبريل ١٩١٥ م. لا شيء يبرر هذا الخطأ سوى أننا لم نقم بالبحث والتحري اللازمين لكشف حقيقة اختفائه. أنا متأكدٌ أن غياب الحقيقة في هذا الأمر قد سبب العديد من الأحزان والدموع للأسرة لفترات طويلة وهي أثمن من أي شيء آخر. إن قضية اختفاء الجندي (واين وارين) هي جريمة مكتملة الأركان شاركت فيها جهاتٌ كثيرة. للأسف فات أوان محاسبة هذه الجهات وقد ولى زمنها واندثر المتهمين فيها ليواجهوا الرب بجريمتهم.

الاعتذار واجب، لكن الأفراح قد حان أوانها. إن قرار الدولة باعتبار (واين وارين) أحدث شهيد من شهداء الأنزاك يستوجب علينا جميعا أن نفرح ونفخر بأبطالنا الذين ما كانوا ليهربوا من ميدان المعارك وسيقومون بواجبهم تجاه وطنهم وتجاه الإنسانية جمعاء.

سيد (كيث) وكل عائلة الجندي الراحل (واين وارين) عليكم من اليوم أن تفخروا ببطلكم (واين وارين) إلى الأبد كما نفخر بكل شهدائنا الأبطال. ونتطلع أن نلقاكم يوم السبت في خدمة الفجر لتكونوا ضيوفنا المخصوصين هذا العام.

كما أحب أن أشكر السيد (عفت البدوي) على مجهوده في حل لغزٍ مات منذ مائة عام، وإنقاذه للجندي (واين وارين) من

الموت عبثًا، وأقول لك يا سيد (عفت) مرحبًا بك وبأسرتك في أستراليا كمواطن صالح، ولقد رشحت اسمك بنفسي في جائزة المواطن المثالي لهذا العام...

ثم مال أحد مساعدي رئيس الوزراء على أذنه فانقطع عن الحديث، بينما أخذنا جميعا نتطلع إلى وجه (كيث) وقد عادت إليه الحياة وسالت دمعتان من جفنه الملتهب. ثم أكمل رئيس الوزراء:

-لدي أمرٌ آخر لك يا سيد (كيث). هناك شخصٌ آخر يريد التحدث إليك وإلى أسرتك وسينضم إلى الاجتماع المرئي حالًا.

ثم لم تمض ثوانٍ حتى أتت صورة أخرى بجانب الصورة الأولى لرئيس الوزراء لرجل في حلة شرفية إنجليزية مرصعة بالنياشين، شهق جميعُ من بالغرفة لرؤيته بينما أنا لا أعرفه ثم قال بصوتٍ عميقٍ رزين:

-مساءُ الخير.. أنا الحاكم العام لأستراليا... كلفتني جلالة الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا، بعد أن علمت بتفاصيل قضية الجندي (واين وارين)، أن أشكر عائلة (كيث) وأعتذر رسميا لكم عن أي دورٍ أو إهمالٍ لأي مواطن بريطاني فيما ألمّ بالجندي الأسترالي (واين وارين) الذي قتل أثناء دفاعه عن حق مواطنٍ بريطاني في الحرية والحياة. جنود حلفائنا من

دول الكومنولث لهم نفس الحقوق والأهمية كأي جندي بريطاني. كما تشكر الملكة السيد (عفت) على مجهوده في كشف الحقيقة. وهذا غير مستغربٍ على أبناء دول الكومنولث أتباع التاج البريطاني.

سكت كل من بالغرفة وعلى وجوههم علامات الامتنان والشكر والسعادة بهذا التقدير، لكنني شعرت بشيء ينقصني ولا يتيح لي كاملِ الرضا، فلم أدرِ بنفسي وسط هذه الحالة الرائعة من المشاعر إلا وأنا أندفع وأخالف البروتوكول قائلًا:

-شكرا يا سيدي على إطرائك، ولكن لدي شيئًا أقوله لسيادتكم أنت والسيد رئيس الوزراء.. أنا متأكد أن عائلة (واين وارين) يقدرون شكركم واعتذاركم، وهم سعداء بهذا التعويض الأدبي لما أصابهم من غياب الحقيقة بالرغم من فداحة خسارتهم.

ولكن كما دفع (واين وارين) حياته دفاعًا عن مواطنٍ بريطاني، فكلاكما تجاهلتما الشخص الأول والمحرك الأساسي الذي قاد عملية إنقاذ (أنجيلا دراور) المواطنة الإنجليزية في القاهرة، وفقد حياته فداءً لذلك وربما تعرض لتعذيبٍ جسدي ونفسي هو وعائلته. المواطن المصري (محمد خليل). صحيح أنه لا يحمل الجنسية البريطانية أو الأسترالية، ولكن من الظلم تجاهل دوره وهو صاحب القضية وفارسها الأول.

تحرّج الجميع من تعقيبي الذي ظنه معظم الحاضرين غير مناسب وقتًا ومكانًا ومقامًا. صمت الحاكم العام قليلا ثم قال برزانة:

-وماذا عسانا نفعل له يا سيد (عفت). ربما يكون هذا شأنٌ داخلي مصري لا دخل لنا به.

رددت بسرعة:

-يا سيدي الفاضل أنا شخصيًا لا أعلم (محمد خليل) ولم أكن أعلم بوجوده قبل أن أقرأ يوميات (واين). كما أعلم أن (محمد خليل) لن يتذكره التاريخ إلا في ذلكما السطرين الاثنين كثائر ضد الاحتلال البريطاني لمصر وصاحب محاولة فاشلة لاغتيال السلطان حسين كامل الذي عينه الإنجليز. الشيء المتوقع منكم أن تتجاهلوا ذكره بل ربما تتعمدوا محو ذكراه لو استطعتم. ولكننا هنا لا نتحدث عن قضية سياسية أو مشكلة دولية. إن ما جمع (محمد خليل) مع (واين وارين) قضية إنسانية واحدة، وهي إنقاذ سيدة مظلومة مسلوبة الحرية والإرادة صودف أن تكون بريطانية الجنسية. لو حدث هذا الأمر هذه الأيام لربما صنعتم له تمثالًا أليس كذلك؟

يبدو أنني قد انفعلت قليلا وتخطيت حدود البروتوكول الرسمي، فحدثت فترة صمت ملحوظة لم يقطعها إلا صوت (كيث) قائلا في ضعف:

-بعد إذن سيادتكم أنا أتفق مع (عفت) فيما يقول. أبي و(محمد خليل) تشاركا في القضية وتشاركا في المصير ولابد أن يتشاركا في الثواب أيضا.

تواصلت فترة الصمت لثوانٍ أخرى كان فيها الحاكم العام يفكر ببرود، قبل أن يميل على أذنه أحد مساعديه يهمس في أذنه أمرا فهز الحاكم رأسه موافقًا ثم نظر إلينا على شاشة التلفاز وقال:

-حسنا يا سيد (عفت). هذا اقتراحي لتسوية هذا الأمر ولإرضاء ضميرك. هناك زقاق في لندن يصل إلى السفارة المصرية هناك، سأوصي عمدة لندن أن يعيد تسمية هذا الزقاق باسم (محمد خليل) أيرضيك هذا؟

تنفست الصعداء فهذا كان أكثر مما تمنيت لشخصٍ مات واختفى ذكره فقلت:

-شكرًا يا سيدي.

انطلقت حالة من الرضا والنشوة بين كل من بالغرفة بعد فترة من الشد والجذب كنت أحد أطرافها أمام الحاكم العام الأسترالي الذي تعينه الملكة إليزابيث في حضور رئيس الوزراء الأسترالي أمام وزير الدفاع الأسترالي وعائلة (كيث).

استأذن الجميع بالرحيل مع عبارات التهنئة والامتنان

والشكر، وانتهت المكالمة المرئية مع الحاكم العام ورئيس الوزراء، واستأذنت أنا الآخر لأرحل لكن بعد أن لمحت في عيون (كيث) العجوز عودة الروح وانطلاق الحياة.

في الصباح استقبلت رسالة إلكترونية من مكتب الحاكم العام. فتحتها فوجدت مرفقًا بها صورة لوحة معدنية جديدة معلقة على مدخل شارع صغير في لندن مكتوب عليها:

شارع: محمد خليل

ثائر مصري ضد الفساد

***

يوم الأنزاك. (عفت البدوي-سيدني-الحاضر)

لم أشعر براحة وهدوءٍ نفسي هكذا إلا خلال تلك الليلتين اللتين مرتا سريعًا. شعوري أن مجهودي قد كلل بالنجاح في الكشف عن حقيقة غابت عن الجميع، ثم هذا المردود الرائع من الحكومة الأسترالية الذي مسني بشدة، حتى استطعت بهذه الحقيقة أن أريح من نفس (كيث) وهو على حافة الموت، ورددتُ اعتبار (محمد خليل) الأدبي من الدولة التي كان يقاومها، ياله من شعورا جاءتني مكالمة هاتفية من (ليام) مساء يوم الجمعة ٢٤ أبريل ليؤكد عليّ ميعاد مراسم يوم الأنزاك في اليوم التالي، واتفقنا على أن أقابلهم عند بداية

المراسم عند النصب التذكاري (سينوتاف) في منطقة (مارتن بلاس) بوسط سيدني قبل الفجر حيث أحضر خدمة الفجر أولى مراسم يوم الأنزاك كما كان (كيث) يحلم دائمًا. أكدت عليه موافقتي ثم أخذت طوال الليل أعد نفسي لهذا الحدث. بدأت بعرض بعض الأفلام المسجلة عن هذا الاحتفال حتى أعرف كيف تسير الأمور وماذا عساي أنتظر من الغد وماذا ينبغي أن ألبس من ملابس مناسبة. لكن الشيء الذي يقلقني هو تلك الندبة الزرقاء على وجنتي من لكمة (ليام) منذ يومين والتي لن أستطيع أن أخفيها مهما فعلت.

قبل الفجر قمت بلبس بذلتي الرسمية السوداء وأخذت القطار متوجهًا إلى وسط سيدني، وصلت إلى محطة الأنفاق (وينيارد) القريبة من منطقة (مارتن بلاس). صعدت إلى سطح الأرض وكان الليل لا يزال مظلمًا، لكن كانت المنطقة شعلة من النشاط والنظام، حيث هناك العديد من الفرق الرسمية العسكرية، وفرق الموسيقى، والكثير من الرجال العسكريين القدامى بالبزّات السوداء الرسمية وعليها نياشينٌ وأغصان زيتون كلهم موزعين في المكان استعدادًا للمشاركة وبدء المراسم.

عندما وطأت قدماي المكان إذا بشرطيين يقتربان مني ويسألانني عما أفعل هنا. قلت لهما أنني مصاحب لأحد أبناء

المحاربين القدامى فقاموا بتفتيشي بمهنية وبدون أدنى إهانة أو إذلال ثم أمراني بالعبور إلى مكان النصب التذكاري، واعتذرا مني إن كنت قد تضايقت من تفتيشي لأن العديد من الشخصيات المهمة ستزور المكان وينبغي عليهم التأكد من سلامتهم. شكرتهم ورحلت فوجدت أسرة (كيث) يلوحون إليّ من بعيد فأتيت مسرعًا وسلمت عليهم، أما (كيث) فقد كان جالسًا على كرسيه المدولب في أبهى حلله واضعًا نيشانًا وغصن زيتون على بزّته الرسمية، وقد استعاد عافيته وابتسامته وحيويته وظهر كالعريس في ليلة زفافه وكنت سعيدًا بذلك. سلّم عليّ بحرارة وطفولة وأخذ يداعب الجميع بنكات لم أكن أتخيل أن تخرج منه وقد كان دائمًا عبوسًا مهمومًا حتى بضعة أيام مضت. ثم قال لي:

-هيا يا (عفت) ...لنتركهم ونذهب لنحتفل سويًا.

فرحت عندما قال لنحتفل سويًا. فاستأذنت (ليام) وأمسكت مقبضي الكرسي المدولب وشرعت في التقدم ناحية النصب، غير أن (كيث) طلب مني أن ألتف ناحية أسرته مرة أخرى ونظر إلى ثلاثتهم (روز) و(بيتا) و(ليام) وهم يتأملونه وفي عيونهم بهجة لتحسن حاله وانتعاش روحه واسترداد صحته وهو بين يدي، فلوح مسلمًا عليهم بيديه من بعيد فلوّحوا له بدورهم كما لو كان ذاهبًا إلى الحج

على سطح الباخرة ثم طلب مني الذهاب. وأثناء التفاتي لمحتُ (روز) وفي عينيها رسالة ترميها إليّ دون أن يلاحظها (كيث) وقالت بشفاهها دون أن تنطق:

-شكرًا لك...

شعرت براحة أكبر مع تلك الرسالة. لقد لمست المرأة ما حدث لـ(كيث) من تبدل إيجابي في روحه وصحته مما لا يستطيع الدواء فعله فقررت أن تشكرني. يالها من مكافأة مجزية لمجهودي! التفتُ ناحية النصب التذكاري وتوجهت بخطواتٍ ثابتة ناحية مدخل محيط مجالس أسر الشهداء ومرافقيهم وعند المدخل استوقفني ضابطان عسكريان من التشريفة الرسمية وقال أحدهما:

-إلى أين تذهب يا سيد؟

كنت أعلم أن منظر وجهي الشرق أوسطي وتلك الندبة الزرقاء على وجنتي سيستفزان كل شرطي أو عسكري في المنطقة. فقلت:

-أنا مصاحب للسيد (كيث).

فنظرا إلى (كيث) الذي أعطاهم دعوته وقال لهما:

-نعم إنه الوحيد الباقي من أسرتي، وهو يصحبني أنا (كيث) ابن سيرجنت (واين وارين).

أخذ الضابط الدعوة وتفحصها بروتينية، ثم ردها مرة أخرى إلى (كيث)، واعتدل هو وزميله في وقفة عسكرية صارمة وصاح صيحة عالية سمعها كل من في المكان ليشد انتباه كل الحضور، رفع الضابطان تحية الجنود العسكرية بكفيهما وقالا بصوتٍ عسكري حازم:

-تحية تبجيل واحترام لروح الجندي سيرجنت (واين وارين) أحد أبطال شهداء الأنزاك بـ(جاليبولي).

نظرت حولي فإذا كل الجنود والضباط العسكريين من حولنا يلتفون ناحيتنا ويؤدون التحية العسكرية لـ(كيث) ولي بكل تبجيل واحترام بينما خلع المدنيون ممن بالمكان قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم لمدة ثلاثين ثانية. لم أصدق ما أرى أمامي من تبجيل واحترام لذكرى جندي واحد من آلاف الجنود الذين ماتوا في حرب انتهت منذ قرنٍ من الزمان. استعدت رباطة جأشي لأقول شيئًا ما لـ(كيث) لكني وجدت الرجل وعلى وجهه سعادةٌ غامرة ممزوجة بفخر عظيم وعين دامعة. كان مزيجًا غريبًا من المشاعر استوقفني ولم أفهمه. الرجل أخيرًا يشعر بالفخر لأبيه، ويشعر بالسعادة للجائزة الكبيرة التي يعطيها الوطن لشهدائه، وتدمع عيناه حزنًا على الظلم الذي وقع على أبيه، أو على تفويته كل هذا التبجيل والاحترام كل هذه السنوات.

انتهت الثلاثون ثانية فاعتدل الجميع وأخذوا يكملون استعداداتهم لبدء المراسم وأشار الجنديان لي بالدخول ووجّهانا بنفسيهما إلى مكان جلوسنا بين أهالي الشهداء والمتقاعدين كبار السن. جلست بجوار كرسي (كيث) المدولب فلاحظت رجلًا عجوزًا عسكريًا متقاعدًا يجلس جواري على الناحية الأخرى وهو ينظر إليّ بتعالٍ وعنجهية، وفي عينيه استفسار أنا متأكد أن له علاقة بوجهي الشرق أوسطي المتورم ثم قال باشمئزاز:

-ما الذي تفعله هنا بحق الجحيم؟

لم أدرِ كيف سأرد عليه فأحرجت حتى أنقذني (كيث) وقال للرجل بثقة وثبات:

-هذا حفيد البطل المصري الذي أنقذ والدي من الموت في القاهرة عام ١٩١٥م.

تحولت نظرة العنجهية إلى نظرة امتنان واحترام من الرجل، فرفع قبعته يتبادل التحية والشكر معي ممزوجة باعتذار عن سوء ظنه، ثم اعتدل ليستعد لبدء المراسم. شعرت بجزيل الامتنان لـ(كيث) على إنقاذه للموقف وعلى مساندته لي في هذا الموقف المحرج. لقد رفعني بجواره إلى مرتبة عالية لأشاركه الفخر كواحدٍ من أقرباء شهداء الأنزاك الفخورين بآبائهم وأجدادهم. وبينما أنظر إلى (كيث) أشكره

على موقفه مال على أذني وقال:

-أنت فعلًا من أنقذت أبي من الموت في القاهرة وأحييته من جديد.

ثم ربت بكفه على كفي بحنان أبوي. لقد رأيت بعيني نتيجة مجهودي في البحث عن الحقيقة. إن هذا التحول الرائع في نفسية وروح (كيث) هي مكافأتي على هذا الجهد الذي بذلته. وهي بالنسبة إليّ أمر كافٍ بل أكثر من كاف. ذلك الشكر والعرفان من (كيث) أمر رائع أثلج على صدري أشعرني بحماسٍ يدفعني حتى للبكاء إلا أنني تماسكت في الرمق الأخير.

وجدت ورقةً مكتوب عليها مراسم وطقوس الاحتفال. ومما وجدت شرحًا لأصل (خدمة الفجر) فيقال أنها دلالة على وقت إنزال أول جندي أسترالي على جزيرة (جاليبولي)، ويقال إنها أول مرة أقيمت في ألباني غرب أستراليا بواسطة القس (آرثر وايت) عام ١٩٢٨م وكان أحد جنود الجبهة الغربية، أو إنها نداء الاستيقاظ التقليدي للجيش للتأهب للقتال. هناك جدل على أصلها لكنها فقرة ثابتة في كل احتفال بيوم الأنزاك.

بدأت المراسم بعد أن صمت الجميع فتطلعت إلى المنصة المقامة بجوار النصب التذكاري للشهداء عندما وقف رجلٌ

مهيبٌ أشيب الشعر يتحدث، ومن خلفه فرقة تمثل طوائف وفرق الجيش الأسترالي، وأخذ يتحدث عن الحروب المختلفة والتضحيات المختلفة للجنود الأستراليين ويقوم بتعريف المراسم والمدعوين والزائرين والداعمين والرعاة للمراسم هذا العام.

ثم أعلن الرجل عن القيادات المختلفة القادمين لحضور الحفل كرئيسة وزراء نيو ساوث ويلز التي قدمت في سيارة صغيرة ونزلت منها، واستقبلها رجل عسكري متقاعد يحمل عشرات النياشين اللامعة وصحبها إلى محيط الاحتفال. تبعتها حاكمة نيو ساوث ويلز بنفس الطريقة مصطحبة برجل عسكري متقاعد آخر. وقف جميع الحضور احترامًا لها فقامت الفرقة الموسيقية العسكرية بعزف التحية الرسمية القصيرة مع وقفة صامتة لبضع ثواني لتأخذ مقعدها، حتى طلب المقدم من الجميع الجلوس وأكمل حديثه عن الحفل والمراسم. ثم تقدم جنديان أحدهما من البحرية والآخر من المشاة مع دقات الطبلة العسكرية بخطوات ثابتة، ووضعا بندقيتهما في وضعٍ معكوس حيث الفوهة على الأرض ونكسا رأسيهما وقد وقف الجميع احترامًا وتبجيلًا للحظة.

كنت بين الحين والآخر أتطلع إلى (كيث) فأجده كالطفل الصغير سعيدًا بحصوله على لعبته الأولى أو لعبته الأجمل،

فلم تفارق الابتسامة وجهه وهو يستمع لكل كلمة ويتأمل حوله القوات والعسكريين والمدعوين، وكأنه كان يتضور جوعًا ثم وجد وجبة مثالية يتناول منها ما يشاء بغير حساب.

أكمل مقدم المراسم وقدم رئيسة وزراء نيو ساوث ويلز التي صعدت إلى المنصة، وشرعت تلقي أبيات شعر للشاعر الأسترالي من سيدني (إليوت نيفير) تحت اسم (التحية)، ثم رجعت إلى كرسيها مرة أخرى. ثم قام قس كبير رسمي بالصلاة على أرواح شهداء الأنزاك وشهداء كل القوات الأسترالية عبر حروبها على مر العصور ناشدًا السلام لأرواحهم المقدسة، ثم قام ممثل الأقليات والسكان الأصليين يحيي أرواح شهداء الأنزاك من السكان الأصليين، ثم قام مقدم الحفل بدعوة رئيس القوات الجوية الأسترالية ليلقي كلمته، ثم قام بدعوة الجميع للغناء مع الكورس العسكري تقودهم فتاة شابة من البحرية صغيرة السن ذات صوت ملائكي كما لو كان صوتًا من الجنة. أخذ الجميع يغنون أغنية حزينة وكان (كيث) يقرأ الورقة ويغني كلمات الأغنية بكل حماس وقوة. ثم دعي المقدم الجميع للقيام وغناء النشيد الوطني الأسترالي بنفس الطريقة خلف الفتاة الجميلة من البحرية، وكان (كيث) أول وأقوى من يغني بكل جوارحه وكأنه اكتشف الآن فقط جنسيته الأسترالية.

ثم جلس الجميع وقام المقدم بدعوة حاكمة نيو ساوث ويلز للتحدث، فقامت السيدة المبجلة المعينة من ملكة إنجلترا بالتحدث عن الشهداء وما ضحوا به من أجل أستراليا ودول الكومنولث والتاج البريطاني. كانت مقالة قصيرة لكنها معبرة وصادقة باسم ملكة إنجلترا. ثم قامت الحاكمة بوضع إكليل من الزهور على النصب التذكاري مع وقفة صمت والموسيقى الجنائزية الأسكتلندية. ثم قامت رئيسة وزراء الولاية بوضع إكليل الزهور على النصب بدورها. ثم ممثل رئيس وزراء أستراليا ثم تلاهم العديد من ممثلي الهيئات والسفارات والوزارات. ثم دعا المقدم الجمع بالوقوف بينما قام أحد الشبيبة بإلقاء القصيدة الشهيرة

سيكبرون كل عام في عيوننا وما يهرمون

العمر لن ينهكهم مثلنا ولن تدينهم السنون

مع كل غروب للشمس أو شروق في الذكرى سيبقون

ثم تلا ذلك نفخ البوق في مشهد تقشعر له الأبدان بصوتٍ عميق يهز القلوب وكأنه صوتٌ قادم من الماضي من معسكر (مينا) عبر عشرات السنين. شعرت بـ(كيث) يستمتع بكل أنغامه ويغمض عينيه وكأنه يعيش أجواء معسكر (مينا) في صباح أحد الأيام الباردة الشتوية تحت سفح الأهرامات. ثم

تلا ذلك فترة صمت لتبجيل ذكرى هؤلاء الشهداء، فصار المكان الذي يعج بمئات الناس كما القبور لا صوت أنفاس أو حركة أو طرقات أو خطوات فيه. صار كل شيءٍ صامتًا في ليل بهيم لا ضوء له. حتى قام نافخ البوق بنفخته الثانية معلنًا انتهاء فترة الصمت، فقام المقدم بتقديم فقرة غنائية كنائسية جديدة تحت قيادة المغنية الملائكية من جديد. ثم أغنية جديدة للنيوزيلنديين اسمها (الأحزان) بواسطة مجموعة من فتيات السكان الأصليين. ثم أغنية أخرى بواسطة كورس من العجائز. ثم أغنية أخرى لها دلالة أخرى ورابعة وخامسة. كلها أغاني جنائزية تمجد هؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الوطن.

ثم في النهاية دعا المقدم كل الحضور بالقيام تحية لحاكمة الولاية لرحيلها مع تحية الفرقة الموسيقية العسكرية كما حضرت تمامًا. ثم أخذ المقدم يشكر كل القائمين على الحفل وشكر جميع الحضور ثم بدأ الجميع بالانصراف بهدوء كما حضروا.

أقتنع أو لا أقتنع بالأنزاك وأسباب معركة (جاليبولي) أو أي من حروب أستراليا في الحربين العالميتين وجدواها وأسبابها، كل هذا لا يغير من قناعتي أن احترام الشعوب لشهدائها على مر الزمان بهذا الشكل اللائق المبجل هو أهم

طريق نحو الحضارة والإنسانية والمواطنة. تقدير تضحيات من حاربوا باسم وطنك أيًا كان الهدف هو شيء سامي لا جدال فيه وترسيخ لمبدأ المواطنة. تذكرت آلاف من الجنود المصريين الذين شاركوا في حروب مصر الحديثة عامي ١٩٦٧م و١٩٧٣م، من شهداء أو جرحى ولم ينالوا ما يليق بتضحياتهم، وأن تجاهل هذا التبجيل والاحترام خلق العديد من الأجيال الأنانية التي لا تقدر معنى الوطن ولا يهمها مستقبله أو حاضره.

أخذتني المراسم والأغاني الجنائزية والموسيقى المبكية وقدسية المكان واحترام القائمين على خروج هذه الطقوس بهذا الشكل الرائع الذي يتكرر سنويًا على مر أكثر من قرنٍ من الزمن. انشغلت عن (كيث) لدقائق وأنا أتأمل تفاصيل كل شيء أبهرني في هذه المراسم، وبينما همّ الجميع بتبادل الحديث مع بعضهم البعض استعدادًا للرحيل عن المكان التفتُّ إلى (كيث) أسأله:

-كيف ترى المراسم يا (كيث) كأولِ مرةٍ في حياتك؟ أخبرني شعورك.

ظلت على وجه (كيث) علاماتُ السعادة والارتياح مغمضًا عينيه منذ كان يستمتع بالأغنيات منذ قليل لكن دون أن يتحرك. فربت على كتفه وأنا أناديه لكن الرجل لم يتحرك.

هزرته بعنف فانحنى جسده إلى الأمام دون حراك. توقفت أنفاسي وقد فهمت ما يعنيه ذلك. أقمت ظهره على الكرسي المدولب فارتمت رأسه للخلف على ظهر الكرسي بلا إرادة لكن لم تفارق ابتسامة السعادة وملامح الراحة على وجهه. وضعت رأسي على صدره، فأيقنت الصمت النهائي لقلب المسكين والتوقف الجازم لأنفاسه. لكني لاحظت أنه يضم يده اليمنى إلى صدره ناحية قلبه، فمددت ذراعه لأكتشف أن يده كانت ممسكة بشيء ما يضمه إلى صدره بقوة. أمسكت ذلك الشيء من يده التي لم تمانع فكانت ورقة، بل صورة، بل صورة قديمة متهالكة بالأبيض والأسود لأبيه (واين وارين) مرتديًا جلبابًا مصريًا وهو يقف سعيدًا واضعًا ذراعه على كتف صديقه المصري (محمد خليل)، وهما بين أفراد أسرة (محمد خليل) في القاهرة، وعلى وجوه الجميع نظرات السعادة والود والمحبة.

***

٢١ أبريل ٢٠١٨م موقع وزارة الدفاع الأسترالي على الإنترنت. اكتشاف جثة جندي أسترالي بالقاهرة القديمة بعد موته بأكثر من مائة عام.

أعلن وزير الدفاع الأسترالي اكتشاف جثة مجهولة لجندي أسترالي من جنود القوات الإمبراطورية الأسترالية بالحرب

العالمية الأولى AIF-١ في مقابر الحرب بالقاهرة القديمة، وتم التأكد من هوية هذه الجثة وهي تعود للجندي الأسترالي (واين وارين) رقمه التعريفي ١٠٧١ من الفرقة التاسعة. الجندي (واين وارين) تم الإعلان خطئًا أنه متهرب من الجندية في القاهرة ٢ أبريل ١٩١٥م قبل أن يتم اكتشاف حقيقة اختفائه ومقتله بعد تقديم معلومات جديدة عنه للجنة التعريف الحربي الأسترالي والتأكد من صحة المعلومات، وتم تعديل حالته العسكرية كشهيدٍ للأنزاك، ومنذ ذلك الحين والسلطات الأسترالية قامت بتكثيف الجهود في البحث عن جثته في القاهرة القديمة حتى وُجد قبره في مقابر الحرب بالقاهرة القديمة بين العشرات من قبور المصريين. تم الإبقاء على جثة وقبر الجندي (واين وارين) في القاهرة حيث وجد، تماشيًا مع رغبة أسرته الذين صرحوا أن أمنيته الأخيرة كانت أن يظل بالقاهرة كما كتب في يومياته.

الختام

هناك. في مقابر إدينفيلد بمانشيستر في بريطانيا، بين آلاف من شهود المقابر الرخامية القائمة بين الحشائش الخضراء في جو مسالم بارد النسمات، كان هناك شاهد قبر واحد عادي غير مميز، لصاحبته العادية التي ترقد تحته مسالمة مستقرة في تابوتها الخشبي، وأمام الشاهد مئات من باقات زهور جافة وبعض من متعلقاتها الصغيرة كقرط ذو شكل هلالي، وعقد فضي يحمل شكل أهرامات الجيزة الثلاثة، وتمثال عاجي منمنم صغير للملكة نفرتيتي. الشاهد الرخامي محفور عليه:

(أنجيلا دراور ... ١٨٨٧م- ١٩٥٣م... الابنة الغائبة العائدة الحزينة...وأم لمئات الأطفال البريطانيين من أيتام الحروب).

لكن بين هذه المتعلقات كان هناك دفتر جلدي عتيق، بداخله ورقة مطوية داخل ظرف قديم لم يفتحه أحد منذ موتها. كان خطاب لم يقرأه أحد إلا هي، ولن يقرأه أحد آخر على الأرجح. كان خطاب رغم السنين لا يزال يحمل رائحة القاهرة:

القاهرة – ٥ أبريل ١٩١٥م

عزيزتي أنجيلا

«هذا أنا (محمد خليل) مرة أخرى وللمرة الأخيرة... أتمنى من الله أن تكوني أنتِ من تقرئين هذا الخطاب بعد أن استطاع (واين) و(أندرو) إنقاذك من معركة الوزير وحريق الوسعة بعد أن أمددتهم بالمعلومات اللازمة لذلك. أما أنا، فأنا متأكد أنني سأكون الآن في العالم الآخر حين يصلك هذا الخطاب في إيدينفيلد وتقرئينه، عالم الموت حيث لا ظلم ولا قهر ولا رق ولا فساد ولا احتلال.

إن من نحاربهم قد أحرقوا القاهرة فقط ليتخلصوا من قضيتك ومنك ومنا أنا و(واين) حراس الحقيقة. السرايا والبوليس السياسي وقادة الاحتلال..كنت أعلم أنهم سينجحون في إشعال الأمور والتخلص منا، ولكن كلي أمل أن تستطيعين أنتِ النجاة والفرار بروحك الطاهرة ونفسك المظلومة من أتون هذا الجحيم الفاسد.

اليوم عرفت أن صديقي العزيز (واين وارين) اختفى منذ يوم الشغب يوم الجمعة ٢ أبريل ١٩١٥م. أنا موقن أنهم تخلصوا منه كما يسعون للتخلص مني. مسكين (واين) لم يعرف أن عاقبة الشهامة والمروءة هذا الزمن هي القتل وتشويه السمعة. أشعر بالألم على أسرته التي أرسلت رجلًا إلى مصر لتستقبل جثة منها دون حتى أن يعرفوا بحقيقة موته.

أما أنت يا أنجيلا فإن ما أحمله لك من عاطفة وحب أسمى أن تبارَك بالجسد والقبلات. لا تحزني يا أنجيلا على ما فاتك من شعور الأمومة أو متعة الجسد، لا تحزني عليّ أيضًا فقد اخترتُ طريقًا أعرف نهايته منذ البداية، لكن أقبلي على الحياة وتمسكي بها، واجعلي ما قاسيته درسًا للآخرين. لقد جئتِ مصر دون إرادتك، واسترقيتِ دون إرادتك، وتشوهتِ دون إرادتك، ورُحّلت دون إرادتك، فاجعلي إرادتك ولو لمرة واحدة أن تكوني أمًّا ومعلمة للأيتام وأطفال الشوارع الأبرياء. علميهم الأمل والحب والعدل والطهر والشفافية والإنسانية. علميهم مني المثابرة والإصرار وحب الوطن، علميهم من (واين) الوفاء والصداقة، علميهم منكِ الأمل وعدم الاستسلام للظلم.

خلال الأيام القليلة القادمة سألقي بنفسي إلى التهلكة لأنتقم لكِ ولـ(واين) وللقاهرة. مهما كانت نتيجة ما سأفعله، فلا أظنني سأنجو منه. لم أكن أظن أنني سأنجو على أية حال. اقتربت نهايتي ولا أخاف منها، ولكني لا زلت أخاف على مصر وطني المظلوم. قد ينجو من الاحتلال الإنجليزي يومًا، لكنه قد يسقط فيما هو أسوأ منه طالما وجد من هم على شاكلة السرايا والبوليس السياسي والشرطة الفاسدة و(إبراهيم الغربي).

سيموت (محمد خليل) ولن يذكره التاريخ، ولن يتذكره الناس على مقاهي الأزبكية، أو في مساجد مصر القديمة، أو على صفحات الجرائد. لكن في كل يوم، سيأتي (محمد خليل) جديد يبحث عن الحقيقة ويحارب الظلم أيًا كان شكله، ويفتدي نفسه للوطن مهما كان من يحتله. ومن يدري، ربما يأتي أحدٌ يومًا من الأيام يبحث عن الحقيقة في حكاية ثلاثة أبرياء من ثلاث قارات مختلفة، لينصف المظلوم ولو بكلمة ما في صفحة ما في كتاب ما.»

تمت

سيدني-أستراليا

٥/١٢/٢٠٢١

المصادر

-مذكرات توماس راسل حكمدار القاهرة- توماس راسل باشا ترجمة مصطفى عبيد

-حوليات مصر السياسية- أحمد شفيق باشا- تقديم ودراسة أحمد زكريا الشلق

-عندما شهدت شوارع القاهرة معركة الوزة «حرب باب الوزير- شذى يحيى -جريدة النجم ٢٢ مايو ٢٠٢٠

- Awm.gov.au

- The (First) " Battle of the Wasser", ٢ April ١٩١٥: a Footnote in History?

- C. E. W Bean, The Official History of Australia in the War of ١٩١٤-١٩١٨, Volume ١, The Story of Anzac: The First Phase (Sydney: Angus & Robertson, ١٩٤١), ١٣٠, footnote ١٢. Bill Gammage, The Broken Years: Australians Soldiers in the Great War (Melbourne: Penguin Books, ١٩٧٥),

- Eric Harford Ward diary, MLDOC ١٣٠٠,

Mitchell Library, New South Wales